
Herlock Holmes
شيرلوك هولمز
آرثر كونان دويل
ARTHUR CONAN DOYLE


مغامرات
شيرلوك
هولمز
عصير الكتب

مغامرات شيرلوك هولمز





إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: مايو 2021م
رقم الإيداع: 2021/7860م
الترقيم الدولي: 978-977-85876-3-0
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

العنوان: مغامرات شيرلوك هولمز
ترجمة: محمد رجب - علي عيسى
تحرير: محمد الجيزاوي
تدقيق لغوي: عماد غزير

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار





مغامرات شيرلوك هولمز



مغامرة تاج الزمرد

ذات صباح، وبينما أقف أمام نافذتنا المستديرة أنظر إلى الشارع قلت: «هولمز، هناك رجل مجنون في الشارع. كيف يسمح له أهله بالخروج وحده؟».

قام صديقي من مقعده متكاسلًا، ويداه في جيب منامته، ونظر من فوق كتفي. كان يومًا مشرقًا من أيام فبراير، لا تزال ثلوج اليوم السابق تلمع على الأرض تحت شمس الشتاء. وقد تحول منتصف شارع بيكر إلى شريط بني بسبب مرور العربات، ولكن الجوانب وحافات سير المشاة العالية بقيت بيضاء كما هي. أما الرصيف فقد نُظِّف وأزيلت الثلوج من فوقه، إلا أنه ظل زلقًا على نحو خطير، لذا تجنبه المشاة. ومن ناحية محطة ميتروبوليتان لم يكن هناك أحد قادم سوى ذلك الرجل المحترم الذي لفت سلوكه الغريب انتباهي.

كان رجلًا يبدو في الخمسين من عمره، طويل القامة، ذا وجه عريض وملامح بارزة وشخصية تبدو قوية. يرتدي زيًّا قاتمًا لكنه أنيق، ومعطفًا أسود طويلًا، وقبعة لامعة، وحذاءً بنيًّا طويلًا، وبنطالًا رماديًّا. لكن أفعاله كانت تناقض هيبة ملامحه وملابسه، حيث كان يهرول مع بعض الوثبات الصغيرة كرجل لم يألف الحركة كثيرًا. وبينما كان يجري كانت يداه تلوحان في الهواء لأعلى ولأسفل، ويهز رأسه، ووجهه ينقبض بشكل غريب.

تساءلت قائلًا: «يا إلهي ماذا به؟ إنه ينظر إلى أرقام المنازل».

قال هولمز وهو يفرك يديه: «أعتقد أنه قادم إلى هنا».

- هنا؟

- نعم، أعتقد أنه قادم ليستشيرني. أنا أعرف هذه العلامات. ها! ألم أخبرك.

بينما كان هولمز يتحدث، دخل الرجل وهو ينفث غضبًا ويتأفف مندفعًا نحو بابنا، دق الجرس فدوّى الصوت في أرجاء المنزل.

بعد لحظات قليلة، كان في غرفتنا، وهو ما زال يتأفف ويومئ بيديه، وفي عينيه نظرة كلها يأس وأسى، فتحولت ابتسامتنا إلى خوف وشفقة. لم يستطع الحديث مباشرةً، كان يتمايل ويشد شعره كمن وصل إلى قمة الجنون. ثم فجأة انتصب واقفًا وضرب رأسه بالحائط بقوة دفعتنا إلى الإسراع نحوه وجذبه إلى منتصف الغرفة. دفعه شيرلوك هولمز إلى كرسي وثير، وجلس بجانبه، وربت على يده، وأخذ يتحدث إليه بنبرته الهادئة المريحة التي يعرف كيف يستخدمها.

قال: «لقد أتيت لتخبرني بقصتك، أليس كذلك؟ أنت مرهق من عجلتك. من فضلك انتظر حتى تلتقط أنفاسك، ثم سأكون سعيدًا بسماع أي مشكلة صغيرة ستعرضها علي».

جلس الرجل لدقيقة أو أكثر وهو يتنفس بقوة محاولًا أن يتمالك نفسه. ثم مسح جبهته بمنديله وزم شفتيه وأدار وجهه نحونا وقال: «لا شك أنك تظن أني مجنون، أليس كذلك؟»

فرد هولمز قائلًا: «أرى أنك تواجه مشكلة كبيرة جدًّا».

- بالطبع، يعلم الرب أنها مشكلة قادرة على أن تذهب بعقلي كله، ويعلم كم هي مفاجئة ورهيبة. كان من الممكن أن أواجه فضيحةً عامة، رغم أني رجل لم تشب سمعتَه شائبة حتى الآن، كما أن المصائب

الشخصية هي قدر الجميع. لكن أن تأتي المصيبتان معًا، وبهذه الصورة المخيفة! فقد كان ذلك كافيًا أن يفقدني عقلي. وإلى جانب ذلك، فلست وحدي من سيتضرر؛ فأنبل رجل في البلد قد يتأثر ما لم تكن هنالك وسيلة للخروج من هذا المأزق الخطير.

قال هولمز: «أرجو أن تتمالك نفسك يا سيدي، وأعطني نبذة واضحة عن شخصك وما أصابك».

أجاب زائرنا قائلًا: «ربما يكون اسمي معروفًا لديك. أنا ألكسندر هولدر، من مؤسسة هولدر وستيفينسون المصرفية التي مقرها في شارع ثريدنيدل».

كان الاسم معروفًا لنا بلا شك؛ فقد كان اسم الشريك الأكبر في ثاني أكبر مصرف خاص في مدينة لندن. فما الذي يمكن أن يكون قد حدث إذن ليجعل واحدًا من أشهر مواطني لندن في هذه الحالة الأكثر إثارة للشفقة على الإطلاق؟ انتظرناه بكل فضول حتى تمالك أعصابه مرةً أخرى ليبدأ في رواية قصته.

أخيرًا قال: «أعتقد أن عامل الوقت مهم؛ لذا سارعت بالقدوم إلى هنا عندما نصحني مفتش الشرطة أن أسعى للحصول على مساعدتك. لقد أتيت إلى شارع بيكر عبر مترو الأنفاق، ومن هناك مشيت مسرعًا إلى هنا؛ لأن عربات الأجرة تسير ببطء عبر هذه الثلوج. لذلك كنت ألهث؛ فأنا لا أمارس الرياضة كثيرًا. على أية حال، أشعر بتحسن الآن، وسأضع الوقائع أمامك بأكثر قدر ممكن من الاختصار والوضوح.

أنت تعلم جيدًا بالطبع أن العمل المصرفي الناجح يعتمد على قدرتنا على إيجاد استثمارات مربحة لأموالنا، وعلى توسيع شبكة علاقاتنا وعدد المودعين لدينا.

وإحدى أكثر وسائلنا تحقيقًا للربح هي القروض التي تكون درجة الأمان فيها عالية. لقد حققنا الكثير في هذه الناحية خلال السنوات القليلة الماضية، وقد أقرضنا مبالغ كبيرة للكثير من العائلات النبيلة بضمان لوحاتها أو مجموعات كتبها أو مقتنياتها الثمينة.

كنت جالسًا في مكتبي بالمصرف صباح أمس عندما أحضر أحد الموظفين إلى مكتبي بطاقة تعريف لأحدهم. جفلتُ عندما رأيت الاسم؛ لأنه لم يكن سوى اسم.... حسنًا، من الأفضل ألا أقول، حتى لك، أكثرَ من أنه اسم معروف في جميع أنحاء العالم. .... أحد أنبل وأرقى وأهم الأسماء في إنجلترا. لقد أربكني شرف مقابلته، وحاولت عندما دخل أن أعبر عن ذلك، ولكنه تطرق إلى أمور العمل مباشرة، كرجلٍ يرغب في إنهاء مهمة مزعجة بسرعة.

وقال: «سيد هولدر، علمت أنكم معتادون على إقراض الأموال».

فرددت عليه قائلًا: «يقوم المصرف بذلك متى كانت الضمانة جيدة».

– من الضروري للغاية بالنسبة إليَّ أن أحصل على خمسين ألف جنيه إسترليني فورًا. يمكنني بالطبع أن أقترض عشرة أضعاف هذا المبلغ الزهيد من أصدقائي، ولكنني أحبذ أن يكون هذا الأمر رسميًّا، وأن أقوم به بنفسي. يمكنك أن تتفهم بسهولة أنه ليس من الحكمة لرجل في مكانتي أن يضع نفسه قيد التزامات كهذه.

سألته: «إن كان لي أن أسأل، لِكم من الوقت تريد هذا المبلغ؟»

– سأتسلم مبلغًا كبيرًا مستحقًّا لي يوم الاثنين القادم، وعندئذ سأسدد لك بلا شك كل ما ستقرضه لي بأي نسبة فائدة تجدها مناسبة. ولكن من الضروري للغاية أن تقرضني المبلغ على الفور.

– كان سيسعدني أن أقرضك المبلغ من مالي الخاص دون أي حاجة للمزيد من المفاوضات لو لم يكن ذلك سيشكل عبئًا شديدًا لا طاقة لي به. وعلى الجانب الآخر، لو فعلت ذلك تحت اسم المصرف، فإن من حق شريكي عليَّ أن أصر حتى في حالتك، أن نتخذ كل الاحتياطات العملية الممكنة.

رد وهو يرفع حقيبة جلدية سوداء مربعة كان قد وضعها بجانب كرسيه: «هذه هي الطريقة التي أفضلها تمامًا. لقد سمعت بلا شك عن تاج الزمرد، أليس كذلك؟»

– بالطبع سمعت به، إنه واحد من أثمنِ ممتلكات الإمبراطورية العامة.

– بالضبط.

ثم فتح الحقيبة التي تستقر بداخلها في مساحةٍ من المخمل الناعم ذي اللون الوردي قطعةُ المجوهرات النادرة التي حدثني عنها. وأردف قائلًا: «يحتوي التاج على تسع وثلاثين زمردة ضخمة، أما النقوش الذهبية فلا تقدر بثمن. إن أقل تقدير لقيمة التاج يساوي ضعف المبلغ الذي طلبته منك. وأنا مستعد لترك التاج بحوزتك كضمانة».

أخذت الحقيبة الثمينة في يدي ونظرت إليها ثم إلى عميلي الشهير ببعض الحيرة.

فسألني قائلًا: «أتشك في قيمته؟».

– لا إطلاقًا، أنا فقط أتساءل..

– تتساءل بشأن مدى مناسبة تركه لديك. يمكنك أن تطمئن حيال هذا الأمر، ما كنت لأفكر في ذلك إن لم أكن على يقين تام من أنني سأتمكن من استرداده خلال أربعة أيام. إنه مجرد إجراء شكلي. هل الضمانة كافية؟

– تمامًا.

– أنت تفهم بالطبع يا سيد هولدر أنني أعطيك دليلًا قويًّا على ثقتي بك بناءً على ما سمعته عنك. أنا أعتمد عليك ليس فقط في التكتم والامتناع عن أي قيل وقال في هذه المسألة، وإنما أيضًا، وقبل كل شيء، في الحفاظ على هذا التاج بكل الإجراءات الممكنة؛ إذ إنني لست بحاجة للقول إنه إذا لحق أي ضرر به، فسينتج عن ذلك فضيحة عامة. إن أي ضرر سيصيبه سيكون على نفس القدر من خطورة فقدانه بالكامل؛ إذ إنه لا توجد أحجار زمرد في العالم كله تضاهي هذه الأحجار، وسيكون من المستحيل استبدالها. على أية حال، سأتركه معك وأنا كلي ثقة بك، وسآتي لأتسلمه شخصيًّا صباح يوم الاثنين.

عندما رأيت أن عميلي يتعجل المغادرة، لم أقل أي شيء، استدعيت الصراف وأمرته بصرف خمسين ألف جنيه إسترليني. ومع ذلك، بعدما صرت وحدي مرة أخرى مع هذه الحقيبة الثمينة الموضوعة على الطاولة أمامي، لم يسعني سوى التفكير بشيء من الخوف في المسؤولية الهائلة التي ألقتها هذه الحقيبة على عاتقي. فلم يكن هناك أدنى شك أنه إذا لحق أي ضرر بملكية قومية كهذه، فسيتسبب ذلك في

فضيحة مروعة. لقد ندمت بالفعل على موافقتي على تولي مسؤولية كهذه. ولكن كان الأوان قد فات لتغيير أي شيء؛ لذا فقد أغلقت على الحقيبة في خزانتي الخاصة وعدت إلى العمل مرة أخرى.

عندما حل المساء، شعرت أنه سيكون من التهور أن أترك شيئًا ثمينًا كهذا في مكتبي وأغادر. لقد سُرِقَت خزانات مصرفين من قبل، فلم ستكون خزانتي استثناء؟ وإن حدث ذلك، فلا يمكنني تخيل كم سيكون الوضع الذي سأجد نفسي فيه سيئًا! لذا قررت أنني خلال الأيام القليلة المقبلة سأحمل الحقيبة معي دائمًا ذهابًا وإيابًا حتى لا تغيب عن نظري أبدًا. وهكذا، استقللت عربة أجرة، وتوجهت إلى منزلي في ستريتام وأنا أحمل الكنز الثمين معي. لم أتنفس الصعداء إلا عندما صعدت إلى الطابق العلوي بمنزلي، ووضعته في مكتبي وأغلقته عليه.

والآن يا سيد هولمز سأعطيك نبذة عن الأفراد المقيمين في منزلي؛ لأنني أريدك أن تكون على دراية بالوضع جيدًا. ينام سائسي وخادمي خارج المنزل، ويمكن استثناؤهما من الشكوك تمامًا. لدي ثلاث خادمات يعملن عندي منذ عدة سنوات وأثق بهن ثقة مطلقة. وهناك خادمة أخرى تدعى لوسي بار تعمل عندي ولم يمر على وجودها سوى بضعة أشهر، ولكن طباعها ممتازة وأنا راض تمامًا عن عملها. إنها فتاة جميلة للغاية، وقد جذبت الكثير من المعجبين الذين يحومون حول المنزل بين الحين والآخر. هذا هو العيب الوحيد الذي وجدناه فيها، ولكننا نعتقد أنها فتاة جيدة بكل المقاييس.

هذا فيما يخص الخدم. أما عائلتي نفسها فهي عائلة صغيرة للغاية، حتى إنني لن أستغرق الكثير من الوقت لوصفها. أنا أرمل ولدي ابن وحيد، آرثر. إنه يمثل خيبة أمل بالنسبة لي، يا سيد هولمز... خيبة أمل كبيرة. وليس لدي أدنى شك في أنني المسؤول عن ذلك. يقول لي الناس إنني أفسدته، وهو ما قد فعلته على الأرجح. فعندما توفيت زوجتي العزيزة، شعرت أنني يجب أن أوجه كل حبي إليه. فلم أستطع تحمل رؤية الابتسامة تتلاشى ولو للحظة من وجهه. لم أرفض له طلبًا قط، ربما كان من الأفضل لكلينا لو كنت أكثر حزمًا، ولكن مقصدي كان الخير.

كنت عازمًا بطبيعة الحال أن يخلفني في عملي، ولكنه لم يكن يميل إلى العمل. فقد كان جامحًا وعنيدًا، ولكي أكون صريحًا، لم أستطع الوثوق به في التعامل مع مبالغ كبيرة من المال. عندما كان صغيرًا، صار عضوًا في نادٍ أرستقراطي، ولتمتعه بأسلوب ساحر، سرعان ما أصبح صديقًا مقربًا لعدد من الرجال الأثرياء المسرفين. تعلم لعب القمار وأدمنه، ويهدر الكثير من المال على سباقات الخيل، حتى إنه كان يأتيني المرة تلو الأخرى متوسلًا أن أعطيه سلفة من مخصصاته المالية حتى يسدد ديونه التي تعهد بشرفه أن يسددها. حاول أكثر من مرة الابتعاد عن أصدقاء السوء الذين يرافقهم، ولكن في كل مرة كان تأثير صديقه السير جورج بيرنويل كافيًا لأن يعود إلى رفقتهم مرة أخرى. وبالطبع لم يكن غريبًا عليَّ أن يكون لرجلٍ كالسير جورج بيرنويل تأثير كهذا على آرثر؛ فقد كان يُحضره إلى منزلي باستمرار، وكنت أجد أنني بالكاد أستطيع مقاومة أسلوبه الساحر. إنه يكبر آرثر، وهو رجل محنك بكل معنى الكلمة، سافر إلى أماكن عديدة واكتسب خبرات كبيرة، متحدث لبق، يتمتع بجاذبية شخصية هائلة. ومع ذلك، عندما أفكر فيه بحيادية بعيدًا عن حضوره الساحر، أدركُ من حديثه الساحر ومن النظرة التي

لمحتها في عينيه أنه شخص لا يمكن الوثوق به إطلاقًا. هذا هو رأيي الذي توافقني عليه ماري الصغيرة، والتي تتمتع بالقدرة التحليلية الثاقبة لشخصيات البشر التي تميز النساء.

والآن إنها هي الوحيدة المتبقية لأتحدث عنها. إنها ابنة أخي، ولكنني توليت رعايتها عندما مات أبوها قبل خمس سنوات وتركها وحيدة في العالم، ومنذ ذلك الوقت اعتبرتها ابنتي. إنها شعاع ضوء يشرق في منزلي؛ فهي لطيفة ومحبة وجميلة، مديرة ومدبرة منزل رائعة، وفي الوقت نفسه رقيقة حنون وهادئة كما يجب أن تكون المرأة. إنها ساعدي الأيمن، لا أعرف ما الذي كنت سأفعله دونها. لم تعارضني قط سوى في أمر واحد؛ فقد طلب ابني الزواج منها مرتين، فهو يحبها بشدة، ولكنها رفضت طلبه في المرتين. أعتقد أنه إن كان يمكن لأي شخص أن يعيده إلى طريق الصواب، فستكون هي، وأن زواجه منها كان من الممكن أن يغير حياته بأكملها، ولكن للأسف! لقد فات الأوان، فات الأوان إلى الأبد! والآن يا سيد هولمز أنت تعرف من يعيشون تحت سقف منزلي، وسأواصل سرد قصتي البائسة.

عندما كنا نحتسي القهوة في غرفة الجلوس تلك الليلة بعد العشاء، أخبرت آرثر وماري بما حدث وبالكنز الثمين الموجود في منزلنا، ولكن الشيء الوحيد الذي لم أقله هو اسم عميلي. لوسي بار، التي كانت قد أحضرت القهوة، كانت قد غادرت الغرفة بالفعل قبل أن أخبرهما بهذا؛ أنا متأكد من ذلك، ولكنني لست متيقنًا أن الباب كان مغلقًا. ماري وآرثر كانا مهتمين بالأمر، وكانا يرغبان في رؤية التاج الشهير، ولكنني اعتقدت أنه من الأفضل ألا أعبث به.

سألني آرثر: «أين وضعته؟»

– في مكتبي الخاص.

فقال: «حسنًا، أدعو الرب ألا يحدث سطو على المنزل أثناء الليل».

رددت قائلًا: «إنه مغلق بإحكام».

– أوه، يمكن لأي مفتاح قديم أن يفتح قفل هذا المكتب. عندما كنت صغيرًا فتحته بنفسي بمفتاح خزانة غرفة التخزين.

عادة ما كان يتكلم بأسلوب جامح؛ لذا لم أعر انتباهًا لما قاله. ومع ذلك، فقد تبعني إلى غرفتي في تلك الليلة ووجهه شديد العبوس.

قال وهو ينظر إلى الأرض: «انظر، يا أبي، هل يمكنك أن تعطيني مئتي جنيه إسترليني؟»

أجبته بحدة: «لا، لا يمكنني! لقد كنت شديد الكرم معك حتى الآن فيما يتعلق بالأمور المالية».

فقال: «لقد كنت شديد اللطف، ولكني لا بد أن أحصل على هذا المبلغ، وإلا فلن أتمكن من الظهور أبدًا في النادي مرة أخرى».

صحت قائلًا: «وهذا شيء جيد للغاية».

– أجل، ولكنك لن تجعلني أتركه وأنا مهان. لا يمكنني تحمل العار. لا بد أن أحصل على المبلغ بأي وسيلة، وإن لم تسمح لي بالحصول عليه، فلا بد أن أجرب طُرقًا أخرى.

كنت أستشيط غضبًا؛ إذ إنها كانت المرة الثالثة خلال الشهر التي يطلب فيها مالًا. فصحت قائلًا: «لن تحصل مني على بنس واحد». فانحنى وغادر الغرفة دون أن يقول كلمة أخرى.

عندما غادر، فتحت مكتبي وتأكدت أن كنزي في مأمنه، ثم أعدته وأغلقت مكتبي مرة أخرى. بعد ذلك بدأت أتجول في المنزل لأتأكد من أن كل شيء كان آمنًا، وهي مهمة عادة ما أتركها لماري، ولكنني فكرت أنه من الجيد أن أؤديها بنفسي في تلك الليلة. وبينما كنت نازلًا على السلم، رأيت ماري تقف عند النافذة الجانبية للردهة، ولكنها أغلقتها وأوصدتها عندما اقتربت منها.

قالت وهي تبدو منزعجة بعض الشيء، حسبما تخيلت: «قل لي يا أبي، هل أذنت للوسي الخادمة أن تخرج الليلة؟»

– بالطبع لا.

– لقد دخلت للتو من الباب الخلفي. ليس لدي أدنى شك أنها خرجت فقط إلى البوابة الجانبية لترى شخصًا ما، ولكني أعتقد أنه تصرف خطير ولا بد من منعه.

– لا بد أن تتحدثي إليها في الصباح، أو سأتحدث أنا معها إن كنت تفضلين ذلك. هل أنت متأكدة من أن كل شيء مغلق؟

– متأكدة تمامًا يا أبي.

– تصبحين على خير إذن.

قبلتها وصعدت إلى غرفة نومي مرة أخرى وسرعان ما استغرقت في النوم.

إنني أحاول أن أخبرك بكل شيء قد يكون له أي علاقة بالقضية يا سيد هولمز، ولكني أرجوك أن تستوقفني عند أي نقطة لا أوضحها وتسألني فيها.

رد هولمز قائلًا: «على العكس، كلامك واضح على نحو فريد».

– والآن قد وصلت إلى نقطة أود أن أكون واضحًا فيها على نحو خاص. أنا لا أنام بعمق عادة، كما جعل القلق نومي، بلا شك، أقل عمقًا مما هو عليه. لذا، في حوالي الساعة الثانية صباحًا، استيقظت على صوت في المنزل. ولكنه توقف قبل أن أستيقظ تمامًا، إلا أنه ترك أثرًا كما لو أن إحدى النوافذ قد أغلقت بخفة في مكانٍ ما. رقدت أنصت بدقة. فجأة، لفزعي، كان هناك صوت واضح لصوت خطوات أقدام تتحرك بهدوء في الغرفة المجاورة. نزلت من السرير وقلبي يدق من الخوف، واختلست النظر عند زاوية باب غرفة مكتبي.

صرخت قائلًا: «آرثر! أيها الشرير! أيها اللص! كيف تجرؤ على لمس التاج؟»

كان مصباح الغاز نصف مضاء، كما تركته، وكان ابني التعيس مرتديًا فقط قميصًا وسروالًا، يقف بجانب الضوء وهو يمسك التاج في يديه، ويبدو كأنه يحاول نزع شيء منه، أو أنه كان يثنيه بكل قوته. وعندما سمع صراخي، أسقطه من قبضته واستدار نحوي بوجه شديد الشحوب. التقطته من الأرض وفحصته، ووجدت أن أحد الأركان الذهبية، بزمرداته الثلاث، كان مفقودًا. صرخت وأنا في قمة الغضب:

«أيها الحقير! لقد دمرته! لقد شوهت سمعتي إلى الأبد! أين الجواهر التي سرقتها؟». صاح قائلًا: «سرقتها؟!»

صرخت وأنا أمسك بكتفيه وأهزهما: «أجل، إنك لص!»

فرد قائلًا: «ليس هناك أي أحجار مفقودة. لا يمكن أن يكون هناك أي شيء مفقود».

– توجد ثلاث زمردات مفقودة، وأنت تعلم أين هي. أيجب أن أنعتك بالكاذب بجانب كونك لصًّا؟ ألم أرَك وأنت تحاول انتزاع قطعة أخرى؟

فقال: «لقد أهنتني بما يكفي، لن أتحمل هذا الوضع بعد الآن. لن أقول أي شيء عن هذا الأمر بما أنك اخترت أن تهينني. سأغادر منزلك في الصباح وسأشق طريقي وحدي».

صرخت بجنون ممزوج بالحزن والغضب قائلًا: «ستغادره بصحبة الشرطة! سأطلب التحقيق في هذا الأمر حتى أصل إلى نهايته».

قال بانفعال لم أكن أظن أنه جزء من طبيعته: «لن تعرف أي شيء مني. إن اخترت أن تتصل بالشرطة، فلتفعل، ولتدعهم يكتشفون ما يمكنهم اكتشافه».

بحلول هذا الوقت كان المنزل كله قد استيقظ؛ إذ إنني كنت قد رفعت صوتي أثناء ثورتي. ماري كانت هي أول من سارع إلى غرفتي، وعند رؤية التاج ووجه آرثر، فهمت المسألة كلها وصرخت ثم سقطت على الأرض مغشيًّا عليها. أرسلت الخادمة لتحضر الشرطة ووضعت مسألة التحقيق في أيديهم على الفور. عندما دخل المفتش والشرطي المنزل، سألني آرثر الذي كان يقف عابسًا عاقدًا ذراعيه، إن كنت أنوي توجيه الاتهام بالسرقة إليه. أجبته أنه لم يعد أمرًا خاصًّا، وأنه أصبح عامًّا؛ لأن التاج المدمر ملكية قومية. كنت مصممًا على أن يتخذ القانون مجراه في كل شيء.

قال آرثر: «على الأقل، لن تجعلهم يلقون القبض عليَّ في الحال. سيكون من مصلحتك ومصلحتي أن أغادر المنزل لخمس دقائق».

فأجبته قائلًا: «تغادر المنزل كي تهرب، أو ربما كي تخفي ما سرقته». ولكن عندئذ، وبعد أن أدركت الموقف المخيف الذي وضِعت فيه، توسلت إليه أن يتذكر أنها ليست سمعتي فقط، بل سمعة من هو أعظم مني بكثير، كانت معرضة للخطر، وأنه يهدد بإثارة فضيحة من شأنها أن تهز الأمة بأكملها، وأنه يمكن أن يتجنب ذلك كله بأن يخبرني فقط بما حدث للأحجار الثلاثة.

وقلت له: «يمكنك أن تواجه الأمر كذلك؛ فقد قبض عليك متلبسًا، ولا يمكن لأي اعتراف أن يجعل ذنبك أكثر بشاعة. فقط إن أصلحت الوضع بما هو في إمكانك، وهو أن تخبرنا عن مكان الأحجار، فسأنسى الأمر برمته وأغفره لك».

– احتفظ بمغفرتك لمن يطلبها.

هكذا أجاب وهو يبتعد عني بابتسامة ساخرة. لقد رأيت أنه شديد القسوة بحيث لن يؤثر فيه شيء مما أقول. لم يكن هناك سوى طريقة واحدة للتعامل معه. دعوت المفتش وسلمته إليه. فُتِّش على الفور، وليس هو شخصيًّا فقط، بل غرفته وكل جزء من المنزل من الممكن أن يكون قد خبأ الجواهر فيه، ولكن

لم يجدوا أي أثر لها، ورفض الشاب البائس أن ينبس ببنت شفة على الرغم من كل محاولات إقناعنا وتهديدنا. لقد نُقل هذا الصباح إلى السجن، وبعد أن أتممت كافة الإجراءات الرسمية للشرطة، هرعت إليك لأتوسل إليك أن تستخدم كل مهاراتك في كشف المسألة. لقد اعترفت الشرطة بوضوح أنهم لا يستطيعون معرفة أي شيء في القضية في الوقت الحالي. يمكنك أن تطلب ما تشاء من المال وفق ما تراه ضروريًّا، لقد عرضت بالفعل مكافأة قدرها ألف جنيه إسترليني. يا إلهي، ماذا أفعل؟! لقد فقدت سمعتي والأحجار الكريمة وابني في ليلة واحدة. آه، ماذا أفعل؟

وضع يديه على جانبي رأسه وأخذ يهز نفسَه إلى الأمام والخلف، مهمهمًا كطفل جعله حزنه عاجزًا عن الكلام. جلس هولمز صامتًا لبضع دقائق وحاجباه معقودان وعيناه مثبتتان على النار. ثم سأله قائلًا: «هل تستقبل الكثير من الزوار في منزلك؟»

– لا يزورني أحد سوى شريكي وأسرته وأحد أصدقاء آرثر بين الحين والآخر. زارنا السير جورج بيرنويل عدة مرات في الآونة الأخيرة. لم يزرنا أي أحد آخر حسبما أعتقد.

– هل تخرج وتختلط بالناس كثيرًا؟

– آرثر هو مَن يفعل ذلك. أما أنا وماري فنبقى في المنزل، ولا يهتم أي منا بالخروج.

– هذا أمر غير عادي لشابة صغيرة.

– إنها ذات طبيعة هادئة. كما أنها ليست صغيرة السن جدًّا، إنها تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا.

– يبدو مما قلته أن هذه المسألة كانت صادمة لها أيضًا.

– كانت رهيبة! لقد أثرت فيها حتى أكثر مني.

– لا يشك أي منكما في أن ابنك هو المذنب، أليس كذلك؟

– كيف يمكن أن نشك في ذلك وأنا رأيته بعيني وهو يحمل التاج في يده؟

– بالكاد أعتبر ذلك دليلًا قاطعًا. هل لحق بباقي التاج أي أضرار؟

– أجل، لقد كان منبعجًا.

– ألا تعتقد إذن أنه كان يحاول إصلاحه؟

– ليباركك الرب! إنك تفعل كل ما في وسعك من أجله ومن أجلي، ولكنها مهمة ثقيلة.

– ما الذي كان يفعله هناك من الأساس؟ وإن كانت نواياه بريئة، فلم لم يفصح عنها؟

– بالضبط! وإن كان مذنبًا، لم لم يخترع أي كذبة؟ يبدو لي أن صمته يوحي بالأمرين. هناك العديد من النقاط الغريبة التي تخص هذه القضية. ماذا كان رأي الشرطة في الضوضاء التي أيقظتك من نومك؟

– لقد اعتبروا أنها قد تكون بسبب إغلاق آرثر لباب غرفة نومه.

– يا لها من قصة محتملة! كما لو أن من يرتكب جريمة سيغلق بابه بقوة توقظ منزلًا بأكمله! ما الذي قالوه إذن عن اختفاء هذه الجواهر؟

– ما زالوا يفحصون الألواح الخشبية ويفتشون الأثاث على أمل العثور عليها.

– هل فكروا في البحث خارج المنزل؟

– أجل، لقد عملوا بجهد استثنائي. لقد فُتِّشت الحديقة بأكملها بالفعل تفتيشًا دقيقًا.

قال هولمز: «حسنًا، يا سيدي العزيز، أليس من الواضح لك الآن أن هذه المسألة أعمق بكثير مما كنت أنت أو الشرطة تظنون؟ لقد بدت لك أنها قضية سهلة، ولكنها تبدو لي شديدة التعقيد. فكر في تفاصيل نظريتك. إنك تفترض أن ابنك قام من سريره، وبمخاطرة كبيرة، توجه إلى غرفة ملابسك وفتح مكتبك وأخذ تاجك وكسر بقوة يديه فقط جزءًا صغيرًا منه، وذهب إلى مكانٍ آخر وأخفى فيه ثلاث جواهر من أصل تسع وثلاثين، بمهارة تجعل من المستحيل لأحد أن يعثر عليها، ثم عاد بالست والثلاثين الأخرى إلى الغرفة التي عرض فيها نفسه للخطر الهائل بأن يجري اكتشافه! وأنا أسألك الآن: أترى أن هذه النظرية مقبولة؟»

صاح هولدر بإيماءة يأسٍ قائلًا: «ولكن ما البدائل الأخرى؟ لو كانت دوافعه بريئة، فلم لا يوضحها؟»

فأجاب هولمز: «مهمتنا هي اكتشاف ذلك، والآن، إذا سمحت يا سيد هولدر، سنتوجه إلى ستريتام معًا ونخصص ساعة لإلقاء نظرة أدق على التفاصيل».

أصر صديقي على أن أرافقهما في رحلتهما الاستكشافية، وهو ما كنت أتوق إليه؛ لأن القصة أثارت فضولي وتعاطفي الشديدين. أعترف أن تورط ابن المصرفي في القضية بدا واضحًا لي كما كان بالنسبة إلى والده البائس، وعلى الرغم من ذلك، فقد كنت أثق ثقة شديدة في ذكاء هولمز جعلتني أشعر أنه لا بد أن يكون هناك بعض الأسباب التي تدعو إلى الأمل، بما أن التفسير المتفق عليه لم يرضه. بالكاد تحدث طوال الطريق إلى الضاحية الجنوبية، جلس واضعًا ذقنه على صدره وقبعته تغطي عينيه غارقًا في التفكير. بدا أن بصيص الأمل الصغير الذي منح لعميلنا قد بعث فيه الروح حتى إنه دخل في حوار عابر معي حول شؤون عمله. قادتنا رحلة قصيرة بالقطار ورحلة سير أقصر إلى فيربانك؛ المنزل المتواضع للمصرفي العظيم.

كان فيربانك منزلًا مربع الشكل على مساحة معقولة، مبنيًّا بالحجر الأبيض، ويبعد عن الطريق قليلًا. وأمام بوابتي مدخله الحديديتين الكبيرتين، يمتد طريق مزدوج مخصص للعربات على مرج مغطى بالثلوج. وعلى اليمين أجمة صغيرة تؤدي إلى ممر ضيق بين سياجين أنيقين يمتد من الطريق إلى باب المطبخ، ويشكل مدخل البائعين. وعلى اليسار تجد ممرًّا ممتدًّا يؤدي إلى الإصطبل، ولكنه لم يكن داخل الأرض الخاصة بالمنزل، بل كان جزءًا من الطريق العام ولكنه لم يكن يستخدم كثيرًا. تركنا هولمز واقفين عند الباب ومشى ببطء حول المنزل بأكمله، بطول مقدمة المنزل وممر البائعِين، وكذا حول الحديقة بالخلف إلى الممر المؤدي للإصطبل. استغرق كثيرًا حتى إنني دخلت أنا والسيد هولدر غرفة الطعام وانتظرنا بجانب المدفأة حتى يعود. كنا لا نزال نجلس هناك في صمت عندما فتح الباب ودخلت شابة صغيرة. كانت أطول من المتوسط، ممشوقة القوام، عيناها سوداوان وشعرها أسود، وقد بدا أنه أكثر سوادًا نتيجة الشحوب التام لبشرتها. لا أعتقد أنني رأيت مثل هذا الشحوب القاتل في وجه امرأة من قبل. كانت شفتاها أيضًا شاحبتين، وعيناها غائمتين نتيجة البكاء. عندما دخلت بهدوء إلى الغرفة، أدهشني شعورها بالحزن الشديد الذي يفوق الحزن الذي أبداه السيد هولدر في الصباح، كما كان

الحزن لافتا للنظر فيها أكثر؛ لأنه من الواضح أنها كانت امرأة قوية الشخصية تتمتع بقدرة هائلة على ضبط النفس. لم تعر وجودي انتباهًا وتوجهت مباشرة إلى عمها، ومررت يدها على رأسه وربتت عليه بلطف أنثوي.

سألته قائلة: «لقد أمرت بالإفراج عن آرثر، أليس كذلك يا أبي؟»

– لا، لا، يا عزيزتي، لا بد من التحري في الأمر بدقة.

– ولكنني واثقة أنه بريء، أنت تعلم أن إحساس المرأة لا يخطئ. أعلم أنه لم يرتكب جريمة، وأنك ستندم على تصرفك بمثل هذه القسوة.

– إن كان بريئًا، فلماذا لم يتحدث إذن؟

– من يدري؟ ربما لأنه كان غاضبًا بشدة لشكك فيه.

– كيف يمكنني ألا أشك فيه وقد رأيته بالفعل وهو يحمل التاج في يده؟

– آه، ولكنه أمسك به ليلقي نظرة عليه فحسب. أوه، صدقني أرجوك أنا متأكدة أنه بريء أوقف البحث في القضية وأنهِ الأمر. إنه لأمر مروع تصور عزيزنا آرثر وهو في السجن!

– لن أدع أبدًا الأمر يمر حتى أجد الأحجار الثمينة، لن أدعه يمر أبدًا يا ماري! إن عاطفتك نحو آرثر تعميك عن العواقب الرهيبة للأمر عليَّ. وقد أحضرتُ سيدًا من لندن ليتحرى في الأمر بدقة أكبر.

سألته وهي تستدير نحوي: «هذا السيد؟»

– لا، صديقه. لقد طلب منا أن نتركه وحده، إنه في ممر الإصطبل الآن.

رفعت حاجبيها الأسودين قائلة: «ممر الإصطبل؟ ما الذي يأمل في إيجاده هناك؟ آه! أعتقد أنه هو هذا الشخص. أنا واثقة يا سيدي أنك ستنجح في إثبات أن ابن عمي آرثر بريء من هذه الجريمة، وهو ما أثق فيه تمامًا».

قال هولمز وهو يقف على ممسحة الأرجل لينفض الثلوج عن حذائه: «أشاركك الرأي تمامًا، وأثق في أننا، بمساعدتك، سنثبت ذلك. أعتقد أنني أتشرف بمخاطبة الآنسة ماري هولدر. هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالًا أو اثنين؟»

– تفضل أرجوك يا سيدي، ما دام ذلك قد يساعد في تفسير هذه المسألة الرهيبة.

– هل سمعتِ أي شيء ليلة أمس؟

– لم أسمع أي شيء حتى بدأ عمي في الكلام بصوت عال. هذا ما سمعته وأسرعت إليه لأرى ما الأمر.

– لقد أغلقتِ النوافذ والأبواب في ليلة أمس، فأخبريني هل أوصدت كل النوافذ؟

– أجل.

– وهل كانت كلها موصدة هذا الصباح؟

– أجل.

– لديك خادمة لها حبيب، أليس كذلك؟ أعتقد أنك قد أشرت لعمك ليلة أمس أنها كانت بالخارج لرؤيته، أليس هذا صحيحًا؟

– بلى، وهي الفتاة التي كانت تخدمنا في غرفة الجلوس والتي ربما تكون قد سمعت كلام عمي عن التاج.

– حسنًا، تستنتجين أنها ربما تكون قد خرجت لتخبر حبيبها، وأن كليهما ربما يكونان قد خططا للسرقة.

صاح المصرفي نافد الصبر قائلًا: «ولكن ما فائدة كل هذه النظريات الغامضة في حين أنني قد أخبرتك بأنني رأيت آرثر وهو يحمل التاج في يده؟»

– انتظر قليلًا يا سيد هولدر، لا بد أن نعود لتلك النقطة. فيما يخص هذه الفتاة يا آنسة هولدر، لقد رأيتِها وهي تعود من باب المطبخ كما أظن، أليس كذلك؟

– بلى، عندما ذهبتُ لأتأكد إن كان الباب موصدًا، رأيتها تتسلل عائدة منه، ورأيت الرجل أيضًا في الظلام.

– أتعرفينه؟

– هاه، نعم! إنه البائع الذي يجلب الخضراوات لنا. اسمه فرانسيس بروسبر.

– هل كان يقف إلى يسار الباب؟ بعبارة أخرى، هل كان يقف بعيدًا في الممر لدرجة لا تمكنه من الوصول إلى الباب؟

– نعم.

– وهو رجل ذو ساق خشبية، أليس كذلك؟

ظهر تعبير يشبه الخوف في عيني الشابة السوداوين المعبرتين وقالت: «يا إلهي! إنك مثل الساحر! كيف تسنى لك معرفة ذلك؟» ابتسمت، ولكن في المقابل لم ترتسم أي ابتسامة على وجه هولمز الرفيع المتحفز.

قال هولمز: «أريد الصعود إلى الطابق العلوي الآن. وربما أحتاج إلى تفقد المنزل من الخارج مرة أخرى. أفضل أن ألقي نظرة على النوافذ السفلية قبل أن أصعد».

مشى بسرعة من نافذة إلى الأخرى، ولم يتوقف سوى عند النافذة الكبيرة الموجودة في الردهة، والتي تطل على ممر الإصطبل. فتحها وفحص حافتها فحصًا دقيقًا بعدسته المكبرة الضخمة. وقال أخيرًا: «سأصعد الآن إلى الطابق العلوي».

كانت غرفة الملابس الخاصة بالمصرفي صغيرة ذات أثاث بسيط، بها سجادة رمادية ومكتب كبير ومرآة طويلة. اتجه هولمز إلى المكتب أولًا وفحص القفل بدقة.

– أي مفتاح كان يستخدم لفتحه؟

– المفتاح الذي أشار إليه ابني، مفتاح خزانة غرفة التخزين.

– هل هو لديك هنا؟

– إنه هناك على التسريحة.

أخذه شيرلوك هولمز وفتح المكتب. ثم قال: «إنه قفل لا يحدث صوتًا، لا عجب أنه لم يوقظك. تحتوي هذه الحقيبة، كما أظن، على التاج. لا بد أن نلقي نظرة عليه». فتح هولمز الحقيبة وأخذ التاج ووضعه على الطاولة. كان تحفة فنية رائعة، وكانت الأحجار الستة والثلاثون أروع ما رأيت مطلقًا. الحافة مكسورة على أحد جانبي التاج، ومنها جزء يحمل ثلاثة أحجار كريمة.

قال هولمز: «الآن يا سيد هولدر، هذا هو الجزء المقابل للجزء الذي فُقِدَ للأسف الشديد. هل لي أن أطلب منك أن تكسره؟».

تراجع المصرفي في رعب وقال: «لا يمكنني حتى أن أجرؤ على المحاولة»

– إذن سأفعل أنا ذلك.

فجأة، حاول هولمز بكل قوته أن يكسره، ولكن بلا جدوى. فقال: «أظن أنه يتحرك قليلًا، ولكن على الرغم من أنني أتمتع بأصابع قوية بنحو استثنائي، فسأحتاج إلى وقت طويل جدًّا لأكسره. لا يمكن لرجل عادي أن يكسره. والآن ما الذي تظن أنه سيحدث إذا كسرته يا سيد هولدر؟ ستصدر ضجة تضاهي الضجة التي تصدر من إطلاق طلقة مسدس. فهل تريد أن تقنعني بأن كل ذلك قد حدث على بعد بضع ياردات من سريرك ولم تسمع شيئًا؟».

– لا أدري ماذا أقول. كل شيء غامض بالنسبة لي.

– ولكن ربما قد يتضح لك الأمر كلما تقدمنا في التحقيق. ما رأيك يا آنسة هولدر؟

– أعترف أنني ما زلت في حيرة مثل عمي تمامًا.

– لم يكن ابنك يرتدي حذاء أو صندلًا عندما رأيته، أليس كذلك؟

– لم يكن يرتدي سوى سروال وقميص.

– شكرًا لك. لقد حظينا بتوفيق استثنائي خلال هذا التحقيق بلا شك، وسنكون نحن المذنبين إن لم ننجح في تفسير هذه المسألة. بعد إذنك يا سيد هولدر، سأواصل الآن تحقيقاتي بالخارج.

ذهب وحده بناء على طلبه؛ إذ إنه أوضح أن أي آثار أقدام إضافية قد تجعل مهمته أكثر صعوبة. ظل يعمل لمدة ساعة أو أكثر، ثم عاد أخيرًا وحذاؤه مغطى بالثلوج وملامح وجهه غامضة كالعادة.

وقال: «أعتقد أنني رأيت الآن كل ما يمكن رؤيته يا سيد هولدر. سيمكنني خدمتك بشكل أفضل إذا عدت إلى منزلي».

– ولكن الأحجار الكريمة يا سيد هولمز، أين هي؟

– لا أعرف.

فرك المصرفي يديه وصاح قائلًا: «لن أراها مرة أخرى! وماذا عن ابني؟ لقد أعطيتني أملًا».

– رأيي لم يتغير بأي حال من الأحوال.

– إذن، فبحق الرب، ما حقيقة العمل الشيطاني الذي حدث في منزلي ليلة البارحة؟

– إذا زرتني في منزلي بشارع بيكر صباح الغد ما بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة، فستجدني على استعداد لبذل قصارى جهدي لتفسير المسألة. كما فهمت، إنك تعطيني تفويضًا كاملًا بالتصرف

نيابة عنك بشرط استعادة الجواهر، وأنك لا تضع حدًّا للمبلغ الذي قد أطلبه، أليس كذلك؟

– سأقدم ثروتي كلها لاستعادة الجواهر.

– جيد جدًّا، سأبحث في الأمر خلال هذا الوقت. إلى اللقاء. قد أحتاج إلى المجيء إلى هنا مرة أخرى قبل المساء.

كان من الواضح لي أن رفيقي قد حسم أمر القضية، ولكن الاستنتاجات التي توصل إليها كانت أكثر غموضًا مما يمكنني تخيله. حاولت كثيرًا أثناء رحلة عودتنا إلى المنزل أن أعرف منه أي معلومات عن الأمر، ولكنه كان يراوغ ويتحدث في موضوع آخر حتى يئست من المحاولة في النهاية. لم تكن الساعة قد بلغت الثالثة بعد عندما وصلنا إلى المنزل. سارع هولمز إلى غرفته ثم خرج مرة أخرى بعد بضع دقائق وهو يرتدي ملابس متشرد وضيع. يرتدي معطفًا رثًّا ياقته مرفوعة ورابطة عنق حمراء وحذاء باليًا ذا رقبة عالية؛ وهو ما كان تمثيلًا مثاليًّا لهذه الطبقة.

قال وهو يلقي نظرة سريعة على نفسه في المرآة الموضوعة فوق المدفأة: «أعتقد أن هذا كاف. كنت أتمنى أن ترافقني يا واتسون، ولكنني أخشى أن ذلك لن يكون مناسبًا. قد أكون على الطريق الصحيح في هذه المسألة أو أنني أسعى وراء سراب، ولكنني سأعرف قريبًا هل هو هذا أم ذاك. أتمنى أن أعود خلال بضع ساعات». قطع شريحة من قطعة اللحم الموضوعة على المنضدة الجانبية، ووضعها بين قطعتين من الخبز ودفع بهذه الوجبة البسيطة في جيبه وانطلق في رحلته الاستكشافية.

كنت قد انتهيت للتو من تناول الشاي عندما عاد، ومن الواضح أنه كان في حالة معنوية ممتازة؛ إذ إنه كان يمسك بحذاء قديم ذي جوانب مطاطية ويؤرجحه. رماه في أحد الأركان ثم صب لنفسه كوبًا من الشاي. وقال: «كنت أمر من هنا، ففكرت في القيام بزيارة سريعة. سأذهب على الفور».

– إلى أين؟

– آه، إلى الجانب الآخر من ويست إند. قد يستغرق الأمر بعض الوقت، إذا تأخرت فلا تنتظرني.

– كيف تسير الأمور؟

– لا هي بالجيدة ولا بالسيئة. لكن ليس لدي ما أشكو منه. لقد ذهبت إلى ستريتام منذ أن رأيتك آخر مرة، ولكنني لم أزر منزل هولدر. إنها قضية صغيرة لطيفة للغاية، ولم أكن لأفوتها بأي ثمن. ومع ذلك، يجب ألا أجلس هنا وأثرثر معك، بل لا بد أن أتخلص من تلك الملابس الشائنة وأن أعود لهيئتي المحترمة.

كنت أستطيع أن أرى من خلال أسلوبه أن لديه أسبابًا قوية تجعله يشعر بالرضا أكثر مما توحي به كلماته وحدها. كانت عيناه تلمعان، حتى خداه الشاحبان كانا متوردين قليلًا. سارع إلى الطابق العلوي، وبعد دقائق قليلة سمعت صوت باب الردهة يغلق بقوة، وهو ما أخبرني أنه قد خرج مرة أخرى ليستكمل مطاردته التي تناسب طبيعته تمامًا.

انتظرت حتى منتصف الليل، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى عودته؛ لذا ذهبت إلى غرفتي. لم يكن غريبًا أن يظل خارج المنزل لأيام وليال متتالية عندما يسعى لاكتشاف خبايا مسألة ما؛ لذا لم يكن تأخره مفاجئًا لي. لا أعرف في أي ساعة عاد، ولكن عندما نزلت لتناول الإفطار في الصباح، كان موجودًا

يحمل فنجان قهوة في يد والصحيفة في اليد الأخرى، ويبدو بغاية الانتعاش والأناقة، قال: «اعذرني أنني أفطرت من دونك يا واتسون، ولكنك تتذكر أن عميلنا لديه موعد مبكر هذا الصباح. يا إلهي! لقد تجاوزت التاسعة الآن. لن أتفاجأ إن كان هذا هو. أعتقد أنني سمعت صوت جرس».

كان صديقنا المصرفي بالفعل. صدمت بالتغيير الذي قد حل به؛ فوجهه الذي كان عريضًا وضخمًا بطبيعته، صار الآن منكمشًا منهارًا، بينما بدا لي أن شعره قد ظهر عليه بعض الشيب. دخل بوهن وخمول كانا أشد إيلامًا من العنف الذي أبداه في صباح اليوم السابق، وارتمى ببطء شديد على الكرسي ذي الذراعين الذي دفعته إلى الأمام ليجلس عليه. وقال: «لا أدري ما الذي فعلته لأتعرض لبلاء شديد كهذا. فقط قبل يومين كنت رجلًا سعيدًا ناجحًا لا يثقل كاهلي شيء. أما الآن فقد صرت أواجه عهدًا موحشًا وسيئًا. تصيبني الأحزان الواحد تلو الآخر. لقد تركتني ابنة أخي، ماري».

– تركتك؟

– أجل، كان سريرها وغرفتها فارغين هذا الصباح ووجدت رسالة على طاولة الردهة. كنت قد قلت لها الليلة الماضية بحزن وليس بغضب، إنها لو كانت قد وافقت على الزواج من ابني، فلربما كان حاله قد انصلح. ربما كان من الرعونة أن أقول هذا. وهي تشير إلى تلك النقطة في رسالتها:

عمي العزيز..

أشعر أنني قد تسببت لك في مشكلة، وأنني لو تصرفت على نحو مختلف، فربما لم تكن لتقع هذه المأساة الرهيبة على الإطلاق؛ ومن ثم لا يمكنني أن أشعر بالسعادة مرة أخرى في منزلك، وأعتقد أنني لا بد أن أتركك إلى الأبد. لا تقلق بشأن مستقبلي؛ فأنا أعرف ماذا أفعل، وقبل كل شيء، لا تبحث عني لأن ذلك سيكون جهدًا بلا طائل وسيؤذيني. في الحياة أو الموت، سأظل دائمًا ابنتك المحبة.

ماري

ما الذي يمكن أن تعنيه بهذه الرسالة يا سيد هولمز؟ هل تعتقد أنها تشير إلى أنها تنوي الانتحار؟»

– لا، لا، لا يوجد شيء من هذا القبيل. ربما يكون هذا هو أفضل حل ممكن. أنا واثق يا سيد هولدر أنك تقترب من نهاية مشكلاتك.

– ها! هل تظن ذلك؟ لقد سمعتَ شيئًا، يا سيد هولمز؛ لقد عرفتَ شيئًا! أين أحجار الزمرد؟

– لا أظن أن ألف جنيه إسترليني لكل حجر كريم مبلغ كبير في رأيك، أليس كذلك؟

– أنا مستعد لدفع عشرة آلاف.

– لن يكون ذلك ضروريًّا، ثلاثة آلاف إسترليني تكفي. وأعتقد أنه سيكون هناك مكافأة صغيرة، هل دفتر شيكاتك معك؟ إليك قلمًا. من الأفضل أن نزيد المبلغ إلى أربعة آلاف إسترليني.

كتب المصرفي الشيك المطلوب بوجهٍ مذهول. ثم توجه هولمز إلى مكتبه وأخرج مثلثًا صغيرًا من الذهب وفيه ثلاثة أحجار كريمة وألقاها على الطاولة. فالتقطها عميلنا بصرخة فرح وشهق قائلًا: «إنها لديك! أنا بأمان! أنا بأمان!»

كانت فرحته بنفس شدة الحزن الذي كان عليه، وضم جواهره المستردة إلى صدره.

ثم قال هولمز بشيء من الصرامة: «إنك مدين بشيء آخر يا سيد هولدر».

– مدين؟!

التقط القلم وأردف قائلًا: «حدد المبلغ وسأدفعه».

– لا، إنك لست مدينًا لي. أنت مدين باعتذار متواضع لذلك الشاب النبيل، ابنك، الذي تصرف في هذه المسألة على نحو لو تصرف ابني بمثله، هذا إن قُدّر أن يكون لي ابن في يوم ما، لكان مدعاة لفخري.

– إذن لم يكن آرثر هو الفاعل؟

– أخبرتك بالأمس، وأكررها اليوم، لم يكن هو.

– هل أنت متأكد من ذلك؟! إذن دعنا نذهب إليه على الفور لنخبره أننا اكتشفنا الحقيقة.

– إنه يعلمها بالفعل. بعدما اكتشفت المسألة بالكامل، قابلته وعندما وجدت أنه يرفض أن يخبرني بالقصة، أخبرته أنا بها، وحينها اعترف أنني على حق وأضاف بعض التفاصيل القليلة التي لم تكن واضحة بالكامل لي بعد. ومع ذلك، قد يجعله الخبر الذي قلته لنا يتكلم.

– بحق الرب أخبرني إذن، ما حقيقة هذا اللغز الغريب؟!

– سأفعل، وسأخبرك بالخطوات التي أوصلتني إلى الحل. ولكن دعني أقول لك أولًا ما يصعب عليَّ قوله ويصعب عليك سماعه: لقد كانت هناك علاقة بين السير جورج بيرنويل وابنة أخيك ماري؛ فلقد هربا معًا الآن.

– ماري؟ غير ممكن!

– للأسف إنه ليس فقط ممكنًا، بل مؤكد. لا أنت ولا ابنك كنتما تعرفان المعدن الحقيقي لهذا الرجل عندما سمحتما له أن يكون جزءًا من دائرة عائلتكما. إنه واحد من أخطر الرجال في إنجلترا، مقامر فاسد وشرير ميؤوس منه تمامًا، رجل بلا قلب أو ضمير. إن ابنة أخيك لا تعرف شيئًا عن هؤلاء الرجال. وعندما عبر لها عن حبه، كما فعل مع المئات من قبلها، شعرت بالغرور أنها هي وحدها من لمست قلبه. الله وحده يعلم ما قاله لها، ولكنها في النهاية أصبحت أداة في يده وكانت معتادة على رؤيته كل مساء تقريبًا.

صاح المصرفي بوجهٍ شاحب قائلًا: «لا أستطيع أن أصدق، ولن أصدق!»

– سأخبرك إذن بما حدث في منزلك الليلة الماضية. تسللت ابنة أخيك إلى أسفل عندما ذهبت أنت إلى غرفتك، وتحدثت مع حبيبها عبر النافذة المؤدية إلى ممر الإصطبل. لقد انطبعت آثار قدميه على الجليد؛ فقد وقف هناك لفترة طويلة. وأخبرَته عن التاج، فأشعل هذا الخبر جشعه للحصول على المال، وجعلها طوع أمره. لا أشك في أنها كانت تحبك، ولكن هناك بعض النساء في العالم يطفئ فيهن حب العشيق أي حب آخر، وأعتقد أنها واحدة منهن. بالكاد أنصتت لتعليماته عندما رأتك تهبط على السلالم، فأغلقت النافذة بسرعة وأخبرتك عن خروج إحدى الخادمات للحديث مع عشيقها الذي له ساق خشبية، وهو ما كان صحيحًا تمامًا. ذهب ابنك آرثر إلى الفراش بعدما تحدث معك، ولكن كان نومه سيئًا بسبب قلقه من ديونه في النادي. سمع في منتصف الليل صوت خطوات خفيفة تعبر أمام باب غرفته، فنهض ونظر

إلى الخارج وفوجئ برؤية ابنة عمه تتسلل بخفة بطول الممر حتى اختفت في غرفة ملابسك. صعقته الدهشة، وارتدى بعض الملابس وانتظر هناك في الظلام ليرى ما سيحدث في هذا الأمر الغريب. خرجت من الغرفة مرة أخرى على الفور، وعلى ضوء مصباح الممر، رآها ابنك وهي تحمل التاج الثمين في يديها. هبطت الدرج، وركض آرثر خلفها والرعب يملؤه واختبأ خلف الستارة بالقرب من باب غرفتك، بحيث يتمكن من رؤية ما يحدث في الردهة بالأسفل. رآها وهي تفتح النافذة خلسة وتعطي التاج لشخص ما في الظلام، ثم تغلق النافذة مرة أخرى وتسارع بالعودة إلى غرفتها وهي تمر بالقرب من المكان الذي كان يقف فيه خلف الستارة. لم يكن باستطاعته أن يقوم بأي تصرف ما دامت موجودة في المكان دون أن يخاطر بتعريض المرأة التي كان يحبها لفضيحة مروعة. ولكن بمجرد رحيلها، أدرك كم أن مصيبة كهذه ستحطمك وكم كان من المهم تصحيح الوضع. هرع إلى الأسفل وهو حافي القدمين تمامًا كما رأيته، وفتح النافذة وقفز إلى الخارج على الجليد وركض بطول الممر حيث كان بإمكانه رؤية خيال أسود في ضوء القمر. حاول السير جورج بيرنويل الفرار، ولكن آرثر أمسك به ودار صراع بينهما، وكان ابنك يشد التاج من ناحية، ويشده غريمه من الناحية الأخرى. وأثناء المشاجرة، ضرب ابنك السير جورج وجرحه فوق عينه. ثم انكسر شيء فجأة، وعندما وجد ابنك أن التاج بحوزته، عاد إلى المنزل مرة أخرى وأغلق النافذة وصعد إلى غرفتك، ولاحظ وقتها أن التاج قد انبعج أثناء الصراع وكان يحاول تقويمه عندما ظهرت أنت في المكان.

قال المصرفي: «هل هذا ممكن؟»

– ثم أثرت غضبه عندما كنت تهينه في الوقت الذي كان يشعر فيه أنه يستحق منك الشكر الشديد. لم يستطع شرح ما حدث فعلًا دون أن يخون الإنسانة التي بلا شك لا تستحق ولا حتى القليل من اهتمامه. ومع ذلك، فقد اختار التصرف الأكثر شهامة وحفظ سرها.

صاح السيد هولدر قائلًا: «ولهذا السبب صرخَت وفقدت الوعي عندما رأت التاج. آه، يا إلهي! كم كنت أحمق أعمى! لهذا طلب أن أسمح له بالخروج لخمس دقائق! كان الشاب العزيز يريد أن يرى إن كانت القطعة المفقودة موجودة في مسرح الصراع أم لا. كم كنت قاسيًا وأسأت الحكم عليه!»

قال هولمز: «عندما وصلت إلى المنزل، تجولت حوله بحرص شديد لأرى ما أن كانت هناك آثار في الجليد قد تساعدني. كنت أعلم أنه لم تتساقط أي ثلوج أخرى منذ الليلة الماضية، وأن الصقيع سيحافظ على الآثار. مررت على ممر البائعين، ولكنني وجدت أن كل آثار الأقدام متداخلة ولا يمكن تمييزها. ومع ذلك، فبعد هذا الجزء مباشرة، وعند الجانب الأبعد لباب المطبخ، كانت هناك آثار لأقدام امرأة قد وقفت تتحدث مع رجل، أظهرت آثار أقدامه المستديرة على أحد الجوانب أنه كان ذا ساق خشبية. كما تمكنت من معرفة أنهما قد تمت مقاطعتهما؛ إذ إن المرأة قد عادت إلى الباب مرة أخرى بسرعة كما أظهرت آثار أصابع القدم العميقة وآثار كعب القدم الخفيفة، بينما انتظر صاحب الساق الخشبية قليلًا ثم رحل. ظننت في ذلك الوقت أن هذه قد تكون آثار أقدام الخادمة وحبيبها اللذين كنت قد أخبرتني عنهما بالفعل، وأظهر التحقيق أن الأمر كان كذلك فعلًا. سرت حول الحديقة دون أن أرى أي شيء سوى الآثار العشوائية التي استنتجت أنها تخص الشرطة، ولكن عندما وصلت إلى ممر الإصطبل وجدت أمامي

قصة طويلة ومعقدة مكتوبة في الجليد. كان هناك خط مزدوج من آثار الأقدام لرجل كان يرتدي حذاء ذا رقبة عالية، ولحسن حظي، رأيت خطًّا آخر لرجل حافي القدمين فاقتنعت على الفور بما أخبرتني به أنها هي آثار أقدام ابنك. كان الأول يمشي في كلا الاتجاهين، بينما كان الآخر يركض بسرعة، وبما أن آثار أقدامه كانت مطبوعة في بعض الأماكن فوق آثار الأقدام المحفورة التي تخص الحذاء ذا الرقبة، فقد كان من الواضح أنه كان يتبعه. تتبعت الآثار ووجدت أنها تقود إلى نافذة الردهة حيث تآكل الجليد كله بفعل صاحب الحذاء ذي الرقبة أثناء انتظاره. بعد ذلك، مشيت إلى الطرف الآخر الذي يبعد مئة ياردة أو أكثر في الممر. ووجدت آثارًا تدل على أن الرجل الذي كان يرتدي حذاء ذا رقبة عالية قد استدار، وأن الجليد قد تشقق كما لو كانت قد وقعت معركة، وأخيرًا، وجدت بضع قطرات من الدم أثبتت لي أنني لم أكن مخطئًا. وقتها، ركض الرجل الذي يرتدي الحذاء ذا الرقبة في الممر، ثم أظهرت بقعة دم صغيرة أخرى أنه هو من أصيب. وعندما وصل إلى الطريق السريع على الطرف الآخر، وجدت أن الآثار الموجودة على الرصيف قد انتهت، ومن ثم كانت هذه هي نهاية ذلك الدليل. ومع ذلك، فحصت بعد دخولي المنزل، كما تتذكر، حافة وإطار نافذة الردهة بعدستي المكبرة، وتمكنت على الفور من إدراك أن شخصًا ما قد خرج منها. تمكنت من تمييز شكل مشط قدم حيثما وطأت قدم مبتلة وهي تدخل المنزل. عندها بدأت أتمكن من تكوين رأي حول ما حدث. كان هناك رجل ينتظر خارج النافذة، وأحضر أحدهم الأحجار الكريمة، وقد راقب ابنك هذه الوقائع ولاحق اللص وصارعه وشد كل منهما التاج، وهو ما ألحق به أضرارًا تسببت فيها قوتهما المشتركة، والتي لم يكن من الممكن أن يتسبب فيها أي منهما بمفرده. عاد ابنك وبحوزته الجائزة، ولكن جزءًا منها كان في قبضة خصمه. لقد كان كل شيء واضحًا في ذلك الوقت، ولكن بقي سؤال وهو: من كان هذا الرجل؟ ومن الذي أحضر التاج إليه؟ أحد مبادئي الأساسية هو أنه بعدما تستبعد المستحيل، فما يبقى، ومهما كان مستبعدًا، لا بد أن يكون هو الحقيقة. كنت أعرف أنك لم تكن أنت من أخذت التاج إلى أسفل؛ لذا لم يتبق سوى ابنة أخيك والخادمات. ولكن لو كانت الخادمات، لِمَ قد يقرر ابنك أن يورط نفسه بدلًا منهن؟ لا يمكن أن يكون هناك سبب لهذا. ولكن بما أنه كان يحب ابنة عمه، فقد كان هناك تفسير ممتاز لسبب حفظه لسرها خاصة وأن السر كان شائنًا. وعندما تذكرت أنك رأيتها تقف عند تلك النافذة، وكيف فقدت الوعي عندما رأت التاج مرة أخرى، أصبح تخميني يقينًا. ولكن من يمكن أن يكون شريكها؟ من الواضح أنه حبيب لها؛ فمن الذي يمكن أن يفوق حبه الحب والعرفان اللذين تكنهما لك؟ علمت أنك لا تخرج إلا قليلًا، وأن دائرة أصدقائك محدودة للغاية، ولكن السير جورج بيرنويل كان ضمن هذه الدائرة. وكنت قد سمعت عنه من قبل أنه رجل له سمعة سيئة مع النساء. لا بد أنه هو من كان يرتدي ذلك الحذاء ذا الرقبة العالية ويحتفظ بالجواهر المفقودة. وعلى الرغم من علمه أن آرثر قد كشفه، فربما كان لا يزال يطمئن نفسه أنه بأمان حيث إن آرثر لن يستطيع أن يقول كلمة واحدة دون تعريض سمعة أسرته للخطر. حسنًا، سينبئك إدراكك الجيد بالخطوات التي اتخذتها بعد ذلك. ذهبت إلى منزل السير جورج على هيئة رجل متسكع، وتمكنت من التعرف على خادمه، وعلمت منه أن سيده قد جرح رأسه في الليلة السابقة، وأخيرًا حرصت على شراء أحد أحذية بيرنويل القديمة البالية بعد أن دفعت لخادمه ستة شلنات. أخذت الحذاء وذهبت إلى ستريتام ووجدت أن آثاره تطابق تمامًا آثار الأقدام الموجودة».

قال السيد هولدر: «لقد رأيت متشردًا يرتدي ملابس رثة في الممر ليلة البارحة».

– بالضبط، كنت أنا. وجدت أنني قد وضعت يدي على الرجل المطلوب، فعدت إلى المنزل وبدلت ملابسي. عندئذ كان علي أن ألعب دورًا حساسًا؛ إذ إنني رأيت أنه لا بد من تجنب الملاحقة القضائية لتحاشي الفضيحة، وكنت أعلم أن وغدًا شريرًا كهذا سيعلم أننا مكتوفو الأيدي في هذه المسألة. ذهبت وقابلته. نفى كل شيء في البداية بالطبع. ولكن عندما واجهته بكل تفصيلة دقيقة لما حدث، حاول تهديدي وأخذ هراوة كانت معلقة على الحائط ليضربني بها. لكنني كنت أعرف ما سيفعله جيدًا، فوجهت المسدس نحو رأسه قبل أن يتمكن من مهاجمتي، حينها صار أكثر عقلانية. أخبرته أننا سنعطيه ثمن أحجار الزمرد التي بحوزته؛ ألف جنيه إسترليني لكل قطعة. وهنا أبدى أولى علامات الحزن وقال: «آه! اللعنة! لقد بعت الثلاثة مقابل ستمئة جنيه إسترليني!». سرعان ما تمكنت من الحصول على عنوان المشتري بعد أن وعدته أنه لن تكون هناك ملاحقة قضائية. على الفور، توجهت إلى المشتري، وبعد الكثير من المساومة، حصلت على الأحجار لقاء ألف جنيه إسترليني لكل قطعة. وبعد ذلك، زرت ابنك وأخبرته أن كل شيء على ما يرام، ثم أويت إلى فراشي أخيرًا في حوالي الساعة الثانية، بعد ما يمكنني أن أسميه يوم عمل شاق للغاية.

قال المصرفي وهو ينهض: «بل سمِّهِ يوم أنقذت إنجلترا من فضيحة عامة ضخمة. أنا عاجز عن شكرك يا سيدي، ولكنني لن أدخر وسعًا في إبداء امتناني لما فعلته. لقد فاقت مهارتك كل ما سمعته بالفعل، والآن لا بد أن أذهب سريعًا إلى ابني العزيز لأعتذر له عن الخطأ الذي ارتكبته في حقه. أما فيما يخص ما أخبرتني به عن ماري المسكينة، فهو يؤلمني كثيرًا. فحتى مهارتك لا يمكنها أن تخبرني بمكانها الحالي».

أجاب هولمز قائلًا: «أعتقد أننا يمكننا أن نقول بكل ثقة إنها ستكون حيث يكون السير جورج بيرنويل. كما أنه من المؤكد كذلك أنها سرعان ما ستتلقى ما يكفي من العقاب على خطاياها أيًّا كانت».

فضيحة في بوهيميا

الفصل الأول

آه يا شيرلوك هولمز.. كان دائمًا ما يسميها المرأة، نادرًا ما سمعته يلقبها بأي اسم آخر، فبنظرة واحدة تفوقت على جميع النساء. هذا لا يعني أنه شعر تجاه آيرين آدلر بأي شعور يقترب من معنى الحب، فكل المشاعر وخصوصًا الحب كانت بعيدة كل البعد عن عقله الذي اتسم بالقسوة والدقة، لكنه في الوقت ذاته عقل متوازن على نحو يثير الإعجاب. وحسبما رأيت، فإنه كان أعظم آلة تحليل واستنتاج عرفها العالم، لكن لم يكن له مكان بين العشاق، فلم أره يتحدث قط عن المشاعر الرقيقة إلا بالتهكم والازدراء.

لكن المشاعر أحيانًا تكون مفيدة للباحث المراقب؛ إذ إنها تساعده في كشف الستار عن دوافع الناس وأفعالهم. لكن بالنسبة إلى عقلٍ مُدَرّب فإنه يدرك أثر تلك التدخلات على مزاجه الحساس الدقيق، حيث إنها ستلقي بظلال الشك على كافة نتائجه المنطقية. وهولمز لو عثر على حبة رمل في إحدى آلاته الحساسة، أو لمح خدشًا بإحدى عدساته القوية، فما كان ذلك ليزعجه كما لو راودته عاطفة قوية.

ومع ذلك، لم يعجب هولمز لواحدة في حياته كلها إلا بهذه المرأة، آيرين آدلر، صاحبة الذكرى الغامضة.

أبعدَ زواجي كلانا عن الآخر في الآونة الأخيرة، فلم أر هولمز إلا مرات قليلة. فإن السعادة والاستقرار اللذين يغمران الرجل عندما يجد نفسه ولأول مرة سيدًا لمنزله الخاص، والاهتمامات الجديدة كانت أسبابًا كافية لقلة انتباهي، في حين بقي هولمز في مسكننا القديم بشارع بيكر، غارقًا بين كتبه القديمة، متأرجحًا بين الكوكايين وطموحه، وبين الخمول الناتج عن المخدر تارة وطبيعته الحادة المتفجرة بالطاقة تارة أخرى.

ظل هولمز كعادته مهتمًا بدراسة الجريمة، مشغولًا بقدراته الهائلة وقوة ملاحظته غير العادية في تتبع الأدلة وكشف الجرائم الغامضة، التي تخلت عنها الشرطة باعتبارها ميؤوسًا منها. وسمعت من حين لآخر روايات غامضة عن أفعاله، سمعت عن استدعائه لأوديسا في قضية مقتل تريبوف، وكشفه عن غموض قضية مقتل الإخوة إتكينسون في ترينكومالي، وأخيرًا عن نجاحه في المهمة التي أوكلت له من العائلة الملكية في هولندا، وباستثناء تلك الأنشطة التي قرأت عنها في الصحف اليومية كبقية القراء، لم أعرف عن صديقي ورفيقي القديم شيئًا يُذكر.

في ليلة العشرين من مارس لعام 1881 كنت عائدًا من زيارة أحد المرضى (حيث عدت إلى ممارسة عملي طبيبًا مدنيًّا) عندما قادني طريقي لعبور شارع بيكر، حين مررت بذلك الباب المألوف والذي يذكرني دومًا بفترة العزوبية وبالحوادث الغامضة التي أحاطت بقضية الخيط القرمزي، فدفعتني رغبة ملحة إلى رؤية شيرلوك هولمز ومعرفة كيف يوظف قدراته الفائقة. وعندما نظرت لأعلى، كان مسكنه مضاء، فرأيت الخيال الأسود لهيئته الطويلة النحيلة يجول ذهابًا وإيابًا في غرفته بسرعة وحماس، ويداه معقودتان خلف ظهره، ورأسه محنيّ إلى الأسفل، ولمعرفتي الوثيقة بطباعه وتصرفاته،

علمتُ أن حالته هذه لها معنى خاص، قدرت أنه عاد إلى العمل، استيقظ من نعاسه من أثر المخدر ممسكًا بخيط في قضية جديدة. قرعت الجرس وسرت إلى الغرفة التي كانت ذات يوم غرفتي.

لم يستقبلني هولمز بمشاعر فياضة، فهو نادرًا ما يبوح بمشاعره، لكنه سعِد لرؤيتي فيما أظن. ودون أن ينبس بكلمة أومأ إليّ برفق حتى أجلس، وأشار لعلبة السيجار، ثم وقف أمام المدفأة وأخذ يتفحصني بطريقته الفريدة.

واستطرد: «الزواج يناسبك يا واتسون، أعتقد بأن وزنك زاد سبعة أرطال ونصفًا منذ رأيتك آخر مرة».

فأجبته: «سبعة فقط».

فقال: «حقًّا؟ أظن أنه أكثر من ذلك بقليل يا واتسون، كما ألاحظ أنك عدت إلى العمل مرة أخرى. لم تخبرني بنيتك في العودة للعمل».

قلت: «كيف عرفت ذلك؟»

فأجابني: «رأيت ذلك، واستنتجته بذات الطريقة التي عرفت بها أنك تعرضت للبلل مؤخرًا، وأن لديك خادمة بلهاء ومهملة».

فقلت له: «عزيزي هولمز، هذا أكثر من اللازم، لو كنت تعيش في عصور قديمة لأحرقوك بالتأكيد. أنت محق، لقد كنت أتمشى في الريف في الخميس الماضي، وعدت إلى المنزل في هيئة مزرية. ولا أعرف كيف عرفت ذلك رغم أني بدلت ملابسي، أما ماري جين فأمرها ميؤوس منه، وقد أنذرَتها زوجتي بترك العمل، وإن كنت لا أفهم أيضًا كيف استنتجت هذا الأمر!»

ضحك هولمز بصوت خافت وفرك يديه الطويلتين ثم قال: «الأمر في غاية البساطة، لقد رأيت على الجلد الداخلي لفردة حذائك الأيسر ستة خدوش متوازية تقريبًا، ومن الواضح أن مَن تسبب بها شخص مهمل كان يمسح حافات الحذاء من الوحل الجاف العالق به، هكذا تعرف كيف استنتجت خروجك في طقس سيئ وأن لديك واحدة من أسوأ الخدم في لندن. أما بشأن العيادة فعندما يدخل مسكني شخص محترم تفوح منه رائحة المطهر، وعلى سبابته اليمنى علامة سوداء من أثر نترات الفضة، كما يظهر الانبعاج في قبعته لإخفائه سماعة طبية بها، فلا بد أن أكون غبيًّا لئلا أدرك أنه طبيب ممارس».

لم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك على سهولة شرحه لاستنتاجاته، وقلت: «عندما أسمعك تشرح أسبابك الوجيهة، يبدو لي الأمر في غاية السهولة، حتى إنني كنت لألاحظ ذلك بنفسي، بالرغم من وقوفي حائرًا في كل مرحلة من المراحل المنطقية والمتوافقة مع تحليلك، حتى تقوم بشرحها بطريقتك، رغم أني أعتقد أن عيني بنفس قوة عينيك».

أجابني وهو يُلقِي بنفسه على كرسيه ويشعل سيجارًا، قائلًا: «بالفعل؛ أنت ترى ولكنك لا تنتبه لما تراه، والفرق واضح. على سبيل المثال، هل رأيت الدرجات التي تقود من القاعة إلى هذه الغرفة؟»

– مرارًا.

– كم مرة؟

– بضع مئات من المرات.

– حسنًا، كم عددها؟

– لا أعلم.

– هذا هو الأمر، أنت رأيت، لكنك لم تنتبه؛ هذا ما قصدته. أنا أعلم أنها سبع عشرة درجة، لأنني رأيت وانتبهت في آن واحد. بالمناسبة، بما أنك مهتم بتلك القضايا البسيطة، ولأنك كنت طيبًا بما فيه الكفاية لتسجيل واحدة أو اثنتين من خبراتي المتواضعة، فربما تهتم بهذه القضية.

ثم أمسك بورقة سميكة وردية اللون، كانت مفتوحة ومتروكة على الطاولة، وقال: «لقد وصلتني هذه مع آخر بريد، اقرأها بصوت عال».

لم يكن الخطاب مؤرخًا، ولا ممهورًا بتوقيع أو حتى عنوان.

«ستأتيك زيارة الليلة في تمام الثامنة إلا ربعًا، حيث إن رجلًا محترمًا يرغب في استشارتك بخصوص أمر في غاية السرية، إذ إن خدماتك لإحدى العائلات الملكية في أوروبا قد أوضحت كونك شخصًا جديرًا بالثقة فيما يتعلق بالأمور الخطيرة التي لا يمكن الإفصاح عنها، ابقَ بمسكنك في هذه الساعة، ولا تنزعج لو جاءك زائرك مقنعًا».

استطردت: «الأمر شديد الغموض، ما رأيك في هذا؟»

فأجاب هولمز: «لا أملك المعلومات الآن، ومن الخطأ أن نضع النظريات قبل الحصول على معلومات، فحينها ستبني الوقائع لا شعوريًّا طبقًا لنظرياتك، بدلًا من أن تبني نظريتك حسب الوقائع، لكن ماذا عن الرسالة نفسها؟ ما الذي لاحظتَه بها؟»

تفحصت الخط بعناية كما تفحصت الورقة التي كتب عليها الرسالة، وعلقت قائلًا في محاولة مني لتقليد أسلوب صديقي: «حالة كاتب الرسالة المادية تبدو ميسورة، فمثل هذا الورق لا يمكن شراء الرزمة منه بأقل من نصف كراون، فالورق سميك ومتين بشكل غريب»؛ فأجابني هولمز: «غريب.. هذا هو مربط الفرس، هذا الورق ليس إنجليزيًّا، قرِّبه من الضوء».

فعلت ذلك، فلاحظت حرفَي (ج) و(ي) في جهة من الورقة، وحرفَي (أ) و(ج) على الجهة المقابلة، وكانت تلك الحروف محفورة في نسيج الورقة. سألني هولمز: «ماذا تفهم من ذلك؟»، فأجبته: «إنه اسم صانع الورق دون شك، أو بالأحرى الحروف المميزة له»، فقال هولمز: «ليس تمامًا.. حرفا الجيم والياء يرمزان لكلمة (جيزيلزشافت)، أي شركة باللغة الألمانية، أما بالنسبة للألف والجيم فدعنا نبحث في أطلس الخرائط الخاصة ببلدان أوروبا»، ثم أنزل مجلدًا بنيًّا ضخمًا من أحد الأرفف وغدا يقرأ فيه: «إجلو، إجلونيتز.. ها نحن أولاء (إجريا) إنها إحدى المناطق الناطقة بالألمانية في بوهيميا، ليست بعيدة عن (كارلسباد) الشهيرة بوفاة (وولينشتاين) ومصانع الزجاج والورق، ها.. ما الذي تفهمه من ذلك؟» قالها وقد لمعت عيناه ونفخ دخان سيجاره الذي شكل سحابة زرقاء، فقلت: «إن الورق مصنوع في بوهيميا»، فقال: «بالضبط، وكاتب الرسالة ألماني، ألا تلاحظ غرابة تركيب جُمله؟ لو كان فرنسيًّا أو روسيًّا لما كان أسلوبه بهذا الشكل، وحده الألماني هو من يكتب بهذه الفظاظة، لم يبق لنا إلا أن نكتشف

ما يريده هذا الرجل الألماني الذي كتب الرسالة على ورقة مصنوعة في بوهيميا، ويفضل أن يرتدي قناعًا على أن يُظهر وجهه. ها هو ذا قد أتى -إن لم أكن مخطئًا- ليبدد عنا كافة شكوكنا».

ما إن أنهى هولمز كلامه حتى سمعنا صوت حوافر خيول وعجلات عربة تتوقف، ثم قرعًا شديدًا للجرس، فهمس هولمز: «اثنان حسب الصوت»، ثم نظر من النافذة وقال: «عربة صغيرة لطيفة يجرها حصانان جيدان، ثمن الواحد فيهما مئة وخمسون جنيهًا.. القضية فيها أموال يا واتسون.. حتى إن لم يكن فيها شيء آخر»، قلت: «أعتقد أنه علي الذهاب يا هولمز»، فقال: «على الإطلاق يا دكتور، ابق حيث أنت، فأنا ضائع لا محالة إن لم تسجل سيرتي، ويبدو أن هذه القضية مثيرة للاهتمام، وسيكون الأمر مؤسفًا إن لم تحضرها»، قلت له: «ولكن عميلك»، فقاطعني: «لا تُعِره انتباهًا، فربما أحتاج مساعدتك، وهو كذلك، اجلس على ذلك الكرسي، وانتبه لنا جيدًا يا دكتور».

سمعنا صوت خطوات ثقيلة وبطيئة في الممر وفوق درجات السلم قبل أن تتوقف أمام الباب، ثم سمعنا صوت طرقة عالية وشديدة على الباب، فقال هولمز: «ادخل».

دخل رجل طوله لا يقل عن المائة وخمسة وتسعين سنتيمترًا، وله بنيان ومنكبان مثل هرقل، كانت ملابسه فخمة وتدل على ثراء، لكن بالنسبة للإنجليز فإنها تدل على الذوق السيئ. كان يرتدي معطفًا ثقيلًا وفوق كتفيه عباءة زرقاء داكنة تزينها خطوط من حرير في لون اللهب، وعند عنقه دبوس مطعَّم بحجر من الزمرد الوهّاج، وحذاؤه الذي امتد حتى منتصف ساقه والتفّ حول أعلاه فراء كثيف، يضفي عليه مظهرًا بربريًّا كحال بقية هيئته. كان يحمل في يده قبعة عريضة ويخفي الجزء العلوي من وجهه بقناع أسود يمتد حتى عظام وجنتيه، بدا كأنما وضعه للتو، فقد كانت يده لا تزال مرفوعة إليه، كما ظهر من الجزء المكشوف من وجهه أنه صاحب شخصية قوية، وأظهرت شفتاه الغليظتان وذقنه الطويل أن لديه إصرارًا يصل لحد العناد.

وبصوت حاد منخفض ولكنة ألمانية مميزة سأل هولمز: «هل وصلتك رسالتي؟ أخبرتك فيها بحضوري»، أخذ ينقل بيننا نظراته، إذ إنه لم يكن يعرف من يخاطب؛ فقال هولمز: «تفضل بالجلوس، هذا صديقي وزميلي الدكتور واتسون، الذي يساعدني أحيانًا في حل بعض القضايا.. تُرى مع مَن أنال شرف الحديث؟»، فأجابه الزائر: «بإمكانك مناداتي بالدوق فون كرام، أحد نبلاء بوهيميا، وأتصور أن صديقك محترم وكتوم بما فيه الكفاية حتى آتمنه على سر في غاية الأهمية، وإن لم يكن كذلك فإنني أفضل الحديث إليك على انفراد».

ما إن سمعت هذا الكلام حتى هممت بالمغادرة، إلا أن هولمز أمسك بمعصمي وأعادني إلى المقعد وقال: «كلانا أو لا أحد، ما يمكنك قوله لي يستطيع صديقي سماعه»، فهز الضيف البوهيمي كتفيه العريضتين وقال: «إذًا سأبدأ، لكن يجب أن أُلزِم كليكما بالتكتم على الأمر لمدة عامين على الأقل، فحينئذ لن يكون للأمر أهمية كبرى، أما الآن فإن الأمر قد يؤثر في تاريخ أوروبا بأكملها».

قال هولمز: «أعدك».

فقلت: «وأنا كذلك».

هنا قال الضيف البوهيمي: «اعذراني على ارتداء هذا القناع، فقد وظّفني شخص ذو أهمية وأراد أن يُبقي هوية وكيله سرية، وعليّ أن أقِرّ بأن الاسم الذي أستخدمه ليس اسمي الحقيقي».

فأجابه هولمز بصيغة جافة: «كنت مدركًا لذلك».

فقال الضيف البوهيمي: «الوضع شديد الحساسية، لذا يجب اتخاذ جميع الاحتياطات حتى نمنع فضيحة مدوية تُسيء لسمعة إحدى العائلات الملكية في أوروبا؛ وحتى أكون أوضح من ذلك، فإن الأمر يمس عائلة (أورمشتاين) العريقة، العائلة الملكية في بوهيميا».

استلقى هولمز على كرسيه وأرخى جفنيه وقال: «كنت أعلم هذا أيضًا».

نظر زائرنا بتمعُّن نحو هولمز، الذي برغم تكاسله وفتوره في معاملته، لا يمكن إلا أن يعتبره أبرع محقق في أوروبا. فتح هولمز عينيه ببطء ناظرًا نحو عميله الضخم، وقد بدا عليه نفاد الصبر، وقال: «لو أمكن لسموك أن تعرض قضيتك، فسيمكنني تقديم المشورة على نحو أفضل».

هب الرجل من مقعده وقطع الغرفة ذهابًا إيابًا، ثم نزع قناعه بيأس وألقاه قائلًا: «أنت على حق، أنا الملك، لماذا أحاول إخفاء الأمر؟!»، فقال هولمز: «بالطبع، لماذا؟ لقد أدركت جلالتك قبل أن تتكلم أنني أتحدث إلى (ويلهالم جوتسرايخ سيجسموند فون أورمشتاين)، ملك بوهيميا والدوق الأعظم لكاسل فيلشتاين».

رد زائرنا الغريب فيما يجلس مرة أخرى ويمسح جبهته العريضة الشاحبة: «لكن بإمكانك أن تفهم.. بإمكانك أن تفهم أنني لم أعتد القيام بمثل هذه الأمور بنفسي، لكن الأمر حساس للغاية، لذلك لم أستطع أن أعهد إليه بوكيل دون أن أضع نفسي تحت رحمته، وهكذا أتيت من براج إليك متخفيًا حتى أستشيرك».

قال هولمز وهو يغلق عينيه ثانيةً: «فلتستشرني إذًا!»

فقال الضيف: «الوقائع باختصار أنني منذ خمس سنوات، وخلال زيارة مطولة لوارسو، تعرفت إلى المغامرة الشهيرة آيرين آدلر، هذا الاسم مألوف لديك بلا شك».

غمغم هولمز وعيناه مغمضتان: «رجاءً ابحث عنها في الدليل الخاص بي يا دكتور».

كان هولمز يتبع منذ سنوات نظامًا لإدراج المقالات التي تورِد أسماء الأشخاص والأشياء، بحيث صار من الصعوبة بمكان ذكر اسم أو موضوع دون أن يقدم بعض المعلومات عنه، وبخصوص هذه المرأة عثرت على سيرة ذاتية محشورة داخل سيرة واحد من رجال الدين، وكذلك مقال لضابط بحري عن أسماك أعماق البحار.

قال هولمز: «دعني أرَ.. مم ولدت في نيو جيرسي عام 1858، لا سكالا.. أوبرا بريا دونا في وارسو.. مم.. اعتزلت الغناء الأوبرالي، وتعيش الآن في لندن.. حسنًا، أعتقد أن جلالتك تورطت بإرسال خطابات مثيرة للشبهة إلى هذه الشابة، وتجد نفسك الآن متلهفًا لاستعادتها».

قال ملك بوهيميا: «صحيح، لكن كيف؟»

فقال هولمز: «هل تزوجتما سرًّا؟»

– لا.

– أية أوراق أو شهادات رسمية؟

– لا.

– أعجز عن فهم جلالتك، فلو أنها أبرزت هذه الأوراق بغرض الابتزاز أو لغرض آخر، فكيف ستثبت صحتها؟

– من الخط.

– هراء.. مزور.

– الأوراق من مذكرتي الخاصة.

– مسروقة.

– ختمي الخاص.

– مقلد.

– صورتي.

– تم شراؤها.

– كنا معًا في الصورة.

– عزيزي، هذا سيئ جدًّا، جلالتك ارتكبت حماقةً كبيرة.

– كنت مجنونًا وفاقدًا لعقلي.

– لقد عرضت نفسك لشبهة خطيرة.

– كنت آنذاك وليًّا للعهد، كنت صغيرًا، أما الآن فأنا في الثلاثين من عمري.

– يجب استعادة هذه الأوراق.

– حاولنا وفشلنا.

– يجب على جلالتك أن تدفع ثمنًا.. اشترِها.

– هي لن ترضى ببيعها.

– إذًا نسرقها.

– خمس محاولات جميعها باء بالفشل، تم اقتحام منزلها مرتين من قبل سارقين استأجرتهما، ومرة أخذنا أمتعتها أثناء سفرها، ومرتين تم قطع الطريق عليها.. كل هذا دون جدوى.

– ولم تعثر على أثر لها؟

– أبدًا.

ضحك هولمز وقال: «يا لها من مشكلة بسيطة وطريفة!».

فقال الملك: «لكنها خطيرة جدًّا بالنسبة لي».

– بالطبع، وماذا تنوي آيرين أن تفعل بالصورة؟

– تنوي أن تدمرني.

– لكن كيف؟

– أنا على وشك الزواج.

– سمعت بذلك.

– سأتزوج من كلوتيلد لوثمان فون ساكس منينجين، الابنة الثانية لملك إسكندنافيا، قد تكون سمعتَ بالمبادئ الصارمة لعائلتها، هي بنفسها شديدة الحساسية، مجرد ظلال من الشك ستُنهي الموضوع من الأساس.

– وماذا عن آيرين آدلر؟

– إنها تهددني بإرسال الصورة إليهم، وستفعل ذلك حتمًا، أعلم بأنها ستفعل ذلك، أنت لا تعرفها، إن لديها إرادة فولاذية، ولها أجمل وجه بين جميع النساء، وعقل أكثر تصميمًا من أعتى الرجال، ولو تزوجتُ من امرأة أخرى فلا حد لما يمكن أن تفعله.

– هل أنت متأكد أنها لم ترسلها بعد؟

– نعم متأكد.

– لماذا؟

– لأنها قالت إنها سترسلها يوم إعلان الخطبة رسميًّا، ما يعني يوم الاثنين القادم.

فقال هولمز وهو يتثاءب: «إذًا لدينا ثلاثة أيام وهذا من حسن الحظ، إذ إن لدي أمرًا مهمًّا أو اثنين لأتقصى عنهما في الوقت الحاضر، هل ستمكث جلالتك في لندن لبعض الوقت؟»

– بالطبع، ستجدني مقيمًا في فندق لانجهام باسم الكونت فون كرام.

– سأراسلك إذًا لكي أطلعك على التطورات.

– أرجو أن تفعل ذلك، فسأكون في غاية القلق.

– حسنًا، وبخصوص المال؟

– لك مطلق الحرية.

– مطلق الحرية؟

– دعني أخبرك أنني على استعداد للتنازل عن إحدى مقاطعات مملكتي في سبيل الحصول على هذه الصورة.

– ماذا عن النفقات الحالية؟

أخرج الملك من تحت عباءته حقيبة ثقيلة من الجلد، ووضعها على الطاولة قائلًا: «الحقيبة بها ثلاثمئة جنيه ذهبي وسبعمئة جنيه ورقي»، حرر هولمز إيصالًا على ورقة من مفكرته وسلمه إياه، ثم سأله عن عنوان الآنسة آدلر، فأجابه بأنها تسكن في منزل (بريوني) في جادة سيربنتين بشارع جونز وود.

أمسك هولمز بمفكرته وقال: «بقي سؤال واحد، هل حجم الصورة كبير؟»، فأجابه الملك بالإيجاب،

فقال هولمز: «حسنًا، ليلة سعيدة لجلالتك، أنا متأكد من أنك ستتلقى أخبارًا مفرحة.. ليلة سعيدة يا واتسون». ثم أضاف قائلًا حين بدأت العربية الملكية في التحرك: «أرجو أن تَحضر بعد ظهر الغد في تمام الثالثة، فسوف أناقش هذه القضية البسيطة معك».

الفصل الثاني

كنت في شارع بيكر في تمام الثالثة، لكن هولمز لم يكن قد وصل بعد، وأخبرتني مالكة المنزل أنه خرج من المنزل في الثامنة صباحًا. جلستُ بجوار المدفأة، وفي نيتي أن أنتظره مهما طال غيابه، فقد جذب تحقيقه انتباهي تمامًا، على الرغم من أن القضية لم تكن محاطة بالغموض والغرابة كسابقتيها اللتين قمت بتسجيلهما من قبل، لكن طبيعة القضية ومكانة العميل أضفت على القضية سمة خاصة. وبعيدًا عن طبيعة القضية التي يعمل عليها هولمز، فإنني أجد في فهمه البارع وتحليله المنطقي والحاسم ما يجعلني أستمتع بأسلوبه في العمل، وبتتبُّع طرقه السريعة الدقيقة في حل قضاياه الأكثر تعقيدًا، وقد اعتدت على نجاحه منقطع النظير حتى إن إمكانية فشله في حل القضايا لم تعد تراود أفكاري.

كانت الساعة قد قاربت الرابعة، حين فُتح الباب ودخل سائس سكير له وجه أحمر وملابس رثة وشعر أشعث، وعلى الرغم من أنني معتاد على قدرة صديقي على التنكر، إلا أنني تفرَّستُ فيه ثلاث مرات حتى تأكدتُ بالفعل من أنه هو.

أومأ إلي ثم اختفى داخل غرفة النوم، وبعد خمس دقائق خرج في أبهى حلة بهيئة جديرة بالاحترام كالمعتاد. وضع هولمز يديه في جيبه كما هي عادته، ومد ساقيه أمام نار المدفأة وأخذ يضحك بحرارة، ثم قال: «حسنًا، حقًّا!» وانطلق يضحك مرة أخرى حتى استلقى على كرسيه منهكًا من طول ما ضحك، فسألته: «ما الأمر؟»

فقال: «الأمر مضحك جدًّا، أنت لن تتصور كيف قضيت صباحي ولا ما انتهت إليه جهودي!»

قلت: «لا أستطيع التخيل، أفترض أنك كنت تراقب عادات الآنسة آدلر، وربما منزلها أيضًا».

فأجاب: «تمامًا، لكن النتيجة لم تكن عادية. سأخبرك بالأمر على أية حال. غادرتُ المنزل بعد الساعة الثامنة صباحًا بقليل، متنكرًا في هيئة سائس عاطل عن العمل، فالعاملون في مجال الخيول تربطهم عاطفة ووجدان مشتركان، وحين تتنكر في هيئة واحد منهم ستحصل على كل ما تريد معرفته. وجدت منزل بريوني بسهولة، بيت صغير له حديقة خلفية، يطل على الطريق مباشرة وله طابقان، وعلى بابه قفل ضخم، إلى اليمين غرفة جلوس واسعة تم فرشها بعناية ولها نوافذ طويلة وستائر تكاد تصل إلى الأرض، ومقابضها من النوع الإنجليزي الذي يستطيع أي طفل فتحه. لم يكن في الجهة الخلفية ما يسترعي الاهتمام، عدا النافذة التي فوق حظيرة العربة، والتي يمكن دخول البيت من خلالها. سرت حول المكان وتفحصته جيدًا من كل اتجاه دون أن ألاحظ شيئًا آخر ذا أهمية. ثم تسكعت حتى نهاية الشارع فوجدت -كما توقعت- مجموعة من الإسطبلات في ممر يمتد على طول أحد أضلاع الحديقة، فقمت بمساعدة سيّاس الخيول في تنظيف الخيل مقابل بنسين وزجاجة ونصف ولفافتي تبغ، بجانب كل ما أردت الحصول عليه من المعلومات عن الآنسة آدلر، بالإضافة إلى سير ذاتية لقرابة ستة أشخاص اضطررت لسماعها برغم انعدام أهميتها بالنسبة إلي».

سألته: «ماذا عن آيرين آدلر؟»

فأجاب: «لقد قلبت أحوال الرجال في هذه المنطقة، يبدو أنها أجمل امرأة في هذه المدينة، هذا ما أجمع عليه كل من في إسطبلات سيبرنتين، تعيش في هدوء وتغني في الحفلات الموسيقية حيث تغادر منزلها يوميًّا في تمام الخامسة، وتعود في السابعة للعشاء، ونادرًا ما تخرج في وقت آخر إلا للغناء. لا يزورها غير رجل واحد، لكنه يزورها كثيرًا، رجل أسمر وسيم يحضر إليها يوميًّا مرة على الأقل، ومرتين في أغلب الأحوال، اسمه (جودفري نورتون) من (إنر تيمبل). أتدرك فائدة مصاحبة السيّاس؟ لقد قاموا بتوصيله عدة مرات من سيربنتين فعرفوا عنه كل شيء، وبعدما حصلتُ على كل ما لديهم من معلومات، بدأت في السير ذهابًا وإيابًا بالقرب من (بريوني) لكي أضع خطة لحملتي.. جودفري نورتون عنصر مهم في المسألة. إنه مُحامٍ وهذا أمر ينذر بالشؤم، ما العلاقة التي تربطهما إذًا؟ وما سر زياراته المتكررة؟ هل هي عميلة لديه؟ صديقته؟ عشيقته؟ لو أن الافتراض الأول صحيح، لكان من المحتمل أنها استأمنته على الصورة، أما لو كان الأخير فالاحتمال ضعيف، وسوف تحدد إجابة السؤال ما إذا كنت سأستمر بالقرب من بريوني أو سأتوجه إلى المنزل في (إنر تيمبل). كانت نقطة دقيقة تسببت في كثرة تساؤلاتي، أخشى أنني أضجرتك بهذه التفاصيل، لكن عليَّ أن أُطلعك على جميع الصعوبات حتى تفهم طبيعة موقفي».

فقلت: «إني أُتابعك باهتمام».

قال: «كنت لا أزال أوازن الأمور بعقلي حين وصلت عربة أجرة عند منزل بريوني، ونزل منها سيد محترم، كان وسيمًا وأسمر وذا شارب أنيق، تمامًا كوصف الرجل الذي سمعت عنه. صاح في السائس لكي ينتظره ودخل المنزل وهو في عجلة من أمره متخطيًا الخادمة التي فتحت له الباب، ما يوحي باعتياده دخول هذا المنزل كثيرًا. مكث بالداخل قرابة نصف ساعة، واستطعت أن ألمحه من خلال نافذة غرفة الجلوس وهو يتجول في الغرفة ويتكلم بانفعال مُلوحًا بذراعيه، أما هي فلم أستطِع رؤيتها. ثم خرج بعد وقت قصير وقد بدا عليه الاضطراب أكثر من ذي قبل، صعد إلى العربة ثم أخرج ساعة ذهبية من جيبه وأمعن فيها النظر صائحًا: «قُد بأقصى سرعة إلى محل (جروس وهانكي) في شارع (ريجينت)، وبعدها إلى كنيسة (سانت مونيكا) في طريق (إدجوير)، ولك نصف جنيه إذا استطعت القيام بذلك في خلال عشرين دقيقة»، وانطلقا، وبينما كنت أتساءل إن كان من الأفضل أن أتبعه، إذا بعربة أنيقة تقترب، وقد زرَّر سائقها معطفه حتى منتصفه، وعقد رباط عنقه تحت أذنيه، لم تكد العربة تتوقف حتى اندفعت السيدة من باب المنزل وارتقت العربة فلم أرَ منها سوى لمحة سريعة خلال هذه اللحظة، لكنها بدت جميلة حتى إن الرجل ليموت من أجلها. صاحت تقول: «إلى كنيسة سانت مونيكا يا جون، ولك نصف جنيه إن وصلت خلال عشرين دقيقة». كانت فرصة لا تُعوض يا واتسون، فصرتُ أتساءل إن كان الأفضل أن أدخل المنزل أم ألحق بها، عندها اقتربت عربة من ناحية الشارع، وتردد السائق فيما ينظر لملابسي الرثة، غير أنني قفزت إلى العربة قبل أن تتاح له فرصة الاعتراض، وقلت: «كنيسة سانت مونيكا ولك نصف جنيه إذا وصلت خلال عشرين دقيقة».

كان كل شيء واضحًا، فقط خمسة وعشرون دقيقة تفصلنا عن الساعة الثانية عشرة، قاد السائق العربة بسرعة لا أظن أنني اختبرتُها مع أي عربة أخرى، لكن الرجل والمرأة وصلا قبلي برغم ذلك، إذ

وجدتُ عربة الأجرة والثانية ذات الغطاء المتحرك بأحصنتهما المجهدة تقفان أمام الباب حين وصلت. دفعت أجرة السائق واندفعت إلى الداخل فلم أجد في الكنيسة أحدًا سوى مَن أتيتُ في أثرهما، وقسًّا بدا كأنه يتجادل معهما، وقد وقف ثلاثتهم بجوار المذبح. أخذتُ أسير ببطء كأي متسكع يذهب إلى الكنيسة بلا هدف، حتى استدار الثلاثة ناحيتي بشكل مفاجئ واندفع نورتون نحوي بأسرع ما يستطيع، وقال: «حمدًا لله، ستفي بالغرض حتمًا، تعال تعال». سألتُه: «ما الأمر؟»، فقال: «تعالَ يا رجل، فقط ثلاث دقائق وإلا فلن يكون الأمر قانونيًّا». ثم اقتادني حيث تقف المرأة مع القس، وقبل أن أدرك الموقف وجدتُ نفسي أُتمتم بأشياء تُهمَس في أذني وأشهد بأشياء لا أعرفها حقًّا، وباختصار فقد شاركتُ في توثيق ارتباط آيرين آدلر وجودفري نورتون وانتهى كل شيء سريعًا وقام السيد المحترم بشكري، كما شكرتني السيدة من جِهتها بينما ابتسم لي القس بامتنان.

كان ذلك من أغرب ما تعرضت له في حياتي لذلك يدفعني للضحك الآن. يبدو أن زواجهما كان ينقصه بعض الشكليات، فقد رفض القس إتمام الزواج دون حضور شاهد.. أي شاهد، لهذا فقد أنقذ ظهوري العريس من الاندفاع نحو الشارع باحثًا عن شاهد آخر، وقد أعطتني العروس جنيهًا أنوي أن أُعلقه في سلسلة ساعتي كتذكار للموقف النادر».

قلت: «هذا تغير مفاجئ في مجرى الأمور، ماذا سيحدث بعد ذلك؟»

قال: «حسنًا، يبدو أن خططي مهددة بالفشل الذريع، إذ يمكن أن يغادر الاثنان في التو واللحظة، لذا يتحتم عليّ أن أتخذ إجراء سريعًا وفعالًا. على أية حال، فقد افترقا على باب الكنيسة حيث اتجه هو إلى (إنر تيمبل) وهي إلى منزلها، إلا أنها قالت أثناء مغادرتها: سأتنزه في الحديقة في الخامسة كالعادة. لم أسمع شيئًا آخر قبل أن يذهب كل منهما في اتجاه معاكس للآخر، فيما غادرتُ أنا حتى أقوم بترتيباتي الخاصة».

قلت: «وما هي هذه الترتيبات؟»

فأجابني وهو يقرع الجرس: «بعض اللحم البارد وكوب من الجعة، فقد كنت مشغولًا لدرجة أنني لم أفكر للحظة في الطعام، وعلى الأرجح سأكون أكثر انشغالًا في المساء. بالمناسبة يا دكتور، سأحتاج إلى مساعدتك».

قلت: «سأكون مسرورًا لذلك».

فسألني: «هل تمانع في خرق القانون؟»

فأجبته: «نهائيًّا».

فسأل مجددًا: «وهل تأسف لو تعرضتَ للاعتقال؟»

فأجبته: «ليس إذا كان السبب جيدًا».

قال: «السبب جيد بالطبع».

فأردفت: «إذًا فأنا طوع أمرك».

فقال هولمز: «كنت متأكدًا من أنني أستطيع الاعتماد عليك».

سألته: «لكن ما الذي تود أن تفعله؟»

قال بينما كان يلتفت بنهم إلى الطعام: «برغم أن السيدة تيرنر قد انتهت من تحضير الطعام، إلا أنني سأضطر لشرح الأمر لك الآن أثناء تناولي الطعام، إذ إنني ليس لديّ الكثير من الوقت. الساعة الآن الخامسة، ويجب أن نكون في موقع الأحداث خلال ساعتين على الأكثر، فالآنسة -أو بالأحرى السيدة- آيرين ستعود من نزهتها في السابعة، ويجب أن نكون في استقبالها عند مسكن بريوني».

سألته: «وماذا بعد ذلك؟»

قال: «يجب أن تترك الأمر لي. فقد رتبت ما سيحدث. هناك نقطة واحدة أصر عليها. يجب ألا تتدخل مهما حدث، أتفهم؟»

قلت: «سأكون محايدًا بالتأكيد».

فقال: «يجب ألا تتدخل مهما حدث، ربما يكون هناك بعض المضايقات الطفيفة، فلا تقم بأية ردة فعل، وستنتهي بدخولي إلى المنزل لمدة أربع أو خمس دقائق، وستفتح نافذة غرفة الجلوس، هنا يجب عليك أن تقف بالقرب من هذه النافذة المفتوحة، وأن تراقبني حيث أقف في مكان يمكنك من رؤيتي، وحين أرفع يدي هكذا ستلقي لداخل الغرفة شيئًا سأعطيه لك بعد قليل، كما ستقوم في الوقت نفسه بإطلاق صيحة إنذار من اندلاع حريق، هل أنت معي؟»

فقلت: «بكامل انتباهي».

قال وهو يُخرج لفافة من جيبه: «إنها ليست بالشيء المؤذي؛ ليست سوى صاروخ دخان يستخدمه السباك، وهو مغطى من الجانبين بحيث يكون ذاتي الاشتعال. تقتصر مهمتك على هذا الأمر، فحين تُطلق صرخة استغاثة من الحريق سيتجمع عدد من الناس، وعندها سأذهب إلى آخر الشارع حيث سألحق بك بعد عشر دقائق، أتمنى أن أكون واضحًا بالقدر الكافي».

قلت: «لن أتدخل، وسأقترب من النافذة حتى أراقبك من خلالها، ثم أقوم بقذف هذا الشيء إلى الداخل حين تُعطيني الإشارة، ثم أطلق نداء استغاثة، ثم أنتظرك في نهاية الشارع».

فقال هولمز: «بالضبط».

فقلت له: «يمكنك الاعتماد عليّ تمام الاعتماد».

فقال هولمز: «ممتاز، أعتقد أن الوقت أزف لكي أستعد للدور الجديد الذي سألعبه».

اختفى هولمز داخل غرفة نومه، وعاد بعد دقائق متنكرًا في هيئة قس لطيف وساذج. قبعة عريضة وبنطال فضفاض ورابطة عنق بيضاء وابتسامة متعاطفة، شكل عام يوحي بالنبل والفضول تمامًا مثل السيد جون هير. لم يكن اللافت فقط أن هولمز بدل ملابسه، بل بدل تعبيراته وتصرفاته، روحُه نفسها بدت أنها تتحول طبقًا للدور الذي يقوم به. خسر المسرح ممثلًا عظيمًا مثلما خسر العلم محللًا ذا شأن حين تخصص هولمز في مجال الجرائم.

غادرنا شارع بيكر في الساعة السادسة، ووصلنا أبكر بعشر دقائق إلى جادة سربنتين وقد حل الغروب، وكانوا يضيئون مصابيح الشارع فيما نحوم نحن حول منزل بريوني في انتظار عودة ساكنته.

كان المنزل كما تخيلته تمامًا من وصف هولمز الدقيق، أما الحي فقد كان أقل خصوصية مما توقعت، وبالنسبة لشارع صغير في منطقة هادئة كهذه فقد بدا مفعمًا بالحركة. كانت هناك مجموعة من الرجال ذوي الملابس الرثة يدخنون ويضحكون في إحدى الزوايا، وشخص جالس إلى دولاب لشحذ المقصات، وحارسان يحاولان التقرب إلى ممرضة، بجانب عدد من الشباب المتأنقين الذين يتسكعون ويدخنون السيجار.

بينما كنا نحوم حول المنزل قال هولمز: «أترى يا واتسون، هذا الزواج يسر علينا الأمر، فالصورة الآن صارت سلاحًا ذا حدين، فربما تقلق الآن من أن يطّلع السيد نورتون على الصورة تمامًا مثلما يخشى موكلنا أن ترى الأميرة هذه الصورة. السؤال الآن أين سنجد تلك الصورة؟»

قلت: «فعلًا، أين؟»

فقال هولمز: «من الصعب أن تحملها معها، فهي أكبر من أن تحملها بثيابها تلك، كما تعلم أن الملك قد يأمر بقطع طريقها وتفتيشها، فقد حاولوا بالفعل إتمام الأمر مرتين، يمكننا استنتاج أنها لا تحملها معها».

فقلت: «إذًا أين؟»

فقال: «المصرفي الذي تتعامل معه، محاميها، كلاهما محتمل، وأنا لا أرجح أيًّا منهما، حيث إني أميل إلى أن المرأة عمومًا كتومة، وتهتم بأمورها السرية بنفسها. لماذا تعطي الصورة لأحد؟ إنها تعهد لنفسها بحراستها، كما أنها تنوي استخدامها في الأيام المقبلة، لذلك وضعتها حيث تستطيع الوصول اليها سريعًا، لا بد أن تكون بداخل منزلها».

فقلت: «لكنه تم اقتحامه بالفعل مرتين».

- لكنهم لم يعرفوا أين يبحثون؟

- لكن كيف ستبحث أنت؟

- لن أبحث.

- ماذا ستفعل إذًا؟

قال: «سأجعلها ترشدني».

قلت: «لكنها سترفض».

فقال: «لن تستطيع الرفض، أنا أسمع قعقعة العجلات، إنها عربتها، الآن نفذ أوامري بالحرف الواحد».

وبينما هولمز يتحدث، ظهر الضوء الجانبي لعربة ذات غطاء مكشوف، وقفت أمام منزل بريوني، واندفع أحد المتسكعين ليفتح الباب آملًا في الحصول على قطعة نقود، غير أن متسكعًا آخر دفعه لكي يحل محله، فاندلعت مشادة وزادت حدتها بتدخل حارسين وقفا إلى جانب أحد المتسكعين على حساب الآخر، وفيما يشحذ الرجل المقصات مال إلى صف المتسكع الآخر بنفس الحرارة. اندلع الشجار، وفي لحظة صارت السيدة التي نزلت من العربة في مركز الشجار بين مجموعة من الرجال المتناحرين بشكل

همجي بالعصي والقبضات. اندفع هولمز وسط الحشد لحماية السيدة، وبمجرد وصوله إليها صرخ وسقط على الأرض وسال الدم بغزارة على وجهه. وبمجرد سقوطه هرب الحارسان في اتجاه فيما هرب المتسكعان في اتجاه آخر، وبقي بعض الناس الأفضل مظهرًا لكنهم لم يتدخلوا في هذا الشجار، غير أنهم حاولوا مساعدة السيدة ومعالجة المصاب. أسرعَت آيرين آدلر -كما أسميها دائمًا- بصعود السلم، ووقفت أعلاه حيث كشفَت أنوار القاعة روعةَ قوامها، وأخذَت تنظر إلى الشارع فيما تقول: «هل السيد المحترم المسكين مصاب بشدة؟»

صاح أحدهم: «لقد مات».

وصاح آخر: «لا لا، إنه على قيد الحياة، لكنه قد يفارقها قبل الوصول للمستشفى».

فقالت امرأة: «إنه شجاع، لولاه لسرقوا حقيبة السيدة وساعتها، إنهم عصابة قاسية؛ هذا المصاب يتنفس».

- لا يمكن تركه في الشارع، هل يمكننا إدخاله يا سيدتي؟

- بالطبع، أدخلوه إلى غرفة الجلوس، هناك أريكة مريحة، من هنا لو سمحتم.

ببطء وتأنٍّ أدخلوه منزل بريوني ووضعوه في الغرفة الرئيسة، بينما كنت لا أزال أراقب الأمور من جهتي بجوار الشباك. أضيئَت المصابيح، لكن الستائر لم تسدل، وبذلك استطعتُ رؤية هولمز ممددًا على الأريكة، وإن لم أستطع معرفة ما إذا كان هولمز يشعر بتأنيب الضمير بسبب دوره الذي يلعبه، فقد شعرت بالخزي عندما رأيت المخلوقة اللطيفة التي أتآمر ضدها ومقدار تعاطفها مع المصاب، لكني شعرت بأنني لو انسحبت الآن فستكون خيانة عظمى لهولمز، لذلك تماسكت وأخرجت صاروخ الدخان من ردائي وفكرت أننا في نهاية المطاف لا نؤذيها، بل نمنعها من إيذاء شخص آخر.

استلقى هولمز على الأريكة، وبدا لي كأنه يشعر بالاختناق. عندئذ اندفعت خادمة لفتح الشباك فرأيته يرفع يده، وبإشارة منه ألقيت صاروخ الدخان في الغرفة وصرخت: حريق! لم تكد الكلمة تخرج من فمي حتى احتشد جمع من المشاهدين، متأنقين، وعجزة، وخدم وخادمات، أقبلوا على صرخة حريق. اجتمعت سحابة من الدخان بداخل الغرفة، وامتدت خارج الشباك المفتوح. رأيت ظل أشخاص يتدافعون، وبعدها بلحظة سمعت صوت هولمز يؤكد لهم أن الإنذار كاذب. اتخذت طريقي بين الحشود إلى ركن الشارع، ولم تمر عشر دقائق حتى عاد إليّ الاطمئنان، حين التف ساعد صديقي حول ذراعي وابتعد بي عن مسرح الأحداث. مشى هولمز سريعًا دون أن ينبس بكلمة لعدة دقائق، حتى انعطفنا في أحد الشوارع الهادئة المؤدية إلى طريق إيدجوير، ثم علق قائلًا: «فعلتها على نحو رائع يا دكتور، ما كان الأمر ليتم أفضل من ذلك».

- هل الصورة معك؟

- أعرف مكانها.

- وكيف اكتشفته؟

- لقد أرشدَتني كما أخبرتك.

– لم أفهم.

ضحك هولمز وقال: «لا أريد أن أصنع من الأمر لغزًا، فالمسألة في غاية البساطة. ربما أدركتَ أن جميع مَن كانوا موجودين في الشارع كانوا شركاء لنا، كلهم مأجورون لهذه الليلة».

قلت: «خمنتُ ذلك».

فقال: «وعندما اندلع العراك كان في كف يدي بعض الطلاء الأحمر، فاندفعت نحوهم وألقيت بنفسي على الأرض، ولطخت وجهي بيدي فصار شكلي مثيرًا للشفقة. إنها خدعة قديمة».

قلت: «هذه أيضًا أمكنني استنتاجها».

قال: «ثم حملوني إلى الداخل، لقد كانت ملزمة بإدخالي، ماذا أمكنها أن تفعل غير ذلك؟ وهكذا دخلت لغرفة الجلوس التي كنت أشك في وجود الصورة فيها. إنها تقع إما في هذه الغرفة أو في غرفة النوم، وكنت عازمًا على أن أجد الصورة في أي منهما. وضعوني على الأريكة، وتظاهرت بالاختناق، فوجب عليهم فتح الشباك، فحظيت أنت بفرصتك في الاطلاع».

سألته: «كيف ساعدك ما حدث؟»

هولمز: «جميعه كان مهمًّا. عندما تفكر المرأة بأن منزلها يحترق، فإن غريزتها تدفعها في لحظة إلى تأمين أغلى ممتلكاتها. إنه رد فعل لا إرادي مبهر، وقد استخدمته في أكثر من مرة. استخدمتها في قضية فضيحة استبدال دارلنجتون وفي قضية قلعة أرنسورث، فالأم تندفع نحو ابنها، والعازبة نحو مجوهراتها، وبذلك اتضح لي أن السيدة في قضيتنا هذه لا تحتفظ في منزلها بأغلى مما نبحث عنه، لذلك اندفعَت لتأمينه. إنذار الحريق تم بدقة، كان الدخان والحريق كافيين لإثارة الرعب، وقد استجابَت لهما على النحو المأمول. الصورة في تجويف خلف لوحة مائلة، فوق حبل الجرس من الناحية اليمنى. خلال لحظة كانت هناك، فلمحتها وقد شرعت في إخراجها، وعندما صحت بأن الإنذار كاذب، أعادتها مجددًا، وانتبهَت لوجود الصاروخ فاندفعت خارج الغرفة ولم أرها ثانية منذ تلك اللحظة. بعد ذلك نهضتُ وقدمتُ اعتذاري حتى أتسلل من المنزل. وترددت في محاولة أخذ الصورة لولا أن دخل سائق العربة كان يراقبني من كثب، فبدا من الأفضل أن أنتظر، فقلة الصبر مهما صغُرَت قد تفسد الأمر برمته».

سألته: «والآن ماذا؟»

فقال: «عمليًّا انتهى تحقيقنا. لذا سأدعوك والملك في الغد لأجل الذهاب معنا لو أردتَ ذلك، سنكون في انتظار السيدة بداخل غرفة جلوسها، لكن من المحتمل ألا تجدنا عند قدومها ولا تجد الصورة أيضًا. فربما يشعر الملك بالرضا عن استعادة الصورة ويكتفي بذلك».

قلت: «ومتى سنذهب؟»

فأجابني: «في الثامنة صباحًا. لن تكون قد استيقظت بعد، ما يفسح لنا المجال. يجب أن نسرع إذ إن زواجها قد يعني تغييرًا تامًّا في عاداتها وطبيعة حياتها، يجب أن أكتب إلى الملك دون تأخير».

وصلنا لشارع بيكر ووقفنا أمام منزلنا، وبينما كان هولمز يفتش جيوبه بحثًا عن المفتاح قال أحد المارة: «مساء الخير يا سيد شيرلوك هولمز».

كان هنالك عدد من الأشخاص على الرصيف في هذه اللحظة، غير أن الصوت بدا صادرًا عن شاب نحيل يرتدي عباءة مر سريعًا من أمامنا. فقال هولمز وهو يجول بعينيه في الشارع المعتم: «لقد سمعتُ هذا الصوت من قبل، والآن أتساءل من يمكن أن يكون هذا الشخص».

الفصل الثالث

قضيت الليلة في مسكن هولمز في شارع بيكر، وكنا منهمكين في تناول القهوة مع شرائح الخبز في الصباح، عندما اندفع الملك إلى الغرفة وجذب هولمز من كتفيه قائلًا بلهفة: «أحصلت عليها فعلًا؟»

– ليس بعد.

– ولكنك تأمل في ذلك.

– لدي أمل.

– إذًا لنذهب سريعًا، فأنا أتحرق شوقًا للذهاب.

– علينا أن نستأجر عربة.

– لا، فعربتي تنتظر.

– هذا يسهل علينا الأمور إذًا.

نزلنا، وانطلقنا مرة أخرى نحو منزل بريوني، وعلق هولمز قائلًا: «تزوجت آيرين آدلر».

فقال الملك: «تزوجت؟ متى؟!»

– أمس.

– لكن ممَّن؟

– من محامٍ إنجليزي اسمه نورتون.

– لكنها لا تحبه.

– آمل أنها تحبه.

– ولماذا تأمل في ذلك؟

– لأن ذلك سيوفر على جلالتك أي إزعاج في المستقبل. إذا كانت السيدة تحب زوجها، فإنها لا تحبك، وإن كانت لا تحبك فلن تتدخل في خطتك القادمة.

– صحيح، وبالرغم من ذلك.. حسنًا! كنت أتمنى لو أنها كانت في نفس مكانتي الاجتماعية، كان يمكن أن تكون ملكة لا مثيل لها. غرق الملك في بحر من الصمت ولم يخرج منه إلا حين وقفنا أمام جادة سربنتين.

كان باب منزل بريوني مفتوحًا حيث وقفت امرأة مسنة تراقبنا بنظرة ساخرة فيما نخرج من العربة، وقالت: «أعتقد أنك السيد شيرلوك هولمز، أليس كذلك؟»

أجابها هولمز وهو يهز رأسه بالإيجاب ناظرًا إليها بشك أقرب إلى الهلع: «أنا السيد هولمز».

– طبعًا، فقد أخبرتني سيدتي أنك ستزورنا، وقد غادرت هي مع زوجها في قطار الخامسة والربع صباحًا، المنطلق من محطة تشيرنج كروس متجهًا إلى أوروبا.

تراجع هولمز إلى الوراء وقد شحب لونه من فرط المفاجأة وقال: «ماذا؟ أتقولين إنها غادرَت إنجلترا؟»

- ولن تعود إليها ثانيةً.

سأل الملك بصوت أجش: «والأوراق؟»

فأجاب هولمز: «سنرى»، اندفع هولمز متجاوزًا الخادمة إلى غرفة الجلوس، فتبعتُه وكذلك الملك. كان الأثاث مبعثرًا في كل مكان، والأرفف والأدراج مفتوحة كما لو أن السيدة أفرغتها سريعًا قبل هجرتها. أسرع هولمز إلى حبل الجرس وأزاح لوحة صغيرة مائلة، وأدخل يده فخرجت بخطاب وصورة. كانت الصورة لآيرين آدلر في رداء سهرة، وكان الخطاب موجهًا إلى شيرلوك هولمز، ومكتوب عليه: «يبقى الخطاب في مكانه حتى يأخذه شيرلوك هولمز».

فتح هولمز الخطاب لنقرأه ثلاثتنا ووجدناه مؤرخًا بتاريخ ليلة الأمس عند منتصف الليل، ونَصُّه الآتي:

«عزيزي السيد شيرلوك هولمز، لقد نفذتَ الأمر بشكل رائع فانخدعتُ به تمامًا، لم ينتَبني الشك لحظة حتى انطلق إنذار الحريق، لكن عندما وجدتُ أنني كشفتُ أمامك نفسي بدأت في التفكير. فقد حذروني منك قبل أشهر، وأخبروني أن الملك لو استعان بمحقق خاص فإنه سيكون أنت، حتى إنهم أعطوني عنوانك، وبرغم ذلك أجبرتَني على كشف ما أردتُ إخفاءه، وحتى بعد أن شككتُ فيك، رأيتُ أنه من الصعب أن أسيء الظن في القس العجوز الطيب. لكنك تعرف أنني تدربت على التمثيل بدوري، وأن أزياء الرجال لم تكن جديدة عليَّ، بل إنني أستفيد أحيانًا من التنكر في هيئة الرجال لتحقيق أهدافي الخاصة. أرسلتُ سائقي جون لمراقبتك، وسارعتُ للأعلى وارتديتُ ثياب التنزه كما أسمّيها، ونزلتُ وقت هممتَ أنت بالمغادرة. ثم تبعتُك حتى باب منزلك وتأكدتُ من أنني كنت هدفًا للسيد شيرلوك هولمز الشهير، فتمنيتُ لك ليلة سعيدة وتوجهت إلى إنر تيمبل للقاء زوجي. رأى كلانا أن الهروب هو الحل الأمثل حين تكون مطارَدًا من عدو رهيب مثلك، لذا ستجد العش فارغًا عند زيارتك لنا في الغد. وبخصوص صورة موكّلك فأرجو أن تُطمئنه، فأنا أحب رجلًا أفضل منه. قد يقوم الملك بالإضرار بي في أي وقت، لذا فأنا أحتفظ بها لحماية نفسي وحتى يكون بحوزتي سلاح يحميني من أية تدابير مستقبلية، لهذا تركتُ صورة أخرى قد يرغب في الاحتفاظ بها. وتقبل تقديري يا عزيزي السيد شيرلوك هولمز. المخلصة آيرين نورتون - آدلر سابقًا».

هنا قال الملك: «يا لها من امرأة.. يا لها من امرأة! ألم أخبرك كم هي سريعة وحاسمة؟ أما كانت لتصبح ملكة رائعة؟ أليس من المؤسف أنها ليست من مستواي الاجتماعي؟»

فقال هولمز بهدوء: «يبدو مما رأيت أنها ليست من مستوى جلالتك على الإطلاق، أعتذر أنني لم أُنهِ عمل جلالتك على أتم وجه».

فردَّ الملك: «على الإطلاق يا عزيزي هولمز، لا يمكن أن يتم الأمر أفضل من ذلك، فهي لا تحنث بوعدها أبدًا، والصورة الآن في أمان وكأنها احترقت».

- أنا سعيد لسماع ذلك من جلالتك.

- أنا مدين لك بشدة، أخبرني كيف أكافئك؟ بهذا الخاتم؟

وخلع الملك خاتمًا من الزمرد على شكل أفعى ووضعه على راحة يده.

فقال هولمز: «جلالتك تملك شيئًا أغلى بالنسبة إلي».

– فقط اطلب ما شئت.

– هذه الصورة.

نظر الملك بذهول وقال: «صورة آيرين؟ بالطبع، تفضل».

فقال هولمز: «شكرًا لجلالتك، هكذا انتهت المسألة. يشرفني أن أتمنى لك صباحًا سعيدًا»، ثم انحنى واستدار دون الانتباه ليد الملك الممدودة نحوه، وسرنا معًا حتى منزله.

كانت هذه حكاية الفضيحة الكبرى التي هددت مملكة بوهيميا، وكيف دحض دهاء المرأة أفضل خطط شيرلوك هولمز. وقد اعتاد هولمز أن يمتدح ذكاء النساء، لكنه حين يتحدث عن آيرين آدلر أو يشير إلى صورتها، فإنه دائمًا ما يُلقِّبها باسمها الشرفيّ: المرأة.

جماعة ذوي الشعر الأحمر

قمت بزيارة صديقي شيرلوك هولمز في أحد أيام خريف العام الماضي، فوجدته منهمكًا في محادثة مع كهل بَدين متورد الوجه، ذي شعر أحمر ناري. كنت على وشك الانسحاب بعد أن اعتذرت لتطفلي، لكن هولمز سحبني للداخل وأغلق الباب خلفي قائلًا بود: لم تكن لتحضر في وقت أكثر ملاءمة يا عزيزي واتسون.

قلت: لقد خشيت أن تكون مشغولًا.

– أنا بالفعل مشغول.. مشغول للغاية.

– يمكنني إذن أن أنتظر في الغرفة المجاورة.

– قطعًا لا. هذا السيد المحترم يا سيد ويلسون هو شريكي، ومساعدي في العديد من أكثر قضاياي نجاحًا، وليس لدي شك في أنه سيكون ذا فائدة عظيمة في قضيتك كذلك.

نهض الرجل البدين من كرسيه ليقف نصف وقفة، وهزّ رأسه مرحّبًا، مُلقيًا نظرة تساؤل سريعة من عينيه الصغيرتين اللتين يطوّقهما الشحم.

قال هولمز وهو يتكئ إلى الخلف في كرسيه، وقد ضمّ أطراف أصابعه كعادته عندما يكون في حالة تأمل: اجلس على الأريكة، فأنا أعلم يا عزيزي واتسون أنك تشاركني حب كل ما هو غريب وخارج عن العادات ورتابة روتين الحياة اليومية. ولقد أظهرت شغفك بذلك من خلال حماستك التي دفعتك إلى تسجيل.. أو إذا سمحت لي، زخرفة الكثير من مغامراتي.

فعقّبت: مغامراتك تثير اهتمامي بشكل كبير فعلًا.

– ستتذكّر أنني قد أشرت مباشرة قبل أن نبدأ في العمل إلى القضية السهلة التي قدمتها الآنسة ماري سذرلاند من قبل، إلا أنه ينبغي أن نلجأ إلى البحث في الحياة نفسها كي نفهم الوقائع الغريبة والأحداث المركّبة الاستثنائية، حيث سنجد فيها دائمًا ما هو أكثر غرابة من أي مجهود مبذول في الخيال.

– وهو الأمر الذي منحت لنفسي حق الاعتراض عليه.

– لقد فعلت ذلك بالفعل يا دكتور، ولكن يجب أن تقتنع بوجهة نظري، وإلّا سوف أستمر في وضع الحقيقة تلو الأخرى فوقك حتى ينكسر منطقك تحت وزن تلك الحقائق، وتعترف بأنني على حق. والآن، تكرّم السيد جابز ويلسون بزيارتي هذا الصباح ليقص عليّ حكاية تنبئ بأنها واحدة من أغرب القضايا التي استمعت إليها منذ مدة. لقد سمعتني وأنا أقول إن أغرب الأشياء وأكثرها تفردًا تتعلق –في الأغلب– بالجرائم الصغيرة وليست الكبيرة، وفي بعض الأحيان، قد نشك في وجود جرائم فعلية ارتُكِبت. وطبقًا لما سمعت حتى الآن، فإنه من المستحيل أن أحكم إذا كانت القضية المعروضة جريمة أم لا، ولكن من المؤكد أن مسار الأحداث من أغرب ما سمعت على الإطلاق. ربما تتكرّم يا سيد ويلسون بأن تعيد سرد قصتك مرة أخرى. وأنا لا أطلب منك ذلك فقط لأن صديقي الدكتور واتسون لم يسمع بداية القصة، بل لأن طبيعة القصة الغريبة تجعلني متلهفًا لسماع كل التفاصيل من بين شفتيك. فعادة بمجرد سماع تلميحات بسيطة عن سير الأحداث، أستطيع أن أستشهد بآلاف القضايا المُشابهة في ذاكرتي، وفي الوقت الحاضر، فإنني مُجبر على الاعتراف بأن هذه القصة فريدة على ما أعتقد.

زفر عميلنا زفرة قوية وأخرج جريدة متسخة ومُجعَّدة من الجيب الداخلي لمعطفه الثقيل. وبينما نظر إلى عمود الإعلانات والصحيفة مفرودة على ركبته، أخذتُ أتفحّصه على طريقة رفيقي محاولًا قراءة الإشارات التي قد تظهر على ملبسه ومظهره، إلا أنني لم أكتشف الكثير. حمل زائرنا كل الإشارات التي تدل على أنه تاجر إنجليزي متوسط، فهو سمين ومتفاخر ومُملّ. يرتدي سروالًا واسعًا من القماش الصوفي ذي المربعات، وسترة سوداء غير نظيفة من الظهر، وغير مُزرَّرة من الأمام، وصدرية قاتمة مزيَّنة بسلسلة نحاسية ثقيلة تتدلى كحلية، وعلى رأسه قبعة رسمية بالية. ولم ألحظ شيئًا يميّز الرجل فيما عدا لون شعره الأحمر المتوهج، وتعبير الانزعاج وعدم الرضا المُرتسم على وجهه.

لقطت عينا شيرلوك هولمز ما يشغلني، فهزّ رأسه مبتسمًا عندما لاحظ نظراتي المتسائلة قائلًا: لم أستطع أن أستنتج شيئًا سوى الحقائق الواضحة التي تُظهر أنه قام ببعض الأعمال اليدوية، وأنه يستعمل النشوق، وأنه تابع للماسونية، وأنه كان في الصين، وأنه قام بالكثير من الكتابة مؤخرًا.

قفز السيد جابز ويلسون من كرسيه وسبّابته لا تزال على الصحيفة، بينما كانت عيناه على رفيقي وهتف بذعر: كيف –بحق الإله– عرفت كل ذلك يا سيد هولمز؟ كيف عرفت على سبيل المثال أنني كنت أقوم بعمل يدوي؟ إن كل ما قلته صحيح تمامًا، فلقد بدأت أعمالي نجارًا للسفن.

– يداك يا سيدي العزيز. إن يدك اليمنى أضخم من يدك اليسرى. لقد كنت تعمل بها، وبالتالي نمت عضلاتها بشكل أكبر.

– حسنًا، وماذا عن النشوق والماسونية؟

– لن أهين ذكاءك بإخبارك كيف قرأت ذلك، خاصة أنك –وبعكس كل القواعد الصارمة المفروضة عليك– ترتدي دبوس الفرجار والبوصلة.

– آه، بالطبع، لقد نسيت ذلك. وماذا عن الكتابة؟

– لقد بلي طرف الكم الأيمن لمسافة خمس بوصات عند المعصم، بينما توجد رقعة ملساء بالقرب من الكوع الأيسر، حيث استندت إلى المكتب.

– حسنًا، وماذا عن الصين؟

– السمكة التي قمت بوشمها فوق معصمك الأيمن مباشرة لا يمكن وشمها إلا في الصين. لقد قمت بدراسة بسيطة عن علامات الوشوم، بل ساهمت بالكتابة في الموضوع. إن مهارة صبغ حراشف السمك باللون الوردي تتميز به الصين، بالإضافة إلى رؤية عملة صينية مُعلقة في سلسلة ساعتك، الأمر الذي زاد من بساطة الموضوع.

ضحك السيد جابز ويلسون بشدة قائلًا: حسنًا، لم أتخيل ذلك! لقد اعتقدت في البداية أنك قد قمت بعمل ذكي للغاية، ولكني أرى الآن أنه كان بسيطًا في النهاية.

فقال هولمز: لقد بدأت في الاعتقاد يا واتسون أنه من الخطأ أن أقوم بالشرح. فكما تعرف الجهل يجعل الأشياء أكثر إبهارًا، وستنهار سمعتي المتواضعة إذا التزمت الصراحة. ألا تستطيع العثور على الإعلان يا سيد ويلسون؟

أجابه وإصبعه الحمراء الثمينة مُثبَّتة على منتصف أحد أعمدة الصحيفة: بلى، لقد وجدته الآن. هذا ما بدأ الأمر كله. اقرأه بنفسك يا سيدي.

أخذت منه الصحيفة وقرأت ما يلي:

«تعلن جماعة ذوي الشعر الأحمر أنه بناءً على وصية الراحل إزيكيا هوبكنز من بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية، يوجد الآن مكان شاغر للعمل في الجماعة براتب أربعة جنيهات أسبوعيًّا مقابل خدمات اعتيادية. أي رجل ذي شعر أحمر، سليم العقل والجسد، يزيد عمره على واحد وثلاثين عامًا فهو مؤهل للعمل. التقدّم شخصيًّا يوم الاثنين في الحادية عشرة إلى دنكان روس في مقر الجماعة بالمبنى رقم 7 في شارع المحكمة المتفرع من شارع فليت».

صحت بعد أن قرأت هذا الإعلان الغريب مرتين: ما معنى هذا بحق الله؟

قهقه هولمز وتململ في مقعده كعادته عندما تكون معنوياته مرتفعة قائلًا: إنه غريب، أليس كذلك؟ والآن يا سيد ويلسون، هل يمكنك أن تخبرنا من البداية بكل شيء عنك وعن المقيمين في منزلك، وتأثير هذا الإعلان على ثروتك؟ ولكن أولًا سجل ملاحظة يا دكتور عن الجريدة وتاريخها.

– إنها صحيفة كرونيكل الصباحية، وتاريخها هو السابع والعشرون من أبريل عام 1890، أي منذ شهرين.

– جيد جدًّا. الآن دورك يا سيد ويلسون.

فقال السيد جابز ويلسون وهو يمسح جبينه: حسنًا، كما كنت أخبرك يا سيد هولمز. لديّ شركة صغيرة لسمسرة الرهانات في ميدان كوبورج بالقرب من المدينة. إنه ليس عملًا كبيرًا، وفي السنوات الأخيرة لم يدرّ عليّ سوى ما يكفيني للعيش. كنت معتادًا على توظيف مساعدين اثنين، لكن الآن لم أعد قادرًا سوى على توظيف واحد، ولولا أنه وافق على تقاضي نصف أجره ليكتسب خبرة، لواجهت مشقّة أكبر في دفع أجره.

فسأله شيرلوك هولمز: ما اسم هذا الشاب الخدوم؟

– اسمه فينسنت سبولدينج، وهو ليس شابًّا، ومن الصعب تخمين سنّه. لم أكن لأتمنى مساعدًا أكثر ذكاء منه يا سيد هولمز. كنت أعرف يقينًا أن بإمكانه أن يحسّن من وظيفته، وعندها سيكسب ضعف المبلغ الذي أستطيع دفعه له. لكن إذا كان هو راضيًا، فلماذا أضع أفكارًا أخرى في رأسه؟

– لماذا بالفعل؟ يبدو أنك محظوظ للغاية أن تحظى بموظف يرضى بالعمل بأقل من الأجر المتعارف عليه في السوق، هذا نادر في هذا الزمن، وأعتقد أن مساعدك مُميز كإعلانك تمامًا.

فقال السيد ويلسون: أوه، إن لديه عيوبه كذلك. فلم أرَ شخصًا في مثل حماسته للتصوير. يختفي بالكاميرا الخاصة به حتى في الأوقات التي من المفترض أن يعمل فيها، وبعد ذلك يقفز في القبو كالأرنب في جحره ليحمض الصور. هذا عيبه الرئيس، لكن في المُجمل هو موظف جيد ولا تشوبه شائبة.

– إنه ما زال في العمل لديك كما أفترض؟

– نعم يا سيدي. هو وفتاة في الرابعة عشرة تُعد الأطعمة الخفيفة، وتُبقي المكان نظيفًا. هذا كل ما لدي في المنزل، حيث إنني أرمل ولم أحظَ بعائلة قط. ونعيش نحن الثلاثة بشكل هادئ جدًّا يا سيدي، نحافظ على وجود سقف فوق رؤوسنا، وندفع ما علينا على الأقل.

كان هذا الإعلان أول ما أزعجنا. حيث دخل مساعدي المكتب في مثل هذا اليوم منذ ثمانية أسابيع ومعه هذه الصحيفة نفسها وقال: كم أتمنّى لو كان شعري أحمر اللون يا سيد ويلسون.

فسألته: لماذا؟

قال: لماذا؟! ها هي وظيفة أخرى شاغرة مع جماعة ذوي الشعر الأحمر. هذا يعني ثروة صغيرة لمن يحصل عليها. وقد عرفت أن الوظائف المعروضة أكثر من المتقدمين، ولهذا فإن الأوصياء محتارون ولا يعرفون ماذا يفعلون بالمال. لو أن شعري يتحول لونه فقط، لكانت أمامي وظيفة لطيفة وجاهزة تمامًا لألتحق بها.

سألته: لماذا؟ ما الأمر إذن؟

– فكما ترى يا سيد هولمز، أنا رجل مُحب للبقاء في المنزل، ولأن عملي يأتي إليّ بدلًا من اضطراري للخروج إليه، فقد تمرّ أسابيع لا أخرج فيها من عتبة الباب. ولذلك لم أعرف الكثير عمّا يجري في الخارج، وأسعدُ دائمًا بأي خبرٍ كان.

فسألني مساعدي بدهشة: ألم تسمع بجماعة ذوي الشعر الأحمر؟

فأجبته: على الإطلاق.

فقال: أتساءل لماذا؟ فأنت مؤهل لتشغل إحدى وظائفهم.

سألته: وكم يدفعون؟

– أوه، حوالي مئتي جنيه في العام، وعملهم بسيط جدًّا ولا يتعارض مع أشغال المرء الأخرى.

– بالطبع يمكنك أن تتخيل ببساطة كيف جذب الأمر انتباهي. فعملي لم يكن يسير بشكل جيد منذ سنوات، ومئتا جنيه إضافية ستساعدني للغاية. ومن ثَم طلبت منه أن يخبرني المزيد عن الأمر. فعرض عليّ الإعلان قائلًا: يمكنك أن ترى بنفسك أن لدى الجماعة فرصة عمل، وهناك عنوان لتقديم بياناتك. وحسبما أعرف، فإنه أُسِّست هذه الجماعة على يد المليونير الأمريكي إزبكيا هوبكنز وهو رجل غريب الأطوار. وهو ذو شعر أحمر، ويتعاطف مع الرجال ذوي الشعر الأحمر. لذا عندما مات، وجدوا أنه ترك ثروته الهائلة في عهدة أوصياء، ومعها تعليمات بأن تُخصَّص الفائدة لتوفير عمل سهل للرجال ذوي الشعر الأحمر. وحسبما سمعت، فإن الأجر رائع، والعمل بسيط.

فقلت: لكن لا بد أن هناك الملايين من ذوي الشعر الأحمر، وسيتقدمون للوظيفة.

فأجابني: ليس بالعدد الكبير الذي تتصوره، فالأمر مقتصر على الرجال البالغين من أهل لندن. حيث بدأ هذا الأمريكي حياته من لندن عندما كان شابًّا، وأراد أن يردّ الجميل إلى المدينة العريقة، بالإضافة إلى أنني سمعت بأنه لا فائدة من التقديم إذا كنت بشعر أحمر فاتح أو داكن أو أي شيء آخر عدا أن يكون

أحمر ناريًّا متوهجًا. الآن يا سيد ويلسون إذا أردت التقدم للوظيفة، فسوف تُقبل بكل سهولة، لكن ربما لا يستحق الأمر أن تغير من عاداتك في سبيل بضع مئات من الجنيهات فقط!

والحقيقة أيها السادة أن شعري ذو لون ناري كما ترون. لذا بدا أنه لو كان هذا هو الشرط، فإن فرصتي أفضل من أي شخص قابلته في حياتي. وقد بدا على فينسنت سبولدينج أنه يعلم الكثير عن الموضوع، لذا رأيت أنه قد يكون مفيدًا، لذا طلبت منه أن يغلق الشركة ذلك اليوم، وأن يأتي معي فورًا. ولقد كان سعيدًا للغاية بأن يأخذ إجازة، لذ أغلقنا الشركة وذهبنا إلى العنوان المكتوب في الإعلان.

لا أتمنى أن أرى ذلك المشهد مرة أخرى يا سيد هولمز. تدفق كل من كان في رأسه خصلة باللون الأحمر من الشمال والجنوب والشرق والغرب إلى المدينة في استجابة لذلك الإعلان. اختنق شارع فليت بالرؤوس الحمراء، وبدت عطفة المحكمة كأنها قفص ممتلئ بالبرتقال. لم أكن أعتقد بأن هناك كل هذا العدد في البلد إلا بعد أن جمعهم هذا الإعلان. وُجِدَت كل درجات اللون من الأصفر بلون التبن، إلى الليموني، والبرتقالي، والطوبي، ولون شعر كلب الصيد الأيرلندي، والطيني، لكن كما قال سبولدينج لم يكن هناك الكثيرون بشعر ناري وزاهٍ. عندما رأيت الأعداد المنتظرة، تملّكني اليأس وكنت على وشك الاستسلام، لكن لم يسمح سبولدينج لي بذلك. لا أستطيع أن أتخيل كيف نجح في أن يمرّ بي وسط الزحام، لكنه دفع وجذب الناس حتى وصلنا إلى الدرج الذي يقود إلى المكتب. كان هناك نوعان من الناس: مَن يصعد مملوءًا بالأمل، ومَن ينزل مكتئبًا. استطعنا أن نشقّ طريقنا قدر المستطاع حتى وجدنا أنفسنا بعد وقتٍ قصير في المكتب.

علّق هولمز عندما توقّف عميله لينعش ذاكرته بدفعة قوية من النشوق: إن تجربتك من أكثر التجارب تسليةً. أرجو أن تكمل روايتك المُثيرة للاهتمام.

لم يكن في المكتب شيء غير كرسيين خشبيين وطاولة جلس خلفها رجل ضئيل بشعر أكثر احمرارًا حتى من شعري. كان يقول لكل مرشح يصل إليه كلمات قليلة، وتمكّن دائمًا من إيجاد بعض العيوب التي تقضي بعدم أهلية كل منهم. وبدا أن الحصول على الوظيفة الشاغرة ليس بالأمر السهل في النهاية. وبالرغم من ذلك، فعندما أتى دورنا، عاملني الرجل بشكل أفضل من الآخرين، واغلق الباب عندما دخلنا ليتحدث معنا على انفراد.

قال مساعدي: هذا هو السيد جابز ويلسون، وهو يرغب في الحصول على الوظيفة الشاغرة في الجماعة.

فأجاب الرجل الآخر: وهو مناسب لها تمامًا، فهو يمتلك كل المتطلبات حتى إنني لا أتذكر متى رأيت شيئًا بمثل هذا النقاء.

ثم تراجع خطوة إلى الخلف، وأسند رأسه إلى إحدى يديه، وأخذ يحملق في شعري حتى شعرت بالخجل. ثم مال فجأة للأمام، وشدّ على يدي بحرارة وهو يهنئني بنجاحي قائلًا: سيكون من المُجحف أن أتردد. أنا واثق أنك ستعذرني لقيامي بعمل احتياطي بديهي.

وبمجرد انتهائه من هذه الجملة، أمسك شعري بكلتا يديه وشدّه حتى صرخت من الألم. ثم قال وهو يتركه: هناك دموع في عينيك. أدرك الآن أن كل شيء كما يجب أن يكون. يجب أن نكون حذرين، حيث

خُدعنا مرتين من قبل بشعر مستعار، ومرة بشعر مصبوغ. يمكنني أن أقصّ عليك قصصًا ستجعلك تشمئز من الطبيعة البشرية.

ثم ذهب إلى النافذة وصرخ بأعلى صوته بأن الوظيفة قد شُغلت. سمعنا أنين إحباط صادر من الأسفل، وبدأ الناس يتحركون في كل اتجاه مبتعدين حتى لم يتبق رأس أحمر سوى رأسي ورأس ذلك المدير.

قال: اسمي دنكان روس، وأنا نفسي أحد المستفيدين من المنحة التي تركها المُتبرع الكريم. هل أنت متزوج يا سيد ويلسون؟ هل لديك عائلة؟

فأجبته بأنه ليس لدي. فتغير وجهه على الفور، وقال باكتئاب: يا إلهي! هذا خطير فعلًا! أنا آسف لسماع ذلك. إن التمويل لزيادة أعداد ذوي الشعر الأحمر وتكاثرهم. من سوء الحظ أن تكون أعزب.

بدت الكآبة على وجهي عند سماع ذلك يا سيد هولمز، حيث اعتقدت أنني غير مؤهل لتلك الوظيفة في النهاية، لكن بعد التفكير في الأمر لعدّة دقائق قال إن كل شيء سيكون على ما يرام.

وقال: في حالة أخرى، سيكون الرفض أمرًا حتميًّا، لكن يجب أن نتمتع ببعض المرونة في سبيل مصلحة شخص له مثل شعرك. متى ستتمكن من أداء مهامّك الجديدة؟

قلت: حسنًا، إن الأمر مُحرج بعض الشيء لأن لدي تجارتي بالفعل.

فقال فينسنت سبولدينج: أوه، لا تشغل بالك بها يا سيد ويلسون! بإمكاني الاعتناء بها من أجلك.

فسألته: ما هي ساعات العمل؟

فأجاب: من العاشرة للثانية.

– والآن يا سيد هولمز، معظم عمل سمسار الرهانات يكون في المساء، خاصة ليلة الخميس والجمعة، أي قبل يوم القبض مباشرة، لذا بدا من المناسب لي تمامًا أن أكسب القليل من المال في الصباح. علاوة على ذلك، فأنا أعلم أن مساعدي رجل صالح وأنه يستطيع معالجة أي طارئ في العمل.

فقلت: هذا يناسبني جدًّا. ماذا عن الراتب؟

– أربعة جنيهات في الأسبوع.

– وماذا عن العمل؟

– أعمال بسيطة للغاية.

– ما نوع العمل الذي تدعوه بسيطًا للغاية؟

– حسنًا، سيتوجب عليك البقاء في المكتب أو في المبنى على الأقل طوال الوقت. إذا غادرت، فإنك ستفقد وظيفتك للأبد. الوصيّة واضحة جدًّا فيما يتعلق بهذا الأمر، ومغادرة المكتب خلال الوقت المحدد يعد مخالفة للشروط».

فقلت: إنها أربع ساعات فقط في اليوم، ولن أفكّر في الخروج.

فقال السيد دنكان روس: الأعذار غير مقبولة؛ لا المرض ولا العمل ولا أي شيء آخر. يجب أن تظل في المكتب أو ستفقد وظيفتك.

– وما طبيعة العمل؟

– ستنسخ الموسوعة البريطانية. وستجد المجلّد الأول منها في تلك الخزانة. عليك أن تحضر الحبر والأقلام والأوراق، ويمكننا أن نوفّر لك هذه الطاولة وذلك الكرسي. هل ستكون جاهزًا غدًا؟

أجبته: بالطبع!

– إلى اللقاء إذن يا سيد ويلسون، واسمح لي بأن أهنئك بالمنصب المهم الذي حالفك الحظ لتشغله.

انحنى لي، فخرجت من الغرفة وذهبت إلى المنزل مع مساعدي، وأنا أشعر بالسعادة لحسن حظي، حتى أصبحت لا أعرف ماذا أقول أو أفعل.

فكرت في الأمر طوال النهار، وبحلول المساء انخفضت معنوياتي حيث اقتنعت بأن الأمر لا يعدو كونه خدعة أو عملية نصب، رغم أنني لم أستطع تحديد ماهية الأمر. فقد بدا أنه من غير المعقول أن يترك أي شخص وصية كهذه، أو أن يدفع هذا المبلغ من المال مقابل عمل بسيط كنسخ الموسوعة البريطانية. قام فينسنت سبولدينج بكل ما في وسعه ليبهجني، لكن بحلول وقت النوم، كنت قد أقنعت نفسي بأن الأمر كله غير معقول. ومع ذلك، فقد قررت في الصباح أن أذهب لألقي نظرة عليه على كل حال، لذا اشتريت زجاجة حبر وقلمًا وكمية كبيرة من الورق ثم اتجهت إلى العمل.

حسنًا، لدهشتي وسعادتي كان كل شيء كما يجب أن يكون. حيث أُعدت الطاولة لأجلي، وكان السيد دنكان روس هناك ليتأكد من وصولي في موعد مناسب. ولقد جعلني أبدأ من حرف الألف، ثم تركني، وإن جاء إليّ عدة مرات ليرى إذا كان كل شيء يسير على ما يرام معي. وفي تمام الساعة الثانية، تمنى لي يومًا سعيدًا وأثنى على القدر الذي كتبته، وأغلق باب المكتب خلفي.

استمرّ الأمر يومًا بعد يوم يا سيد هولمز، حتى أتى المدير يوم السبت وأعطاني أربعة جنيهات ذهبية لقاء عمل الأسبوع. وقد تكرّر الأمر في الأسبوع التالي، والأسبوع الذي يليه. أصل إلى هناك كل يوم في العاشرة، وأغادر في الثانية بعد الظهر. وبالتدريج اعتاد السيد دنكان روس أن يأتي مرة واحدة في الصباح، ثم بعد فترة توقّف عن المجيء كليًّا. ومع ذلك، فإنني لم أجرؤ –بالطبع– أن أغادر الغرفة ولو للحظة، حيث لم أعرف متى قد يأتي، كانت الوظيفة جيدة ومناسبة لي جدًّا، فلم أرغب في أن أخاطر بخسارتها.

مرّت ثمانية أسابيع على هذا المنوال، كتبت عن الرماية والدروع والعمارة، وأملت بشكل كبير أن أصل إلى حرف الباء قريبًا. ولقد كلّفني ذلك الكثير من الورق الفولسكاب، ملأت بكتاباتي رَفًّا كاملًا تقريبًا. ثم فجأة انتهى الأمر كله.

– انتهى؟

– نعم يا سيدي. حيث ذهبت صباح يوم في العاشرة إلى عملي كالعادة، لكن الباب كان مُغلقًا. وعُلِّقت بطاقة مربعة صغيرة في وسط الباب. ها هي ذي، يمكنك قراءتها بنفسك.

أمسك البطاقة التي كانت في حجم ورقة المفكرة، وقد كُتِبَ عليها:

«**حُلَّت جماعة ذوي الشعر الأحمر في التاسع من أكتوبر عام 1980**».

فحصت أنا وشيرلوك هولمز هذه البطاقة، ووجه الرجل الحزين، حتى تغلّب الجانب الهزلي للموقف تمامًا على أي اعتبارات أخرى، فانفجرنا في عاصفة من الضحك. فصاح عميلنا وقد احتقن وجهه ليتحول إلى لون شعره المتوهّج: لا أستطيع رؤية أي شيء مُضحك. إذا لم يكن في إمكانكما فعل أي شيء عدا السخرية مني، فيمكنني الذهاب إلى مكان آخر.

فصاح هولمز وهو يعيده إلى الكرسي الذي همّ بالقيام عنه قائلًا: لا، لا! أنا حقًّا لا أريد أن أفوّت قضيتك لأي سبب في العالم، فهي غريبة بشكل مكتمل. لكن اعذرني إذا قلت لك إنها مضحكة بعض الشيء. أرجو أن تخبرني ما هي خطواتك التي قمت بها عندما وجدت البطاقة على الباب؟

– لقد صُدمت يا سيدي، ولم أعرف ماذا أفعل وقتها. قمت بزيارة إلى المكاتب المُجاورة، ولكن لم يبدُ أن أحدهم قد سمع أي شيء عن الأمر. ذهبت في النهاية إلى مالك العقار، وهو محاسب يعيش في الطابق الأرضي، وسألته إذا كان بإمكانه إخباري بما حدث لجماعة الشعر الأحمر. فقال إنه لم يسمع بهذا الاسم على الإطلاق. لذا سألته عن شخصية السيد دنكان روس، فأجابني بأن هذا الاسم جديد عليه.

فقلت: حسنًا، السيد في المكتب رقم أربعة.

– من؟ أتقصد الرجل ذا الشعر الأحمر؟

– نعم.

فقال: أوه، هذا السيد ويليام موريس. وهو محامٍ استأجر غرفتي بشكل مؤقت حتى يجهّز مبناه الجديد. وقد انتقل إليه بالأمس.

– أين يمكنني أن أجده؟

– أوه، في مقره الجديد. لقد أخبرني بالعنوان. نعم، إنه 17 شارع الملك إدوارد، بالقرب من كنيسة سانت بول.

ذهبت من فوري، وعندما وصلت إلى العنوان، وجدته مصنعًا لأغطية الركب الصناعية، ولم يسمع أي شخص هناك بالسيد ويليام موريس أو السيد دنكان روس.

فسأله هولمز: وماذا فعلت وقتها؟

– ذهبت إلى منزلي في ميدان ساكس كوبرج، وسألت مساعدي النصيحة، لكنه لم يساعدني بأي طريقة، ولم يستطع إلا أن يخبرني بأنني إذا انتظرت فسوف أسمع أخبارًا بالبريد، لكن ذلك لم يكن جيدًا بشكل كافٍ يا سيد هولمز. لم أرغب أن أخسر مثل تلك الوظيفة دون مقاومة، ولذلك جئت إليك مباشرة لأنني سمعت أنك تتكرم بإسداء النصيحة للمساكين الذين يحتاجونها.

فقال هولمز: ولقد كان تصرفًا حكيمًا من جانبك. فقضيتك مُميزة للغاية، وسأكون سعيدًا بالبحث فيها. طبقًا لما أخبرتني، فإنني أظن أن هناك أمورًا أكثر خطورة من تلك التي تظهر للوهلة الأولى.

فقال السيد جابز ويلسون: خطير بما يكفي. لقد فقدت أربعة جنيهات في الأسبوع.

علّق هولمز: أمّا فيما يتعلق بك شخصيًّا، فأرى أنك لا تملك أساسًا لأي شكوى ضد هذه الجماعة الغريبة، بل على العكس –فكما فهمت– لقد أصبحت أغنى بمقدار ثلاثين جنيهًا تقريبًا، بغض النظر عن

المعلومات الدقيقة التي اكتسبتها في كل الموضوعات التي نسختها تحت حرف الألف، وبالتالي فأنت لم تخسر شيئًا بسببهم.

– هذا صحيح يا سيدي! لكنني أريد أن أكتشف المزيد عنهم، وأعرف من هم، وماذا كان هدفهم من تلك المزحة –لو كانت مزحة– فلقد كانت مزحة مُكلفة جدًّا بالنسبة لهم، حيث كلّفتهم اثنين وثلاثين جنيهًا.

– سنسعى إلى تفسير تلك النقاط، لكن في البداية سأسألك سؤالًا أو اثنين يا سيد ويلسون. هذا المساعد الذي يعمل لديك، والذي جذب انتباهك إلى الإعلان منذ البداية، منذ متى يعمل معك؟

– منذ شهر في وقتها.

– وكيف جاء إليك؟

– ردًّا على أحد الإعلانات.

– هل كان المُتقدم الوحيد؟

– لا، لقد تقدّم العديد.

– ولماذا اخترته؟

– لأنه كان بارعًا ووافق على أجر زهيد.

– بل بنصف الأجر في الحقيقة.

– صحيح!

– ما أوصاف ذلك المدعو فنسنت سبولدينج؟

– ضئيل، وقوي البنية، وحركاته سريعة جدًّا، حليق الوجه رغم أنه لا يقل عن الثلاثين، ولديه بقعة بيضاء على جبهته نتيجة حريق قديم.

استقام هولمز في جلسته في انفعال واضح قائلًا: هذا ما ظننته! هل لاحظت أن أذنيه مثقوبتان لوضع الأقراط؟

– نعم يا سيدي. ولقد أخبرني أن غجريًّا ثقبهما وهو صغير.

فقال هولمز وهو يغرق في تفكير عميق: اممم! هل ما زال يعمل لديك؟

– أوه، نعم يا سيدي، فلقد تركته للتو.

– وهل كان عملك يسير بشكل جيد أثناء غيابك؟

– لم يكن هناك ما يدعو للشكوى، فالعمل في الصباح قليل جدًّا من الأساس.

– هذا يكفي يا سيد ويلسون، وسأكون سعيدًا بأن أعطيك رأيي في هذا الموضوع في غضون يوم أو اثنين. اليوم هو السبت، وأتمنى أن نصل إلى نتيجة بحلول يوم الاثنين.

فقال هولمز عند انصراف زائرنا: حسنًا يا واتسون، ماذا استنتجت من كل هذا؟

فأجبته بصراحة: لم أستنتج شيئًا، الأمر في غاية الغموض.

قال هولمز: كقاعدة عامة، كلما زادت غرابة الشيء، قلّ غموضه. فالقضايا المُعتادة غير المُميزة هي الأكثر صعوبة في حلها، تمامًا كما يصعب تمييز الوجوه المُعتادة. لكن يجب أن أسرع في حل هذه القضية.

فسألته: ما الذي ستفعله إذن؟

قال: سأدخن، فهذه القضية تستوجب تدخين الغليون ثلاث مرات، وأرجو ألّا تتحدث إليّ لمدة خمسين دقيقة.

تكوّر هولمز في كرسيّه وركبتاه النحيلتان مضمومتان حتى أنفه المعقوف، وقد جلس مُغمضًا عينيه وغليونه الأسود بارز خارج وجهه كمنقار لطائر غريب. ظننت وقتها أنه قد نام، وبالفعل بدأ رأسي يميل من النعاس متأثرًا به عندما هبّ واقفًا فجأة من كرسيه في إشارة تدل على أنه قد حسم رأيه، ثم وضع غليونه على رفّ المدفأة قائلًا: سيعزف ساراسيت في قاعة سانت جاميس بعد ظهر اليوم، ما رأيك يا واتسون؟ هل يمكن لمرضاك أن يسمحوا بغيابك بضع ساعات؟

– ليس لديّ ما أفعله اليوم، فعملي لا يستغرق الكثير من الوقت.

– إذن فلتعتمر قبعتك وتأتي معي. فسأتجول في المدينة أولًا، ويمكننا تناول الغداء في الطريق. ألاحظ وجود الكثير من الموسيقى الألمانية في البرنامج، وهذه الموسيقى ملائمة لذوقي أكثر من الإيطالية والفرنسية، فهي تدفع المرء إلى التفتيش في دواخله، وهذا ما أريد أن أفعله. هيّا!

ركبنا الترام حتى وصلنا إلى ألدريسجايت، ثم مشينا مسافة قصيرة حتى ميدان كوبروج، وهو مسرح الأحداث التي استمعنا إليها في الصباح. كان مكانًا ضيّقًا وصغيرًا، حيث أطلّت أربعة صفوف من المنازل الحجرية الكئيبة ذات الطابقين على مساحة صغيرة نمت فيها مروج من الأعشاب القبيحة، ومجموعة ضئيلة من أشجار الغار الباهتة، والتي تقاوم بضراوة المناخ غير الملائم والمُشبَّع بالدخان. أرشدتنا لافتة من ثلاث كرات ذهبية ولوح بني كُتب عليه بحروف بيضاء (**جابز ويلسون**) إلى المكان الذي يزاول فيه عميلنا ذو الشعر الأحمر عمله. توقّف شيرلوك هولمز أمامه ورأسه مائل إلى أحد الجوانب، وأخذ يتفحصه بعينين لامعتين بين جفون متغضنة، ثم سار ببطء في الشارع، ثم عاد ثانية إلى الزاوية وما زال ينظر إلى المنازل بتفحص. وفي النهاية عاد إلى محل سمسرة الرهانات، وبعد أن دق الرصيف مرتين أو ثلاثًا بعصاه، ذهب إلى الباب وطرقه. فُتح الباب فورًا بواسطة شاب حليق بمظهر مُشرق وأذن له بالدخول.

فقال هولمز: شكرًا لك! إنني أودّ أن أسأل عن كيفية الذهاب إلى شارع ستراند من هنا.

فأجاب المساعد على الفور: ثالث يمين، ثم رابع يسار.

ثم أغلق الباب، فعقّب هولمز ونحن نبتعد: شخص ذكي! إنه -طبقًا لحكمي- رابع أذكى شخص في لندن، وربما أتجرأ بالقول بأنني لست واثقًا إذا كان الأحق بالمركز الثالث، فأنا أعرف عنه من قبل.

قلت: هذا واضح، فمساعد السيد ويلسون له دور كبير في لغز جماعة ذوي الشعر الأحمر. وأنا متأكد أنك قد قطعت الطريق فقط كي تراه.

– ليس هو.

– ماذا أردت أن ترى إذن؟

– ركبتي سرواله.

– وماذا رأيت؟

– ما توقعت أن أراه.

– ولماذا طرقت على الرصيف؟

– عزيزي الدكتور، هذا وقت الملاحظات لا الكلام. فنحن جاسوسان في أرض العدو، ونعرف شيئًا عن ميدان كوبرج، فلنستكشف الأجزاء التي تقع خلفه.

عندما انعطفنا عند زاوية ميدان كوبرج، وجدنا أنفسنا في شارع على النقيض من الميدان، مثل التباين الواضح بين وجه الصورة وظهرها. فلقد كان واحدًا من الشوارع الرئيسة لنقل حركة مرور المدينة إلى الشمال والغرب. كان الطريق مسدودًا بسيل من السيارات المتدفق في تيّارين متقابلين للداخل والخارج، في حين اكتسى ممرّ المشاة بحشد هائل من المشاة المُسرعين. ولقد كان من الصعب حين نظرنا إلى هذه المتاجر الراقية ومباني العمل المهيبة أن نستوعب أنها تقابل على الجانب الآخر ذلك الميدان الباهت والراكد الذي تركناه للتوّ.

قال هولمز وهو يقف عند الزاوية ناظرًا إلى صف المباني: دعني أرى، فأنا أرغب في تذكّر ترتيب المنازل الموجودة هنا. فمن هواياتي أن أعرف لندن بشكل جيد للغاية. ها هو مورتيمر بائع التبغ، ومتجر الجرائد الصغير، وفرع كوبرج لمصرف (المدينة والضواحي)، والمطعم النباتي، ومستودع ماكفيرلين لتصنيع العربات. ويقودنا هذا إلى مجمع الأبنية التالي مباشرة. والآن يا دكتور، لقد انتهى عملنا، وحان وقت المتعة. شطيرة وقدح من القهوة، ثم ننطلق إلى أرض الكمان حيث تكمن العذوبة والرقة والانسجام، وحيث لا يوجد عملاء ذوو شعر أحمر يضايقوننا بألغازهم.

كان صديقي شيرلوك موسيقيًّا متحمسًا، فهو لم يكن عازفًا قديرًا فقط، بل كان مؤلفًا موسيقيًّا لا يُستهان به كذلك. جلس طوال فترة بعد الظهر في المقعد الأمامي للمسرح سعيدًا، وأخذ يلوح بأصابعه النحيلة والطويلة في تناغم مع الموسيقى، بينما غمرت وجهه ابتسامة رقيقة، وبدت عينان لرجلٍ حالم على خلاف عيني هولمز الذي يسعى طوال الوقت خلف المجرمين، هولمز القاسي، حاد الحواس، والمُحقق الجنائي المتأهب دائمًا. ففي شخصيته الفريدة فرضت طبيعته المزدوجة نفسها بالتناوب، حيث تمثل دقّته المتناهية وذكاؤه -كما اعتقدت دائمًا- ردّ فعل لطبيعته الشاعرية ونزعته التأملية، واللتين تسيطران عليه من حين إلى آخر، حيث ينقله هذا التباين الموجود في طبيعته من حالة الكسل الشديد إلى حالة من النشاط المستبدّ، كما أعرف أيضًا أنه لا يكون مهتاجًا بالفعل إلا بعد أن يسترخي لأيام في كرسيه المريح غارقًا بين أعماله المرتجلة، وعندها تتملكه فجأة رغبة في المطاردة، وترتفع قدراته التحليلية الاستثنائية إلى حد الاستبصار، حتى يظن من لا يعرف أساليبه كما لو أنه يمتلك قدرات غير بشرية. ولذلك عندما رأيته منسجمًا مع الموسيقى بعد ظهر ذلك اليوم في قاعة سانت جاميس، عرفت أن في انتظار من يسعى خلفهم وقتًا عصيبًا.

قال هولمز عندما خرجنا: لا بدّ أنك تودّ الذهاب إلى المنزل يا دكتور.

– أجل، سيكون ذلك جيدًا.

– وأنا لدي عمل قد يستغرق عدة ساعات. فقضية ميدان كوبرج خطيرة.

– ولماذا تُعد قضية خطيرة؟

– هناك من يضع خطة لقضية كبيرة، ولديّ أسباب قوية تدفعني إلى الاعتقاد بأننا سنصل في الوقت المناسب لمنعها، ولكن كون اليوم هو السبت، فإن هذا يُعقّد الأمور قليلًا. سأحتاج مساعدتك الليلة.

– في أي وقت؟

– الساعة العاشرة ستكون مناسبة جدًّا.

– سأكون في شارع بيكر في العاشرة.

– حسنًا، وأودّ أن أقول يا دكتور إن الأمر قد يكون خطيرًا بعض الشيء، لذا أرجو أن تحضر مسدسك معك.

قالها ثم لوّح بيديه واستدار على عقبيه، واختفى وسط الزحام على الفور.

أعلم أنني لست غبيًّا مقارنة بأقراني، لكن دائمًا ما ينتابني شعور بالحزن لإحساسي بالغباء عندما أتعامل مع شيرلوك هولمز. فها أنا قد سمعت ما سمعه، ورأيت ما قد رآه، ومع ذلك فقد كان واضحًا من كلامه أنه قد عرف ليس فقط ما حدث، بل ما هو على وشك الحدوث أيضًا، بينما ما زالت القضية بأكملها محيّرة وغريبة بالنسبة لي. وأثناء عودتي للمنزل، فكرت في الأمر مليًّا منذ البداية المُميزة لناسخ الموسوعة البريطانية وحتى زيارتنا إلى ميدان كوبرج، والكلمات المُنذرة التي قالها هولمز. فما هذه الزيارة الاستكشافية؟ ولماذا يجب أن آتي مُسلَّحًا وأين سنذهب؟ وماذا سنفعل؟ لقد شعرت من تلميحات هولمز أن مساعد سمسار الرهانات ذا الوجه الناعم هو رجل مرعب، رجل قد يلعب لعبة خطيرة. حاولت حل اللغز، ولكني استسلمت في يأس ونحّيت الأمر جانبًا منتظرًا أن يأتي الليل حاملًا التفسيرات.

كانت الساعة التاسعة وربعًا عندما غادرت المنزل وقطعت طريقي عبر الحديقة، ثم شارع أوكسفورد، حتى وصلت إلى شارع بيكر. وجدت عربتين تنتظران أمام الباب، وعندما دخلت الممر، سمعت أصواتًا آتيةً من أعلى. وعندما دخلت غرفته، وجدت هولمز في محادثة حيوية مع رجلين، تعرّفت على أحدهما وهو بيتر جونز عميل الشرطة، بينما كان الآخر رجلًا طويلًا نحيلًا كئيب الوجه، يرتدي قبّعة رسمية ومعطفًا شديد الأناقة يصل حتى ركبتيه.

قال هولمز وهو يغلق أزرار معطفه الصوف الثقيل، قبل أن يتناول سوط الصيد من فوق الرف: ها! لقد اكتملت الحفلة. أعتقد يا واتسون أنك تعرف السيد جونز من الشرطة البريطانية؟ ودعني أعرّفك بالسيد ميريويذر والذي سيكون رفيقنا في مغامرة الليلة.

فقال جونز بطريقته المتعالية: سيقوم كل زوجين بالمطاردة معًا يا دكتور، فكما ترى صديقنا هذا ماهر في بدء المطاردات، وكل ما يحتاجه هو كلب عجوز ليقوم بملاحقة الفريسة.

عقّب السيد ميريويذر بكآبة: أرجو ألّا تكون الفريسة إوزة صغيرة في النهاية.

فقال عميل الشرطة بتعالٍ: يمكنك أنك تثق في السيد هولمز بشكل كبير يا سيدي، فلديه أساليبه الخاصة، والتي أرى أنها -إذا لم يعترض على وصفي- نظرية ورائعة أكثر من اللازم، لكنه يملك غريزة المحقق. لن يكون من المُبالغة أن نقول إنه في مرة أو مرتين تفوق تقريبًا على الشرطة الرسمية كحادثة قتل سولتو، وكنز الأجرا.

فقال الغريب باحترام: أوه! لو كان هذا رأيك يا سيد جونز، فلا بأس إذن، ومع ذلك فأنا أعترف بأنه سيفوتني لعب الورق. هذه أول ليلة سبت لا ألعب فيها خلال سبعة وعشرين عامًا.

فقال شيرلوك هولمز: أعتقد أنك ستلعب على رهان أعلى من أي رهان قمت به من قبل، وبذلك سيكون اللعب أكثر إثارة. فبالنسبة لك يا سيد ميريويذر سيكون الرهان ثلاثين ألف جنيه تقريبًا، أما بالنسبة لك يا جونز فستراهن بالرجل الذي تريد القبض عليه.

- جون كلاي القاتل واللص ذاك المخرّب والمزوّر. رغم أنه ما زال شابًّا يا سيد ميريويذر، إلا أنه زعيم في مهنته، وأريد القبض عليه أكثر من أي مجرم آخر في لندن. جون كلاي رجل مُميز. فجده كان دوقًا ملكيًّا، أمّا هو فذهب إلى جامعة إيتون، وجامعة أوكسفورد. عقله محتال بنفس درجة براعة أصابعه، وبالرغم من أننا نجد آثاره في كل مكان، إلا أننا لا نستطيع إيجاد الرجل نفسه. فقد يسطو على أحد منازل العاصمة في أسبوع، وتجده في الأسبوع التالي يجمع المال لبناء دار أيتام في كورنويل. أقوم بتتبعه منذ سنوات، ولكني لم أستطع رؤيته حتى الآن.

- أتمنّى أن أتشرف بتعريف أحدكما بالآخر الليلة. فلقد خضت جولة أو اثنتين مع السيد جون كلاي، وأوافق معك أنه زعيم في مهنته بالفعل. لقد تجاوزت العاشرة على أي حال وحان وقت البدء. يمكنكما ركوب العربة الأولى، وسنلحقكما أنا وواتسون في العربة الثانية.

لم يتحدث شيرلوك هولمز كثيرًا طوال فترة الرحلة الطويلة، بل استند برأسه إلى الخلف في العربة وهو يدندن بالألحان التي سمعها بعد الظهر، وسارت العربة وهي تقرقع عبر متاهة لا نهائية من الشوارع المضاءة حتى وصلنا إلى شارع فارنجتون.

علّق صديقي: لقد اقتربنا الآن. إن رفيقنا ميريويذر مدير مصرف، وهو طرف أساسي في القضية، كما رأيت أن نصطحب جونز كذلك، فهو ليس رفيقًا سيئًا، لكنه غبي للغاية في مهنته. لديه مزية واحدة فقط، أنه شجاع ككلب الصيد ويصبح عنيدًا كسرطان البحر إذا أنشبَ مخالبه في أي شخص. ها قد وصلنا، وهما في انتظارنا.

وصلنا إلى نفس الطريق المزدحم الذي وجدنا أنفسنا فيه في الصباح. صرفنا العربتين، واتبعنا إرشادات السيد ميريويذر. تجاوزنا ممرًّا ضيقًا، ثم دخلنا من باب جانبي فتحه لنا. ومن هناك وجدنا ممرًّا آخر صغيرًا، والذي انتهى ببوابة حديدية هائلة. فتح تلك البوابة أيضًا، وقادنا نحو درج حجري دائري، والذي انتهى بدوره عند بوابة أخرى. توقف السيد ميريويذر ليشعل مصباحًا، وبعدها قادنا عبر ممر معتم، حتى وصلنا إلى قبو أو سرداب واسع فيه أكوام من الصناديق والأقفاص الضخمة.

رفع هولمز مصباحه ونظر متفحصًا وقال: لا يمكن اختراقكم من الأعلى بسهولة.

فقال السيد ميريويذر وهو يضرب بعصاه الأرض المُغطاة بالبلاط: ولا من الأسفل.

ثم صرخ متفاجئًا: يا إلهي! لماذا يصدر صوتًا أجوف.

قال هولمز بحزم: من الضروري أن أطلب منك التزام الهدوء! لقد عرّضت نجاح مهمتنا كلها للخطر الآن. وأرجو منك أن تتكرم وتجلس على أحد تلك الصناديق ولا تتدخل.

جلس السيد ميريويذر المهيب على أحد الصناديق وعلى وجهه علامات الضيق الشديد، بينما جثا هولمز على ركبتيه وبدأ يفحص الشقوق بين الأحجار بالمصباح وعدسته المُكبرة. كانت بضع ثوانٍ كافية كي يهبّ واقفًا ويضع العدسة في جيبه قائلًا: أمامنا ساعة على الأقل. فلن يستطيعوا القيام بأي خطوة أخرى حتى ينام سمسار الرهانات الطيب في سريره. وبعدها لن يضيّعوا دقيقة واحدة، فكلما انتهوا من عملهم أسرع، امتلكوا وقتًا أطول للهرب. أمّا الآن يا دكتور، فنحن -كما توقعت أنت بلا شك- في قبو فرع المدينة لأحد المصارف الرئيسة في لندن. السيد ميريويذر هو مدير مجلس الإدارة، وسيشرح لك أسباب اهتمام المجرمين الأكثر جرأة في لندن بهذا القبو في الوقت الحالي.

همس المدير: إنه ذهبنا الفرنسي. ولقد تلقينا عدة تحذيرات بأنه قد يحدث محاولة للاستيلاء عليه.

- ذهبكم الفرنسي؟

- نعم، لقد واتتنا الفرصة منذ بضعة أشهر كي نعزّز مواردنا، فاقترضنا لهذا الغرض ثلاثين ألف قطعة ذهبية فرنسية من بنك فرنسا. وأصبح من المعروف أننا لم نستخدم المال حتى الآن، وأنه لا يزال في قبونا. الصندوق الذي أجلس عليه يحتوي على ألفي قطعة ذهبية فرنسية ملفوفة في أوراق قصدير. إن مخزوننا من الذهب الآن أكثر بكثير من المُعتاد في فرع واحد، ولذلك تخوّف المديرون من هذا الأمر.

عقّب هولمز: بالطبع كان لديهم الحق في تخوفهم. والآن، فلننظم خطتنا البسيطة. أتوقع أنه في خلال ساعة ستصل الأمور إلى ذروتها. في الوقت الحالي يا سيد ميريويذر، يجب علينا أن نطفئ هذا المصباح.

- ونجلس في الظلام؟

- أخشى ذلك. لقد أحضرت مجموعة من ورق اللعب معي، وفكرت أننا قد نتمكن من اللعب كمجموعتين كعادتك في ليلة السبت، لكني أرى أن استعدادات العدو قد وصلت لمرحلة متقدمة جعلت من غير الممكن أن نخاطر بوجود إضاءة. في البداية، يجب أن نحدد مواقعنا، فنحن نتعامل مع رجال شجعان، لذا يجب أن نأخذهم على حين غرّة، قد يؤذوننا إن لم نتوخَّ الحذر. سأقف خلف هذا الصندوق، واختبئوا أنتم خلف تلك الصناديق. وعندما أشعل الضوء لمفاجئتهم، اهجموا عليهم بسرعة. إذا أطلقوا النار يا واتسون، فلا تتردد في إطلاق النار.

وضعت مسدسي على الصندوق الخشبي الذي كنت أختبئ خلفه وجعلته على وضع الاستعداد. أطفأ هولمز مصباحه وتركنا في ظلام دامس. وبقيت رائحة المعدن الساخن تطمئنا بأن الضوء ما زال هنا، وجاهز كي يتم إشعاله في أي لحظة. ومع ترقبي وحدة أعصابي، شعرت بإحباط وكآبة مفاجئة بسبب الهواء البارد والقبو الرطب.

همس هولمز: ليس لديهم سوى مَهرب واحد، وهو العودة عبر المنزل إلى ميدان كوبرج. أرجو أن تكون قد نفّذت ما طلبته منك يا جونز.

- هناك مفتش وضابطان أمام باب المنزل.

– إذن فلقد أغلقنا عليهم كل المنافذ، والآن يجب علينا أن نصمت وننتظر.

يا له من وقتٍ بطيء! وقد عرفت بعدها أن تلك المدّة لم تتعدَّ الساعة وربعًا فقط، إلّا أنني شعرت وكأن الليل قد أوشك على نهايته وأن الفجر أصبح وشيكًا. تعبت وتشنجت أطرافي، حيث إنني خفت من تغيير وضعي. ومع ذلك، فقد كانت أعصابي مشدودة لأقصى حد، وسمعي مرهفًا لدرجة أنني لم أسمع فقط أنفاس مرافقيّ، بل استطعت تمييز صوت التنفس الأثقل والأعمق للسيد جونز الضخم، من صوت التنفس الضعيف المتقطع لمدير البنك. واستطعت من موقعي رؤية الأرضية من فوق الصندوق، وفجأة لمحت عيناي شعاع ضوء.

في البداية لم تكن سوى شرارة على حجر الأرضية، ثم استطالت حتى أصبحت خطًا أصفر، وبعدها ودون أي تحذير أو صوت، انفتح شقّ وظهرت يد.. يد بيضاء غالبًا لامرأة، والتي تحسست منطقة الضوء الصغيرة. ولدقيقة أو اثنتين، ظلت اليد ذات الأصابع الملتوية بارزة من الأرض. وكما ظهرت فجأة، اختفت فجأة، وساد الظلام مرة أخرى فيما عدا الشرارة البرّاقة التي حدّدت الشق بين الأحجار.

ومع ذلك فلم يدم اختفاؤها سوى للحظة، قبل أن نسمع صوت تحطّم وتكسير، ثم انقلب أحد الأحجار البيضاء على جانبه ليترك فتحة مربّعة واسعة دخل من خلالها ضوء مصباح. ثم ظهر وجه طفولي حليق مُميز على الحافة وأخذ ينظر في الغرفة بحماس، ثم استند بيديه إلى جانبي الفتحة، وأخذ يسحب نفسه حتى ظهر كتفاه، ثم خصره، وأخيرًا استند بإحدى ركبتيه إلى الحافة. وفي اللحظة التالية كان واقفًا بجانب الفتحة يساعد رفيقًا له، كان رفيقه رشيقًا وضئيلًا مثله، شاحب الوجه وأحمر الشعر للغاية.

قال هامسًا: المكان خالٍ تمامًا. هل أحضرت الإزميل والحقائب؟ يا إلهي! اقفز يا آرتشي.. اقفز، وسأحاول أن ألحق بك!

كان شيرلوك هولمز قد هبّ واقفًا، وأمسك بالدخيل من ياقته، أما الآخر فقد اختفى في الحفرة. سمعت صوت تمزق قماش حين قبض جونز على طرف ملابسه. لمع ضوء على ماسورة المسدس، لكن سوط هولمز نزل على رسغ الرجل، فسقط المسدس على الأرض الحجرية.

قال هولمز بهدوء: لا فائدة من ذلك يا جون كلاي. ليس لديك أي فرصة على الإطلاق.

أجاب الآخر بأقصى درجة من البرود: هذا ما أراه كذلك، وإن كنت أتوقع أن صديقي بخير بالرغم من أنني أرى أنك حصلت على ذيل معطفه.

فقال هولمز: هناك ثلاثة رجال ينتظرونه عند الباب.

– أوه، حقًّا؟! يبدو أنك قد قمت بكل شيء على أكمل وجه. يجب أن أهنئك.

– وأنا أهنئك أيضًا، ففكرة جماعة ذوي الشعر الأحمر كانت جديدة وفعّالة جدًّا.

قال جونز: سترى صديقك مرة أخرى في الحال، فهو أسرع مني في نزول الحفر. انتظر حتى أعدل قبّعتي.

علّق سجيننا عند تقييد رسغيه بالأطواق المعدنية: أرجو ألّا تلمسني بيديك القذرتين. قد لا تكون مدركًا بأنه يسري في عروقي دم ملكي. أرجو أن تتكرم وتخاطبني دائمًا بـ «سيدي» و«أرجوك».

حملق فيه جونز وضحك ضحكة مكتومة قائلًا: حسنًا، هل تتكرم يا سيدي من فضلك بأن تصعد إلى الطابق العلوي حيث تستطيع سيارة أجرة أن تنقل سموك إلى مركز الشرطة؟

قال جون كلاي بجدية: هذا أفضل. ثم انحنى لثلاثتنا انحناءة سريعة، وسار بهدوء مع مُحقق الشرطة.

قال السيد ميريويذر ونحن نخرج من القبو خلفهما: لا أدري حقًّا يا سيد هولمز كيف يمكن للمصرف أن يشكرك أو يرد جميلك. فلا شك -حسب خبرتي- أنك قد اكتشفت وأحبطت بطريقة مُحكمة واحدة من أكثر محاولات سرقة البنوك جرأة وتخطيطًا.

قال هولمز: كانت هناك نقطة أو اثنتان يجب عليّ تصفيتهما مع السيد جون كلاي، وقد أنفقت تكاليف قليلة على هذه القضية، وأتوقع من المصرف أن يقوم بسدادها، أمّا سوى ذلك، فإن التجربة الفريدة التي حظيت بها تُعتبر مكافأة شخصية، بالإضافة إلى سماعي لقصة جماعة ذوي الشعر الأحمر المثيرة للاهتمام.

شرح لي هولمز في ساعات الصباح الأولى أثناء تناولنا الشراب في شارع بيكر قائلًا: كما ترى يا واتسون، فإنه كان واضحًا تمامًا من البداية أن الغرض الوحيد المُمكن من الإعلان الغريب للجماعة ووظيفة نسخ الموسوعة، هو إبعاد سمسار الرهانات ذي الفكر المحدود عن الطريق لعدّة ساعات كل يوم. ولقد كانت طريقة تنفيذها صعبة، إلا أنه من الصعب اقتراح طريقة أفضل. لا بد أنها خطرت على بال العبقري جون كلاي بسبب لون شعر شريكه. وبهذا كان مبلغ الأربعة جنيهات طُعمًا لجذب السمسار، وماذا يمثّل هذا المبلغ بالنسبة لمن يسعون خلف آلاف الجنيهات. وهكذا كتبوا الإعلان، واستأجر أحد المجرمين مكتبًا مؤقتًا، بينما قام الآخر بحثّ الرجل على التقدم للوظيفة، وتمكّنا معًا من ضمان غيابه كل صباح طوال الأسبوع. ومن اللحظة التي سمعت فيها أن المُساعد قد وافق على نصف الأجر، أصبح من الواضح أن لديه دافعًا قويًّا للحصول على الوظيفة.

- ولكن كيف تمكنت من تخمين الدافع؟

- هناك امرأة في المنزل، لذا توقعت أن يكون هناك نقل لأخباره. أما الشيء المؤكد فهو أن عمل الرجل كان صغيرًا، ولم يكن هناك في المنزل ما يستحق كل تلك التحضيرات المتقنة والتكاليف الهائلة، لذا لا بد أن يكون شيئًا خارج المنزل، لكن ماذا عساه أن يكون؟ فكّرت في شغف المُساعد بالتصوير، وخدعة اختفائه في القبو.. القبو! وهنا كانت نهاية ذلك اللغز المُحيّر. بعدها قمت ببعض التحريات عن ذلك المساعد الغامض، لأكتشف أنني أتعامل مع واحد من أكثر المجرمين جرأة وبرودًا في لندن. كان يقوم بشيء ما في القبو، شيء يستغرق ساعات طويلة كل يوم لمدة أشهر كي ينتهي. مرة أخرى، ماذا عساه أن يكون؟ لم أستطع التفكير في أي شيء سوى أنه يقوم بحفر نفق ليصل إلى مبنى آخر.

هذا كل ما توصلت إليه حتى ذهبنا لزيارة موقع الحدث. ولقد أثرت دهشتك عندما قمت بالنقر على أرضية الرصيف بعصاي. لقد كنت أتحقق ما إذا كان يمتد القبو أمام المنزل أم خلفه، واكتشفت أنه لا

يمتد للأمام. ثم قمت برن الجرس، وكما تمنّيت، فتحه المساعد. وبالرغم من وجود بعض المناوشات السابقة بيننا، إلّا أننا لم نتقابل وجهًا لوجه من قبل، وبالكاد نظرت إلى وجهه، فقد كانت ركبتاه هي ما أردت رؤيتهما. ولا بد أنك لاحظت كم كانتا باليتين ومجعّدتين وملطختين بالبقع. لقد دلّتا على الساعات التي قضاها في الحفر. اللغز الوحيد الذي تبقى ما هو الشيء الذي يحفران لأجله؟ وعندما ذهبت إلى الزاوية ورأيت فرع البنك محاذيًا لمبنى صديقنا، عرفت أنني قد حللت القضية. وهكذا عندما عدت إلى منزلك بعد الحفلة الموسيقية، قمت بزيارة إدارة الشرطة، ورئيس إدارة البنك موضحًا النتيجة التي رأيتها.

فسألت هولمز: وكيف عرفت أنهما سيقومان بالسرقة الليلة؟

– حسنًا، عندما أغلقا مقرّ الجماعة، كان في ذلك إشارة إلى أنهما لا يكترثان بوجود السيد جابز ويلسون بعد الآن، بمعنى آخر، أنهما قد انتهيا من حفر النفق، وكان من المهم أن يستخدما النفق سريعًا خوفًا من أن يتم اكتشافه، أو أن يتم نقل الذهب الفرنسي من مكانه. وقد كان يوم السبت هو الأفضل بين كل الأيام لأنه سيسمح لهما بيومين للهرب قبل أن يُكتشف اختفاء الذهب، ولكل تلك الأسباب توقعت قدومهما الليلة.

صحت بإعجاب صادق: لقد قمت بتحليل الأمر بشكل جميل! إنها سلسلة طويلة جدًّا من الأحداث، ومع ذلك استطعت أن تربط كل حلقة في مكانها الصحيح.

فأجابني وهو يتثاءب: لقد أنقذتني من الملل، ولكن يا للأسف! إنني أشعر به يقترب مرة أخرى. إنني أقضي حياتي في مجهود متواصل كي أهرب من روتين الحياة، وهذه القضايا الصغيرة هي ما يساعدني على فعل ذلك.

فقلت: وكذلك تفيد الناس.

هزّ كتفيه قائلًا: حسنًا، ربما يكون في الأمر بعض الفائدة رغم كل شيء، فكما كتب جوستاف فلوبرت: **الإنسان لا يساوي شيئًا، أمّا أعماله فهي كل شيء.**

لغز وادي بوسكومب

كنت جالسًا مع زوجتي على مائدة الإفطار، عندما أحضرت الخادمة برقية من شيرلوك هولمز، وهذا هو نصها:

«هل يمكنك التفرغ لمدة يومين؟ لقد وصلتني للتو برقية من غرب إنجلترا تتعلق بمأساة وادي بوسكومب. سأكون سعيدًا إذا رافقتني. الهواء هناك نقي، والمناظر خلّابة. سأغادر من محطة بادينجتون في قطار الحادية عشرة والربع».

نظرت زوجتي إليّ وسألتني: ما تنوي يا عزيزي؟ هل ستذهب؟

– لا أدري حقًّا ماذا أفعل، فلديّ قائمة انتظار طويلة من المرضى في الوقت الحالي.

– أوه، سينوب عنك آنستروثر. لقد أُرهِقتَ كثيرًا في الفترة الأخيرة، وأعتقد أن هذا التغيير سيفيدك، إضافة إلى أن قضايا السيد شيرلوك هولمز دومًا تثير اهتمامك.

فأجبتها: نعم، وسيكون من الجحود إن تخلّفت عنه. إذا كنت سأذهب، فيجب عليّ أن أحزم أمتعتي على الفور، فليس أمامي سوى نصف ساعة.

كانت تجربتي في معسكر أفغانستان مفيدة، فقد جعلتني متأهبًا دائمًا للسفر، حيث أصبحت احتياجاتي قليلة وبسيطة. وهكذا انطلقت في أقل من نصف الوقت المذكور في عربة ومعي حقيبتي متجهًا إلى محطة بادينجتون. وجدت شيرلوك هولمز يقطع رصيف المحطة ذهابًا وإيابًا، وقد بدا قوامه النحيف الطويل أكثر نحافة وطولًا تحت معطف السفر الرمادي الطويل، وقبعته القماشية الضيقة.

قال: أنا ممتنّ حقًّا لحضورك يا واتسون. إنه شيء بالغ الأهمية بالنسبة لي أن أجد معي شخصًا أستطيع الاعتماد عليه بشكل كامل. فالمساعدون المحليون دائمًا ما يكونون إما عديمي الفائدة، أو متحيزين. احجز لنا مقعدي الركن، وسأحضر أنا التذاكر.

لم يكن في عربة القطار سوانا نحن الاثنين، وكمّ هائل من الصحف التي فحصها هولمز، لا يقاطع القراءة إلا بلحظات للتأمل وكتابة الملاحظات حتى تجاوزنا ريدنج، ثم قام بلفّ الصحف كلها حتى أصبحت مثل كرة ضخمة، وألقاها على الرفّ.

سألني: هل سمعت أي شيء عن القضية؟

– لا شيء على الإطلاق، فأنا لم أقرأ الصحف منذ أيام.

– لم تقدّم صحف لندن تغطية كاملة على أية حال. لقد قرأت الآن كل الصحف التي صدرت حديثًا كي أتمكن من دراسة التفصيلات. ويبدو –مما فهمت– أنها واحدة من تلك القضايا البسيطة والصعبة جدًّا.

– هناك تناقض في هذه الجملة».

– ولكنها صادقة بشكل دقيق. التميز دليل في حد ذاته، بينما كلما كانت الجريمة عادية وبدون معالم مميزة، ازدادت صعوبة حلها. وفي هذه القضية وجدوا أدلّة قوية جدًّا ضد ابن القتيل.

– إنها جريمة قتل إذن؟

– حسنًا، من المُرجح أنها كذلك، ولكنني لن آخذ شيئًا كأمر مُسلَّم به حتى تُتاح لي فرصة بحث الأمر بنفسي. سأشرح لك القضية –على قدر فهمي لها– في كلمات قليلة.

وادي بوسكومب مقاطعة ريفية تقع في هيرفوردشاير بالقرب من روس. وأكبر قطعة أرض هناك يملكها السيد جون تيرنر، الذي جمعَ ثروته في أستراليا، ثم عاد إلى بلده منذ عدة سنوات. وقد أُجِّرت إحدى المزارع التي يمتلكها –مزرعة هاثرلي– إلى السيد تشارلز مكارثي الذي عاد من أستراليا كذلك. ولقد تعرّف الرجلان على بعضهما بعضًا هناك في المستعمرات، ولذلك لم يكن أمرًا غريبًا أنهما يختاران الإقامة متقاربين قدر المستطاع عند استقرارهما. تيرنر كان هو الأغنى بينهما، لذا أصبح مكارثي مستأجرًا، وإن تعاملا فيما بينهما –على ما يبدو– بالتساوي، حيث كانا يقضيان معًا الكثير من الوقت. وكان لمكارثي ابن وحيد في الثامنة عشرة من عمره، ولتيرنر ابنة وحيدة في نفس العمر، ولم تكن زوجة أي منهما على قيد الحياة. ويبدو أنهما قد تجنبا الاختلاط بجيرانهما من العائلات الإنجليزية، وعاشا حياة منعزلة، رغم أن كلًّا من مكارثي وابنه كانا مولعين بالرياضة، وقد شوهدا مرارًا في السباقات التي تُقام في الجوار. وقد أبقى مكارثي على خادمين، رجل وفتاة، بينما كان لتيرنر عدد كبير من الخدم، نصف دستة على الأقل.

تلك هي كل المعلومات التي استطعت جمعها عن العائلتين، والآن فلننظر إلى الحقائق: في الثالث من شهر يوليو الموافق يوم الاثنين الماضي غادر مكارثي منزله في هاثرلي في الساعة الثالثة عصرًا تقريبًا، وتمشّى نحو بحيرة بوسكومب –وهي بحيرة صغيرة تكوّنت من فيضان النهر الذي يجري في وادي بوسكومب– وكان معه خادمه في صباح ذلك اليوم في روس، وقد طلبَ منه أن يسرع لأن لديه موعدًا مهمًّا في الساعة الثالثة، وهو الموعد الذي لم يعد منه أبدًا.

المسافة بين المنزل في مزرعة هاثرلي وبحيرة بوسكومب ربع ميل، وقد شاهده شخصان عندما خرج من أرضه؛ امرأة عجوز لم يُذكر اسمها، وويليام كراودر، وهو حارس يعمل عند السيد تيرنر. وقد شهد الاثنان بأن السيد مكارثي كان يسير وحيدًا. وقد أضاف الحارس أن بعدها بدقائق رأى ابنه السيد جاميس مكارثي يغادر في نفس الاتجاه حاملًا بندقية تحت إبطه. وأغلب ظنه أن الأب كان لا يزال مرئيًّا، وأن الابن كان يتبعه، ولم يهتم الحارس بالأمر حتى سمع في المساء بالمأساة التي حدثت.

ولقد شوهد الأب وابنه مرة أخرى بعد آخر مرة رآهما فيها الحارس. فبحيرة بوسكومب مُحاطة بغابة كثيفة الأشجار، وغابٍ طويل على حافتها. ولقد رأتهما فتاة في الرابعة عشرة –بيشنس موران– وهي ابنة حارس منتجع وادي بوسكومب، كانت تقطف الورود حينها من الغابة. وقد قالت الفتاة إنها رأت السيد مكارثي وابنه على أطراف الغابة بالقرب من البحيرة، وقد بدا عليهما أنهما يخوضان نقاشًا عنيفًا، وسمعت السيد مكارثي يوجّه إلى ابنه كلمات شديدة القسوة، ورأت الابن يرفع يده في الهواء كأنه سيضرب أباه، فانتابها الرعب من ذلك المشهد، وجرت هاربة إلى المنزل، وأخبرت أمها أنها رأت السيد مكارثي وابنه يتشاجران بالقرب من بحيرة بوسكومب وأنها تخشى أن يتعاركا.

ثم لم تكد الفتاة تنتهي من قصتها حتى جاءهم السيد مكارثي الابن يجري باتجاه الكوخ يقول إنه قد وجد أباه ميتًا في الغابة، ويطلب مساعدة الحارس. وقد كان مهتاجًا للغاية، وليس معه بندقيته ولا

قبعته، ولوحظ أن يده اليمنى وكمّه كانا مُلطخين بدماء حديثة. حين لحقوا به وجدوا الجثة ممدَّدة على العشب بجوار البحيرة، وقد تهشمت جمجمة القتيل بضربات متكررة بسلاح ثقيل غير حاد. وأن من الممكن جدًّا لمثل هذه الجروح أن يكون سببها مؤخرة بندقية الابن، والتي عُثر عليها ملقاة فوق العشب على بُعد خطوات من الجثة. وتحت تلك الملابسات قُبِض على الابن، ووُجِّهت إليه جريمة القتل العمد في التحقيق الذي أُجري يوم الثلاثاء، وعُرض يوم الأربعاء على هيئة المُحلّفين في روس، لكنهم أجّلوا البتّ في القضية إلى الجلسة التالية. هذه هي الحقائق الرئيسة في القضية كما عُرِضت على القاضي والشرطة».

علّقت قائلًا: لا يمكنني تصور قضية مُحكمة أكثر من هذه، فكل الأدلة تشير إلى المجرم كما لم يحدث في قضية أخرى من قبل.

أجاب هولمز وهو غارق في التفكير: الأدلة الظرفية مُخادعة، فقد يبدو أنها تشير إلى شيء ما بشكل مباشر، لكن إذا نظرت من زاوية مختلفة قليلًا، فقد تجد أنها تشير بنفس القدر إلى شيء مختلف تمامًا. وبالرغم من ذلك يجب الاعتراف بأن الأدلة ضد الشاب قوية جدًّا، وقد يكون هو المجرم بالفعل. وبالرغم من ذلك، فإن هناك العديد من الجيران، ومنهم الآنسة تيرنر ابنة مالك الأرض، يظنون أنه بريء وطلبوا من ليستراد -الذي قد تتذكره من قضية دراسة في اللون القرمزي- أن يعمل على هذه القضية. وعندما شعر ليستراد بالحيرة، أحال القضية إليّ، ولهذا السبب ينطلق سيدان في منتصف العمر باتجاه الغرب بسرعة خمسين ميلًا في الساعة بدلًا من أن يتناولا الإفطار في المنزل.

فقلت: أخشى أن الحقيقة واضحة للغاية، ولن يكون لك فضل كبير في حل تلك القضية.

فأجاب ضاحكًا: لا يوجد شيء أكثر خداعًا من الحقيقة الواضحة، أضف إلى ذلك أننا قد نصادف بعض الحقائق الواضحة الأخرى، والتي قد لا تبدو ذات أهمية للسيد ليستراد. أنت تعرفني بما يكفي كي تُدرك أنني لا أتفاخر حين أقول إنني سأدحض أو أثبت نظريته بطرق لا يستطيع هو استخدامها أو فهمها حتى. ولأعطيك مثالًا، فأنا أتوقع أن نافذة حمام غرفة نومك على الجانب الأيمن، ولكنني أشك أن السيد ليستراد لاحظ مثل ذلك الأمر البدَهي.

- كيف بحق الـ..؟

- يا صديقي العزيز أنا أعرفك جيدًا، وأعرف ما تتميز به شخصيتك العسكرية من دقة. فأنت تحلق ذقنك كل صباح، وفي هذا الوقت من السنة يمكنك أن تحلق معتمدًا على ضوء الشمس. وبما إن حلاقتك تصبح أقل إتقانًا كلما اتجهنا إلى الجانب الأيسر، حتى تصبح رديئة عند زاوية الفك، فإنه من المؤكد أن هذا الجانب مُعرض لإضاءة أقل من الآخر. فلا يمكنني تصوّر أن رجل مثلك سينظر إلى نفسه في إضاءة جيدة ويرضى بتلك النتيجة. أنا أقول ذلك كمثال تافه على دقة الملاحظة والاستنتاج، فهما مجال تخصصي، لذا يمكنني أن أخدم التحقيق الموجود أمامنا، فهناك نقطة أو نقطتان ثانويتان ظهرتا في التحقيق، وتستحقان الاهتمام.

- وما هما؟

- يبدو أنه لم يُقبَض على الابن على الفور، بل قبضوا عليه بعد أن عاد إلى مزرعة هاثرلي. وعندما أخبره المفتش أنه رهن الاعتقال، علّق قائلًا بأنه ليس مندهشًا، وأنه يستحق ذلك. وقد كان لذلك التعليق

أثر كبير في إزالة أي شك من عقول هيئة المحلفين.

صحت قائلًا: لقد كان اعترافًا منه.

- لا، فقد أصرّ على البراءة بعد ذلك.

- لكن عندما يأتي ذلك التعليق بعد كل تلك الأحداث الدامغة، فلا بد أنه سيكون تعليقًا مثيرًا للريبة الشديدة.

قال هولمز: بالعكس، فذلك التعليق في الوقت الحالي هو أكثر الشقوق -التي أستطيع رؤيتها- إشراقًا بين كل تلك الغيوم. فبالرغم من احتمالية أن يكون بريئًا، فإنه لا يمكن أن يكون في غاية البلاهة بحيث لا يستطيع أن يرى أن الملابسات كانت ضده بشكل خطير. فلو بدت عليه الدهشة عند القبض عليه، أو حتى أظهر اعتراضه على ذلك، لاعتبرت ذلك موقفًا مثيرًا للشك، لأنه لن يكون طبيعيًّا إظهار الدهشة أو الغضب في ظل تلك الظروف، وبالرغم من ذلك قد يكون ذلك كله خطة يقوم بها رجل مخادع، فتقبله للموقف يجعله شخصًا من اثنين؛ إما رجل بريء، أو رجل يملك قدر كبير من ضبط النفس والصلابة. أما بخصوص تعليقه بأنه يستحق ذلك، فلم يكن تعليقًا غريبًا كذلك إذا أخذنا في الاعتبار أنه وقف بجوار جثة أبيه، وأنه بلا شك قد تغافل ذلك اليوم عن واجب الابن تجاه أبيه، حيث تبادل معه كلمات قاسية، حتى إنه -طبقًا لكلام الفتاة الصغيرة، والتي تُعتبر شهادة في غاية الأهمية- رفع يده كما لو كان سيضربه. يتراءى لي أن الشعور بالذنب والندم في تعليقه يدلّان على عقل سليم، وليس على عقل مذنب.

هززت رأسي قائلًا: لقد شُنق العديد من الرجال لأسباب أضعف من ذلك.

- هذا صحيح، كما شُنق العديد من الرجال ظلمًا.

- وما أقوال الشاب في ذلك الشأن؟

- أخشى أنها ليست مُشجعة لمن يساندونه، لكن بها نقطة أو اثنتين ذات دلالات. ستجدها هنا، ويمكنك أن تقرأها بنفسك.

التقط من حزمته نسخة من صحيفة هيرفوردشاير المحلية، وبعد أن قلب الصفحة، أشار إلى فقرة أدلى فيها الشاب التعيس بأقواله بخصوص ما حدث. جلست في ركن العربة، وقرأتها بعناية شديدة. وهذا هو نص المقال:

> **«أدلى السيد جايمس مكارثي -الابن الوحيد للمتوفَّى- بشهادة قال فيها: لقد كنت بعيدًا عن المنزل في بريستول لمدة ثلاثة أيام، ولقد عدت في صباح الاثنين الماضي فقط، والذي يوافق اليوم الثالث من الشهر. ولقد كان والدي غائبًا عن المنزل وقت وصولي، وأخبرتني الخادمة أنه قد ذهب إلى روس مع الخادم جون كوب. وبعد عودتي بوقت قصير، سمعت صوت صرير عجلات عربته في الفناء، فنظرت من النافذة لأجده يترجل من العربة، ويسرع مغادرًا الفناء، لكن لم أعرف في أي اتجاه ذهب. أخذت بعدها بندقيتي وذهبت إلى بحيرة بوسكومب بنية صيد الأرانب الموجودة على الجانب الآخر. وفي طريقي رأيت ويليام كرودير حارس المنتجع كما قال في شهادته، لكنه أخطأ في الاعتقاد بأنني أتبع والدي، فأنا لم أكن**

أعرف أنه أمامي. وعندما أصبحت على بُعد مئة خطوة من البحيرة، سمعت صيحة (كوي) وهي إشارة معتادة بيني وبين أبي، فأسرعت إلى الأمام ووجدته واقفًا على البحيرة. بدا أنه مندهشًا لرؤيتي، وسألني بقسوة عمّا أفعله هناك، ودارت بيننا محادثة أدت إلى ارتفاع أصواتنا، وكادت أن تصل إلى حد اللكمات، فلقد كان والدي حادّ الطباع، وحين رأيت أن انفعاله قد خرج عن السيطرة، تركته وعدت باتجاه مزرعة هاثرلي. ولم أكن قد ابتعدت أكثر من 150 خطوة عندما سمعت خلفي صيحة عالية بشعة، ما جعلني أعود جريًا مرة أخرى. فوجدت أبي يحتضر، ورأسه مجروح بشكل رهيب، فألقيت بندقيتي وحملته بين ذراعيّ، لكنه مات على الفور. ركعت إلى جواره لبضع دقائق، ثم ذهبت إلى حارس منتجع السيد تيرنر، حيث كان أقرب منزل يمكنني طلب المساعدة منه. لم أرَ أحدًا بالقرب من أبي عندما عدت، ولا أعرف كيف أصيب بتلك الإصابة. وبالرغم من أنه لم يكن محبوبًا بسبب طباعه الباردة المنفّرة، لكن -حسبما أعرف- لم يكن له أعداء. ولا أعرف أي شيء آخر عن الأمر.

القاضي: هل قال لك والدك أي شيء قبل أن يموت؟

الابن: لقد غمغم بكلمات قليلة، لكني لم ألتقط سوى إشارة إلى كلمة (رات).

القاضي: وماذا فهمت من تلك الكلمة؟

الابن: لم أفهم أي شيء، وظننت أنه يهذي.

القاضي: ما سبب الشجار الأخير بينكما؟

الابن: أفضّل ألّا أجيب عن هذا السؤال.

القاضي: أخشى أنني مضطر إلى الإصرار عليه.

الابن: من المستحيل بالنسبة لي أن أخبرك. يمكنني أن أؤكد لك أن الأمر لا علاقة له على الإطلاق بالمأساة التي لحقت به.

القاضي: المحكمة هي من تقرر ذلك، وأظن أنه لا داعي بأن أذكّرك بأن رفضك الإجابة سيضرّ بموقفك المستقبلي في القضية بشكل كبير.

الابن: ما زلت أرفض الإجابة.

القاضي: لقد فهمت من شهادتك بأن صيحة (كوي) كانت إشارة مُتعارفًا عليها بينك وبين والدك.

الابن: هذا صحيح.

القاضي: فكيف حدث إذن أنه أطلق تلك الصيحة قبل أن يراك، بل قبل أن يعرف أنك قد عدت من بريستول من الأساس؟

الابن (بارتباك كبير): لا أعرف.

أحد المحلفين: ألم تر ما يثير ريبتك عندما عدت بعد أن سمعت الصرخة لتجد أبيك قد أُصيب إصابة قاتلة؟

الابن: لم أرَ شيئًا محددًا.

القاضي: ماذا تقصد؟

الابن: لقد كنت في غاية الاضطراب والانفعال عندما ركضت ناحية البحيرة، ولم أستطع التفكير سوى بأبي، لكن انتابني شعور غامض عندما كنت أجري إلى الأمام بأن هناك شيئًا على الأرض في الناحية اليسرى، شيئًا رماديًّا حسبما أعتقد، شالًا أو معطفًا أو ما شابه. وعندما نهضت عن والدي، بحثت عنه لكني لم أجده.

- هل تقصد أنه اختفى قبل أن تذهب لطلب المساعدة؟

- نعم، كان قد اختفى.

- ألا تستطيع أن تحدد ما هو؟

- لا، لكني شعرت بأن شيءًا كان هناك.

- كم كان يبعد عن الجثة؟

- اثنتا عشرة خطوة تقريبًا.

- وكم كان يبعد عن طرف الغابة؟

- نفس المسافة تقريبًا.

- إذن، فقد أخذه أحدهم بينما كنت على بُعد اثنتي عشرة خطوة؟

- نعم، لكن من خلفي.

وبهذا انتهى استجواب الشاهد».

قلت وأنا أنظر إلى المقال: أرى أن القاضي كان قاسيًا بعض الشيء على مكارثي الابن في تعليقه الختامي. فهو يلفت النظر -وهو محق في ذلك- إلى التناقض في إطلاق والده صيحة إشارة له قبل أن يراه، بالإضافة إلى رفض الشاب الإفصاح عن تفصيلات محادثته مع والده، ناهيكَ بغرابة ما قاله عن كلام والده قبل موته. فكل تلك الأشياء -كما قال- تشكل دليلًا ضد الشاب.

ضحك هولمز بصوت منخفض، متمددًا على المقعد وقال: لقد بذلت أنت والقاضي مجهودًا كبيرًا في توضيح أقوى النقاط التي أراها أنا في مصلحة الشاب. ألا ترى أنكما تقرّان بأنه صاحب مخيلة واسعة، وأن خياله منعدم في نفس الوقت؟ فقد انعدم خياله عندما لم يستطع تأليف أي سبب للشجار، والذي كان ليكسبه تعاطف هيئة المحلفين، وخياله واسع إذ استطاع أن يأتي بشيء بمثل غرابة ذكر القتيل كلمة (رات)، وكذلك قصة قطعة الملابس المختفية. لا يا سيدي، سأدرس هذه القضية من وجهة نظر تفترض أن كلام الشاب حقيقي، وسنرى إلى أين يقودنا ذلك. هذا كل ما لديّ، والآن لن أزيد كلمة أخرى

على هذه القضية حتى نصل إلى موقع الجريمة. سنتناول غداءنا في سويندن، أظن أننا سنصل إليها في غضون عشرين دقيقة.

كانت الساعة تقترب من الرابعة، حين وصلنا أخيرًا إلى مدينة روس الريفية الجميلة بعد أن قطعنا وادي ستراود الأخّاذ، ومررنا فوق نهر سيفرن الواسع المتلألئ. وجدنا رجلًا نحيلًا متحفزًا يبدو عليه المكر والخبث في انتظارنا على رصيف المحطة، ورغم معطفه البني الثقيل، والسروال الجلدي الذي ارتداه ليتماشى مع البيئة الريفية المُحيطة، فإنني لم أجد صعوبة في التعرف على مفتش الشرطة ليستراد. ركبنا معه العربة إلى فندق هيرفورد أرمز، حيث كانت هناك غرفة محجوزة لنا بالفعل.

وأثناء تناولنا الشاي، قال ليستراد: لقد طلبت عربة، فأنا أعرف طبيعتك النشطة، وأنك لن ترتاح قبل أن تزور موقع الجريمة.

فأجابه هولمز: هذا لطف شديد منك، ولكن الأمر يعتمد بشكل كامل على الضغط الجوي.

حملق ليستراد وقال مستغربًا: لا أفهم قصدك!

– إلام يشير المقياس؟ إلى تسع وعشرين درجة، كما أنه لا توجد رياح أو سحب في السماء كما أرى. بالإضافة إلى أن لدي هنا عُلبة ممتلئة بالسجائر التي يجب أن أدخنها، كما أن الأريكة هنا أفضل بكثير من الأرائك المعتادة في الفنادق الريفية. لذلك لا أعتقد أني سأحتاج الليلة للعربة.

ضحك ليستراد قائلًا: لا شك أنك قد كوّنت استنتاجك بالفعل من الجرائد. فالقضية واضحة وضوح الشمس، وكلما تعمق المرء فيها، ازدادت وضوحًا. ومع ذلك، لا يمكنك أن ترفض طلب سيدة بالطبع، خاصة إن كانت بذلك الإصرار. لقد سمِعَت عنك، وأرادت أن تسمع رأيك، رغم أني أخبرتها مرارًا بأنك لن تقدم شيئًا جديدًا لم أقم به بالفعل. ما هذا بحق السماء؟ ها هي عربتها على الباب.

لم يكد ينهي كلامه حتى اندفعت إلى الغرفة واحدة من أجمل الشابات اللاتي رأيتهن في حياتي. عيناها البنفسجيتان لامعتان، وشفتاها متباعدتان قليلًا، وخداها متوهجان بحمرة وردية، وقد فقدت تحفظها نتيجة لانفعالها وقلقها القهري.

صاحت: أوه، السيد شيرلوك هولمز!

ثم راحت تنقل بصرها من أحدنا إلى الآخر حتى ثبتت عينيها على رفيقي بإحساس المرأة السريع، وقالت: أنا سعيدة للغاية بقدومك. لقد جئت لأخبرك بذلك، فأنا أعرف أن جاميس لم يرتكب تلك الجريمة. أنا متيقنة من ذلك، وأريدك أن تبدأ عملك وأنت متيقن من ذلك أيضًا. لا تدع الشك يساورك بخصوص هذا الأمر. لقد عرفنا بعضنا بعضًا منذ أن كنا أطفالًا، وأعرف عيوبه أكثر من أي شخص آخر، لكنه أطيب من أن يؤذي ذبابة، والادعاء بأنه قد ارتكب تلك الجريمة أمر سخيف بالنسبة لأي شخص يعرفه حق المعرفة.

قال شيرلوك هولمز: أتمنى أن نستطيع تبرئته يا آنسة تيرنر، ويمكنك أن تتأكدي بأنني سوف أبذل قصارى جهدي لتحقيق ذلك.

– مؤكد أنك قد قرأت الأدلة، فهل كوّنت رأيًا بخصوصه؟ ألا ترى المشكلة؟ هل تظن أنت نفسك أنه بريء؟

– أعتقد أن هذا محتمل جدًّا.

صاحت قائلة: أخيرًا، الآن!

ثم رجعت برأسها إلى الخلف لتنظر إلى ليتسراد بتحدٍّ قائلة: هل سمعت ذلك؟ إنه يعطيني الأمل.

هزّ ليستراد كتفيه قائلًا: أخشى أن يكون زميلي قد تسرّع قليلًا في تكوين رأيه.

– لكنه على حق. أوه! أعلم أنه على حق. جايمس لم يرتكب تلك الجريمة قط. أمّا بشأن شجاره مع أبيه، فأنا متأكدة أن سبب رفضه التحدث في الأمر مع القاضي؛ لأن ذلك الأمر يتعلق بي.

سألها هولمز: وكيف ذلك؟

– لا يوجد وقت لإخفاء أي شيء. لقد حدثت بين جاميس ووالده خلافات عديدة بسببي، حيث كان يلحّ السيد مكارثي بشدة على زواجي بابنه، بينما أنا وجاميس نحب بعضنا بعضًا لكن كأخ وأخت، وهو بالطبع ما زال صغيرًا ولم ير من الحياة إلا القليل جدًّا، ولذلك.. حسنًا، ولذلك فهو لم يوافق على القيام بأمر كهذا في الوقت الحاضر، ولذلك حدثت المشاجرات بينهما، ولقد كانت هذه –بالتأكيد– واحدة منها.

سألها هولمز: وماذا عن والدك؟ هل كان مؤيدًا لذلك الزواج؟

– لا، لقد عارضه بشدة كذلك. لم يكن يؤيد الزواج أحد سوى السيد مكارثي.

رمقها هولمز بنظرة ثاقبة بعد جملتها الأخيرة، جعلت وجهها الشاب يتضرج بحمرة الخجل.

فقال: شكرًا لكِ على هذه المعلومة. هل يمكنني زيارة والدك غدًا؟

– أخشى أن الطبيب لن يسمح بذلك.

– الطبيب؟

– نعم، ألا تعرف ذلك؟ إن أبي المسكين لم يكن بصحة جيدة في السنوات الماضية، لكن ما حدث للسيد مكارثي دمره تمامًا، فلزم الفراش. ويقول الدكتور ويلوس إن حالته خطيرة، حيث تضرر جهازه العصبي. لقد كان السيد مكارثي هو الشخص الحي الوحيد الذي يعرف أبي منذ أيام فكتوريا.

– ها! فكتوريا؟ هذا مهم.

– نعم، في المناجم.

– جيد جدًّا، في مناجم الذهب حيث كوّن السيد تيرنر ثروته حسبما فهمت.

– نعم، بالضبط.

– شكرًا لكِ يا آنسة تيرنر. لقد ساعدتني بشكل كبير.

– دعني أعرف إذا كان هناك أي أخبار جديدة غدًا. لا شك أنك ستذهب إلى السجن لترى جاميس. أوه، إذا فعلت ذلك يا سيد هولمز، أخبره بأنني واثقة من براءته.

– سأفعل يا آنسة تيرنر.

– يجب أن أعود إلى المنزل الآن؛ لأن أبي مريض للغاية، وهو يفتقدني بشدة حينما أتركه. إلى اللقاء، وليعنك الله على مهمتك.

قالت ذلك وغادرت الغرفة بنفس الاندفاع الذي دخلت به، ثم سمعنا صرير عجلات عربتها وهي تبتعد في الشارع. مضت دقائق من الصمت قبل أن يقطعه ليستراد ليتحدث بكبرياء: أنا أشعر بالخزي منك يا هولمز. لماذا تحيي لديها أملًا تعلم أنه لا مناص من إحباطه فيما بعد؟ أنا لست رقيق القلب، لكن هذه قسوة حتى بالنسبة لي.

قال هولمز: أظن أنني عرفت كيف سأبرئ جايمس مكارثي. هل معك إذن بزيارته في السجن؟

– نعم، لكن لك ولي فقط.

– سأعيد إذن التفكير في قراري بعدم الخروج. هل لدينا وقت كافٍ الليلة للذهاب بالقطار إلى هيرفورد لرؤيته؟

– يكفي ويزيد.

– فلنقم بذلك إذن. أخشى يا واتسون أن الوقت سيمرّ عليك ببطء شديد، لكني سأغيب ساعتين فقط.

رافقتهما إلى المحطة، وبعدها تجولت في شوارع المدينة الصغيرة، وأخيرًا عدت إلى الفندق حيث استلقيت على الأريكة، حاولت أن أشغل نفسي برواية رخيصة، لكن حبكتها الدرامية كانت ضعيفة للغاية إذا ما قورنت باللغز المُعقد الذي نكافح لحله، ووجدت ذهني يشرد باستمرار من الرواية إلى الحقيقة، حتى رميت بالرواية إلى نهاية الغرفة، واستسلمت كليًّا للتفكير في أحداث اليوم. بافتراض أن قصة هذا الشاب التعيس صحيحة بالكامل، فما الحدث الملعون غير المتوقع الذي يمكن أن يقع في الفترة بين اللحظة التي ترك فيها الشاب والده، وبين اللحظة التي عاد راكضًا إلى البحيرة بسبب صرخته؟ لقد كان شيئًا رهيبًا ومميتًا. ماذا يمكن أن يكون؟ ألا تستطيع غريزتي الطبية أن تكشف لي شيئًا من طبيعة الجروح؟

ضربت الجرس، وطلبت صحيفة المقاطعة الأسبوعية التي تحتوي على النصّ الحرفي للتحقيق. قرر الجرّاح في شهادته أن الثلث الخلفي من عظم الجمجمة الأيسر، والنصف الأيسر من عظمة مؤخرة العنق قد تهشّما من ضربة قوية بسلاح غير مُدبب. حدّدت تلك المنطقة على رأسي بيدي، فكان من الواضح أن مثل هذه الضربة لا بد وأن تكون قد جاءت من الخلف، وهذا شيء في صالح المتّهم إلى حد ما، وذلك لأنه عندما شوهد وهو يتشاجر مع والده، كان يقف أمامه وجهًا لوجه. ومع ذلك، فإن ذلك ليس دليلًا قويًّا، فمن الممكن أن والده قد أدار ظهره قبل أن يتم ضربه. ومع ذلك، قد يستحق الأمر لفت نظر هولمز إليه.

وبعد ذلك تأتي كلمات المتوفى الأخيرة عندما قال «رات»، فما معنى ذلك؟ لا يمكن أن يكون ذلك هذيانًا، فليس من المعتاد أن يهذي شخص يموت بسبب ضربة مفاجئة، لا، إنها محاولة لشرح سبب قتله على الأرجح. لكن إلام تشير؟ أجهدت عقلي لأجد تفسيرًا، لكن بلا طائل. ثم نأتي إلى القماش الرمادي الذي شاهده مكارثي الابن. إذا كان ذلك حقيقيًّا، فلا بدّ أن القاتل قد أسقط قطعة من ملابسه –معطفه على الأرجح– أثناء هروبه، ولا بد أنه يمتلك جرأة كبيرة تدفعه لأن يرجع ويلتقطها وهو على بُعد اثنتي عشرة خطوة من ظهر الابن الراكع بجوار والده. يا لها من شبكة مُعقدة من الألغاز والأحداث الغريبة! وبالرغم من أنني لم أشكك في رأي ليستراد، فإنني كنتُ واثقًا في بصيرة شيرلوك هولمز لدرجة تمنعني من فقدان الأمل ما دام أن كل حقيقة تدعم –على ما يبدو– قناعته ببراءة مكارثي الابن.

كان الوقت متأخرًا عندما رجع شيرلوك هولمز. عاد وحده، حيث نزلَ ليستراد في مسكن بالمدينة. وعلّق بينما كان جالسًا: ما زال المؤشر يشير إلى ارتفاع الضغط الجوي. إنه من المهم ألّا تمطر حتى نستطيع فحص الأرض. ومن ناحية أخرى، يجب على المرء أن يكون في أفضل حالاته وقمة حماسته أثناء القيام بعمل لطيف مثل هذا، لذا فإنني لم أرغب في البدء به وأنا منهك من رحلة طويلة. لقد قمت بزيارة مكارثي الابن.

– وماذا قال لك؟

– لا شيء.

– ألم يتمكن من توضيح أي شيء؟

– لا شيء على الإطلاق. كنت أميل إلى الاعتقاد بأنه يعرف الفاعل ويتستر عليه أو عليها، لكنني الآن مقتنع بأنه يشعر بالحيرة كالجميع. فهو سريع البديهة بالرغم من وسامته، ولكنه –كما أعتقد– طيب القلب.

علّقت: لا يمكنني أن أثقَ بذوقه، إذا كان حقًّا يرفض الزواج من شابة جذّابة كالآنسة تيرنر.

– آه، ثمة قصة مؤلمة تتعلق بهذا الشأن، فصاحبنا يحبها بجنون شديد، لكن منذ سنتين عندما كان مجرد شاب صغير، وقبل أن تتوثق معرفته بالآنسة تيرنر التي كانت في مدرسة داخلية لخمس سنوات، ارتكب حماقة عندما أوقعته نادلة في بريستول، وتزوجها في مكتب تسجيل. لا يعرف أي شخص شيئًا عن الأمر، لكن بإمكانك أن تتصور عذابه عندما يتم تأنيبه على عدم قيامه بشيء يتمنى أن يضحي بعينيه كي يفعله، لكنه يدري مدى استحالته. ولقد كانت تلك واحدة من نوبات العذاب التي دفعته إلى رفع يديه في وجه والده عندما كان يحثّه بعنف على طلب الزواج من الآنسة تيرنر في آخر لقاء بينهما. ومن جهة أخرى، لم يملك أي مصدر لإعالة نفسه، وأبوه الرجل الغليظ بشهادة الجميع كان سيتخلى عنه لو عرف بالحقيقة. ولقد قضى الثلاثة أيام الأخيرة مع زوجته النادلة في بريستول، ولم يعلم أبوه بمكانه.. انتبه لتلك النقطة، فهي ذات أهمية. وقد تسببت هذه المشكلة في بعض الأمور الجيدة على أية حال، فعندما اكتشفت زوجته النادلة من الصحف أنه في مشكلة كبيرة، وأنه قد يُشنَق، تخلت عنه بشكل كامل، وأرسلت له لتخبره بأن لديها زوج بالفعل يعمل في ميناء برمودا، لذا لا يوجد رابط شرعي بينهما. وأعتقد أن في تلك الأخبار بعض العزاء لمكارثي الابن وسط كل معاناته.

– ولكن إذا كان بريئًا، فمن فعلها؟

– آه! من؟ أريد أن ألفت انتباهك إلى نقطتين بالتحديد؛ الأولى أن القتيل كان لديه موعدًا مع شخص ما عند البحيرة، ولا يمكن أن يكون ذلك الشخص ابنه؛ لأن الابن كان مسافرًا ولم يكن يعرف موعد عودته، أما النقطة الثانية فهي أن القتيل قد سُمع وهو يصيح صيحة (كوي) قبل أن يعلم أن ابنه قد عاد. هاتان هما النقطتان الفارقتان، والتي تقوم عليهما القضية. والآن، لنتحدث من فضلك عن الشاعر والروائي جورج ميردث، وسنترك كل الأمور الصغيرة للغد.

لم يكن هناك أمطار كما توقع هولمز، جاءَ الصباح مُشرقًا وبلا غيوم. وفي التاسعة صباحًا حضرَ ليستراد في عربة، وانطلقنا إلى مزرعة هاثرلي وبحيرة بوسكومب.

قال ليستراد: هذا الصباح يحملُ أخبارًا خطيرة، يُقال إن السيد تيرنر مريض للغاية ولا أمل في شفائه.

قال هولمز: رجل عجوز كما أعتقد؟

– في نحو الستين من عمره، ولكن بنيته قد ضَعُفت من المعيشة في الخارج، وصحته في تدهور منذ فترة. وقد كان لهذه القضية أثر سيئ للغاية عليه، فقد كان صديقًا قديمًا لمكارثي، ويمكنني أن أضيف أنه أحسن إليه كثيرًا حيث أعطاه مزرعة هاثرلي دون إيجار.

قال هولمز: حقًّا! هذا مثير للاهتمام.

– أوه، نعم. لقد ساعده بمختلف الطرق، والجميع هنا يتحدث عن مدى إحسانه تجاهه.

– حقًّا! ألا يدهشك ذلك قليلًا بأن مكارثي الذي يبدو أنه ليس غنيًّا، وأن تيرنر قد أحسن إليه كثيرًا، ما زال يتحدث عن زواج ابنه من ابنة تيرنر، والتي من المفترض أن ترث الممتلكات، بتلك الطريقة المؤكدة كما لو كان الأمر يتوقف فقط على طلب الزواج، وأن باقي المشروع سيمرّ بسلاسة؟ إن الأمر يزداد غرابة عندما نعرف أن تيرنر نفسه كان معارضًا للفكرة، وقد أخبرتنا الابنة بذلك. ألا تستنتج شيئًا من هذا الأمر؟

قال ليستراد وهو يغمز إليّ: لا نحتاج إلى الاستنتاجات والاستنباطات، فأنا أواجه صعوبة في هضم الحقائق يا هولمز دون التحليق خلف النظريات والخيالات.

فقال هولمز برزانة: أنت على حق، فأنت بالفعل تواجه صعوبة شديدة في فهم الحقائق.

فردّ ليستراد ببعض الانفعال: ولكنني تمكنت على كل حال من فهم حقيقة واحدة يبدو أنك تواجه صعوبة في استيعابها.

– ألا وهي؟

– أن مكارثي الأب قد قُتل على يد مكارثي الابن، وأن كل النظريات التي تشير إلى غير ذلك مجرّد سخافات.

«السخافات أفضل من الجهل». قالها هولمز ضاحكًا، واستطرد: لكني متأكد بأن مزرعة هاثرلي هي تلك التي على يسارنا.

– أجل، إنها هي.

كان المبنى ذو الطابقين واسعًا مريحًا للعين، سطحه مكسوّ بالصخور. انتشرت على جدرانه الرمادية بقع صفراء ضخمة من الطحالب. وقد دلّت الستائر المغلقة والمداخن التي لا يخرج منها الدخان على النكبة التي حلّت بالمنزل، وأنه ما زال تحت أثر تلك الكارثة. وقفنا بالباب، بينما أحضرت الخادمة –بعد طلب هولمز– الحذاء الذي كان ينتعله سيدها في وقت وفاته، وكذلك زوج أحذية يخص الابن، وإن لم يكن نفس الزوج الذي كان ينتعله وقت الحادثة. وبعد أن فحصها هولمز بدقة من سبع أو ثماني نواحٍ مختلفة، رغب في أن يذهب إلى الساحة، ومن هناك أخذنا جميعًا الطريق الملتوي الذي يقود إلى بحيرة بوسكومب.

كان شيرلوك هولمز يتحول عندما يتعقب مثل هذا الأثر، حتى إنه ليفشل كل من يعرف المفكر وعالم المنطق الهادئ المُقيم بشارع بيكر في التعرف عليه. فقد توهّج وجهه وشد حاجبيه ليصبحا خطين أسودين ثقيلين، وبدت عيناه تحتهما كمعدن برّاق. وقد انحنى وجهه للأسفل، وتقوّست كتفاه، وزمّ شفتيه، ونفرت عروق رقبته الطويلة بالكامل، وبدت فتحتا أنفه كأنهما يتوسعان كحيوان في مطاردة، بينما كان تركيزه منصبًّا بالكامل على القضية التي أمامه حتى إنه لم يكن يسمع أي ملاحظة أو سؤال، وإذا استفزته أحدها يرد بزمجرة حادة تدل على نفاد صبره في أفضل الحالات.

قطع بخفة وصمت طريقه الذي يمر عبر المروج، ثم قطع الغابة في الطريق المؤدي إلى بحيرة بوسكومب. كانت التربة رطبة وموحلة كسائر أراضي المنطقة، وعليها آثار لأقدام كثيرة على كلٍّ من الممر والأعشاب القصيرة التي تحدّه من الجانبين. كان هولمز يسرع أحيانًا ويتوقف أحيانًا، وانعطف مرة ليمشي في المروج، ومشيت أنا وليستراد خلفه، بينما يمشي المُحقق مستخفًّا وغير مُبالٍ به، راقبت صديقي باهتمام لاقتناعي بأن كل تصرف يقوم به كان له هدف محدد.

كانت بحيرة بوسكومب صفحة صغيرة من المياه يحيط بها الغاب في طوق عرضه خمسون خطوة، وهي الحد الفاصل بين مزرعة هارثلي والحديقة الخاصة بالسيد تيرنر الغني. ومن فوق الغابة التي تحيط بالبحيرة من الناحية البعيدة، استطعنا رؤية الأبراج الحمراء البارزة التي تميز منزل الثري صاحب الأرض. كانت الغابة الموجودة من ناحية هارثلي كثيفة للغاية، يمتد عشب مُبلل بالمياه بين بداية الأشجار والغاب الذي يحيط بالبحيرة.

أرشدنا ليستراد إلى النقطة التي وجدوا فيها الجثة، كانت الأرض رطبة بحق، حتى إنني استطعت رؤية الآثار التي نتجت عن سقوط القتيل بوضوح. أما هولمز، فقد استنتجت من عينيه المحملقتين، واللهفة المرتسمة على وجهه أن هناك العديد من الأشياء الأخرى التي يمكن اكتشافها من العشب المتكسر. أخذَ يجري في المكان ككلب يقتفي أثرًا، ثم استدار تجاه رفيقي وسأله: ما الذي كنت تبحث عنه في البحيرة؟

– لقد مشطتها بمجرفة. اعتقدت أنه قد يوجد بها أي دليل أو أثر، لكن كيف بالله.

– أوه! هشش.. هشش! ليس لدي وقت للشرح! إن أثر قدمك اليسرى ذات الانحناء إلى الداخل يملأ المكان، حتى إن الخلد يستطيع تعقبه، وها هي تختفي في الغاب. أوه، كم كان سيصبح الأمر سهلًا لو أنني وصلت إلى هذه البقعة قبل أن يقتحمها الجميع كقطيع من الجاموس، ويطمسون كل الآثار. هذا مكان المجموعة التي كانت ترافق حارس المنتجع، وقد غطّت آثارهم على كل الآثار الموجودة حول الجثة بمسافة ستة إلى ثمانية أقدام، لكن ها هي ثلاثة مسارات منفصلة لنفس الأثر.

ثم أخرج عدسته المكبرة، وانبطح على الأرض فوق معطفه المُضاد للمطر ليحظى برؤية أفضل، وقد بدا أنه يتحدث إلى نفسه وليس إلينا: هذه أقدام مكارثي الابن. وقد مشى مرتين وجرى بسرعة مرة واحدة، فأثر نعله عميق، بينما يكاد أثر الكعب ألّا يظهر، وهذا يدعم قصته. فقد جرى عندما رأى أباه على الأرض. وها هي آثار الأب حينما كان يمشي ذهابًا وإيابًا. فما هذه إذن؟ إنها مؤخرة البندقية عندما وضعها الشاب بجانبه وهو واقف ليستمع إلى أبيه. وهذا؟ ها؟ ماذا لدينا هنا؟ أطراف أصابع! إنها

أطراف أصابع! ومقدمة الحذاء مربعة الشكل! يا له من حذاء مميز! إنها تأتي، وتذهب، وتأتي مجددًا.. بالطبع، لقد كان ذلك بسبب المعطف. والآن، من أين جاءت؟

جرى هولمز وهو يتتبع الأثر، يجده أحيانًا، ويفقده أحيانًا حتى وصلنا إلى أطراف الغابة تحت شجرة زان ضخمة، بل الأضخم في المنطقة، ثم انبطح مرة أخرى على وجهه وهو يطلق صيحة خافتة تنم عن الرضا. وقد بقي على ذلك الوضع لمدة، وأخذ يقلّب أوراق الشجر، والأعواد الجافة، ويجمع في مظروف ما بدا لي أنه مجرد تراب. لم يكتفِ بفحص الأرض بدقة، بل فحص لحاء الشجر إلى أقصى ارتفاع استطاع الوصول إليه. وفحص حجرًا خشنًا وجده بين الطحالب بدقة، واحتفظ به. ثم تتبع الأثر على أحد الطرقات عبر الغابة حتى وصل إلى الطريق العام فانتهت كل الآثار.

قال وهو يعود إلى طبيعته: لقد كانت قضية مثيرة للاهتمام بشكل معقول. أظن أن هذا المنزل الرمادي على يميننا هو المنتجع. أعتقد أنني سأدخله وأتحدث مع موران، وربما أكتب رسالة قصيرة. وبعدما أنتهي من ذلك، سيكون بإمكاننا أن نعود بالعربة لنتناول الغداء. يمكنكما الآن الذهاب على العربة، وسألحق بكما بعد لحظات.

لم تمضِ عشر دقائق تقريبًا حتى أصبحنا في العربة، في طريق عودتنا إلى روس. وما زال هولمز حاملًا لذلك الحجر الذي التقطه في الغابة. وبعد لحظات علّق قائلًا: قد يثير هذا اهتمامك يا ليستراد، فهو أداة الجريمة.

– لا أرى دليلًا على ذلك.

– لأنه لا توجد أدلة.

– فكيف عرفت إذن؟

– لقد نمى العشب تحته، أي إنه لم يوضع هناك إلا منذ بضعة أيام، ولا توجد إشارة عن المكان الذي أُخِذَ منه، لكنه يتطابق مع الجروح، ولا توجد أي إشارة لأي سلاح آخر.

– والقاتل؟

– إنه رجل طويل، أعسر ويعرج على رجله اليمنى، ويرتدي حذاء صيد ذا نعل سميك، ومعطفًا رماديًّا. القاتل يدخن سيجارًا هنديًّا باستخدام مبسم، بالإضافة إلى أنه يحمل في جيبه مطواة. هناك العديد من الإشارات الأخرى، لكن هذه قد تكون كافية في بحثنا.

ضحك ليستراد قائلًا: أخشى أنني لا أزال متشككًا، فكل هذه النظريات جيدة، لكننا سنتعامل مع محلِّفين إنجليز برؤوس متحجرة.

فأجاب هولمز بهدوء: سنرى! فلتعمل أنت بطريقتك، وسأعمل أنا بطريقتي. سأكون مشغولًا بعد ظهر اليوم، وسأعود على الأرجح إلى لندن في قطار المساء.

– وتترك قضيتك دون أن تنهيها؟

– لا، ستكون منتهية.

– واللغز؟

- تمّ حله.

- من كان المجرم إذن؟

- الرجل الذي وصفته لك.

- لكن من هو؟

- لن يكون من الصعب اكتشاف ذلك بالتأكيد، فهذا الحي غير مزدحم بالسكان.

هزّ ليستراد كتفيه وقال: أنا رجل عملي، ولا يمكنني أن أعدك بتفتيش البلد بحثًا عن رجل أعسر ذي ساق عرجاء، وإلا أصبحت أضحوكة شرطة سكوتلاند يارد كلها.

قال هولمز بهدوء: حسنًا، لقد أعطيتك الفرصة. ها هو مسكنك. إلى اللقاء، وسأرسل إليك رسالة قصيرة قبل أن أرحل.

وبعد أن تركنا ليستراد، ذهبنا إلى فندقنا حيث وجدنا الغداء على المائدة. كان هولمز صامتًا وغارقًا في التفكير، وقد ارتسم الألم على وجهه مثل شخص وقع في موقف محيّر.

قال بعد أن رُفعت الأطباق عن المائدة: اجلس على هذا الكرسي ودعني ألقي عليك بعض المواعظ، فأنا لا أعرف ما يجب أن أفعله، وسأقدّر نصيحتك. أشعِل سيجارًا ودعني أشرح لك.

- أرجو أن تفعل ذلك.

- حسنًا، الآن، عند دراسة هذه القضية لفتت انتباهنا نحن الاثنين على الفور نقطتان تتعلقان برواية مكارثي الابن. رأيتهما أنا في صالحه، بينما رأيتهما أنت ضده. الأولى هي حقيقة أن الأب -طبقًا لروايته- قد صاح بصيحة (كوي) قبل أن يراه. والأخرى هي إشارة القتيل قبل وفاته مباشرة إلى كلمة (رات). لقد غمغم بالطبع بالعديد من الكلمات، لكن هذه الكلمة هي ما التقطته أذن الابن. وهكذا وجب علينا أن نبدأ بحثنا من تلك النقطة المزدوجة، وسنبدأ ذلك بافتراض أن كل ما قاله الشاب حقيقي بالكامل.

- وماذا عن صيحة (كوي) إذن؟

- حسنًا، من الواضح أنها لم تكن مُوجّهة للابن، فالابن كان -على حد علمه- في بريستول، ولقد كانت صدفة بحتة أن يسمعها الابن. لقد كانت صيحة (كوي) مُوجّهة لجذب انتباه الشخص -أيًّا كان هو- الذي كان القتيل على موعد معه. لكن (كوي) صيحة أسترالية مُميزة، وتُستخدم بين الأستراليين. لذا هناك احتمال كبير بأن الشخص الذي كان ينتظره مكارثي عند بحيرة بوسكومب قد عاش في أستراليا فترة.

- وماذا عن كلمة (رات) إذن؟

أخرج شيرلوك هولمز ورقة مطوية من جيبه، وبسطها على الطاولة قائلًا: هذه خريطة مقاطعة فيكتوريا. لقد أبرقت إلى بريستول بالأمس كي أطلبها.

ثم وضع يده فوق جزء من الخريطة سائلًا: ماذا تقرأ؟

فقرأت: رات.

رفع يده التي تحجب جزءًا من الخريطة سائلًا: والآن؟

– بالارات.

– بالضبط. تلك كانت الكلمة التي نطق بها الرجل، والتي لم يسمع منها الابن سوى آخر مقطع. لقد كان يحاول توضيح اسم قاتله. فلان ابن فلان من بالارات.

– صحت قائلًا: هذا رائع!

– إنه أمر بدَهي. والآن كما ترى استطعت تضييق نطاق البحث بشكل كبير. أما حيازة القاتل للرداء الرمادي فقد كانت النقطة الثالثة التي توضح كل شيء إذا ما سلمنا برواية الشاب. فلقد وصلنا إلى تخيل مُحدد لشخص أسترالي من بالارات يرتدي معطفًا رماديًّا.

– بالتأكيد.

– وهو كذلك شخص له منزل بالمنطقة، حيث إنه لا يمكن الوصول إلى البحيرة إلا من خلال المزرعة، والتي لا يستطيع الأغراب أن يتجولوا فيها بحرية.

– هذا صحيح.

– والآن نصل إلى رحلتنا الاستكشافية اليوم. ومن خلال فحص الأرض، عرفت بعض التفصيلات، والتي قمت بعرضها على الأبله ليستراد، بالإضافة إلى وصف لشخصية المجرم.

– ولكن كيف توصلت إليها؟

– أنت تعرف طريقتي. فهي تقوم على ملاحظة التفاصيل الصغيرة.

– أعرف أنك تستطيع تخمين طوله من المسافة بين خطواته. وكذلك حذاؤه يمكن تمييزه من أثره على الأرض.

– بالفعل، لقد كان حذاء مُميزًا.

– لكن ماذا عن العرج؟

– كان أثر قدمه اليمنى أقل وضوحًا دائمًا من القدم اليسرى، وذلك لأنه لا يثقل عليها بنفس القدر، لماذا؟ لأنه يعرج عليها.. إنه أعرج.

– وماذا عن كونه أعسر؟

– إن طبيعة جروح القتيل كما سجّلها جرّاح التحقيق أدهشتك أنت حتى، فبالرغم من أنه قد تلقى الضربة من الخلف، إلا إنها جاءت في الجانب الأيسر. والآن، كيف يمكن لذلك أن يحدث ما لم يكن القاتل رجلًا أعسر؟ لقد وقف خلف تلك الشجرة أثناء المقابلة التي جرت بين الأب وابنه، حتى إنه قام بالتدخين هناك، وقد وجدت رماد سيجاره هناك، والتي مكّنتني معرفتي الخاصة بأنواع رماد التبغ من معرفة أنه سيجار هندي. فأنا كما تعرف قد أوليت تركيزًا خاصًّا في هذا الشأن، وكتبت مقالة قصيرة عن 140 نوعًا مختلفًا من رماد الغليون والسجائر والتبغ. وعندما وجدت الرماد، بحثت حولي حتى وجدت العقب الذي رماه وسط الحشائش. لقد كان سيجارًا هنديًّا من النوع الذي يتم لفّه في روتردام.

– وماذا عن المبسم؟

– لاحظتُ أن نهاية العقب لم يلمس فمه. وبالتالي لا بد أنه قد استخدم مبسمًا. ولقد كان رأس السيجار مقطوعًا لا مقضومًا، لكن القطع لم يكن متساويًا، لذا استنتجت أنه استخدم مطواة غير حادة.

قلت: لقد أحكمت شبكتك حول الرجل يا هولمز بحيث لن يستطيع الهروب، كما أنك قد أنقذت شخصًا بريئًا من الشنق، كما لو كنت قد قطعت الحبل الذي كان سيُشنق به. أرى ما تشير إليه كل تلك النقاط، فالمجرم هو..

«السيد جون تيرنر» صاح بها خادم الفندق وهو يفتح الغرفة ويرشد زائرًا إلى الداخل.

كانت هيئة الرجل الذي دخل علينا غريبةً مهيبة. فخطواته البطيئة العرجاء، وكتفاه المقوستان أضفت انطباعًا بوهنه وعجزه، في حين دلّت أوصاله القوية وقسماته القاسية على قوة جسدية وشخصية غير عادية. وقد اجتمعت لحيته الطويلة وشعره الأشيب مع حاجبيه الكثيفين ليضفوا قوة ووقارًا على مظهره، وإن كان وجهه الشاحب شحوب الموتى، ولون شفتيه الأزرق جعلا من الواضح أنه فريسة لمرض مُزمن مميت.

قال هولمز بلطف: أرجو أن تجلس على الأريكة. هل استلمت رسالتي؟

– نعم، لقد أحضرها حارس المنتجع، وقد قلتَ فيها إنك تريد أن تقابلني هنا كي نتجنب الفضيحة.

– لقد فكرت في أن الناس قد يثرثرون إذا ذهبتُ إلى القصر.

– ولماذا أردت مقابلتي؟

سأل ناظرًا إلى رفيقي واليأس يطلّ من عينيه المُرهقتين كأنه يعرف الإجابة بالفعل. فقال هولمز مُجيبًا النظرة لا السؤال: نعم. إنني أعرف الحقيقة. أعرف كل شيء بخصوص مكارثي.

دفن العجوز وجهه بين كفّيه وصاح: فليساعدني الله إذن! لكنني لم أكن لأدع الشاب يتعرض لأي أذى، أقسم لك أنني كنت سأعترف لو حكموا عليه في الجلسة النهائية.

قال هولمز بجدية: يسعدني سماع ذلك منك.

– كان من الممكن أن أعترف الآن لولا خوفي على ابنتي العزيزة. سيحطم ذلك قلبها.. سيتحطم قلبها عندما تعلم أنه قُبِض عليّ.

قال هولمز: قد لا يصل الأمر إلى ذلك الحد.

– ماذا؟

– أنا لست ضابطًا رسميًّا، وابنتك هي التي طلبت حضوري إلى هنا، وأنا أعمل لصالحها. ومع ذلك، يجب أن يخرج مكارثي الابن من السجن.

قال تيرنر العجوز: أنا أحتضر. إنني مريض بالسكر منذ سنوات، وأخبرني الطبيب أنني قد لا أعيش لمدة شهر آخر، لكنني أفضل الموت على فراشي تحت سقف منزلي عن الموت في السجن بالطبع.

وقف هولمز وجلس إلى الطاولة وأخرج قلمه وحزمة من الأوراق ووضعها أمامه قائلًا: أخبرنا الحقيقة فحسب. وسوف أقوم بتدوين الحقائق، وستوقّعها أنت، وسيشهد عليها واتسون الجالس هنا. ومن ثم

يمكنني أن أقدم اعترافك كملاذ أخير لإنقاذ مكارثي الابن. وأعدك أنني لن أستخدمها إلا عند الضرورة القصوى.

قال الرجل العجوز: هذا جيد، لقد أصبح من المشكوك فيه أن أعيش حتى موعد الجلسة، ولهذا فإن هذا الأمر لن يضيرني، لكني أشفق على ابنتي من الصدمة. والآن سأوضح لكما الأمر، إنه يجري منذ وقتٍ طويل، لكنني لن أستغرق وقتًا طويلًا في حكايته.

إنكما لا تعرفان القتيل مكارثي، لكنني أؤكد لكما أنه كان الشيطان بعينه. فليحفظكما الله من الوقوع بين براثن رجل مثله. ولقد كنت في قبضته لمدة عشرين عامًا، دمّر خلالها حياتي. سأخبركما في البداية كيف وقعت تحت رحمته.

لقد كانت أوائل الستينيات في المناجم، كنت شابًّا صغيرًا متهورًا سريع الانفعال وقتها، مستعدًّا لفعل أي شيء، صاحبت رفاق سوء وأدمنت الخمر، وعندما لم أجد حظي في مناجم الذهب، قصدت الأدغال.. باختصار أصبحت ما تطلقون عليه هنا قاطع طريق. كنّا ستة أشخاص نعيش حياتنا بحرية وجموح، نسطو على محطة من وقت للآخر، أو نقطع الطريق على العربات في الطريق. كان اسمي وقتها (بلاك جاك من بالارات)، ولا يزال الناس في مقاطعة فيكتوريا يتذكرون عصابة بالارات.

وذات يوم جاءت قافلة ذهب من بالارات في طريقها إلى ميلبرون، فتربصنا بها حتى هجمنا عليها. كان هناك ستة حراس في مواجهتنا نحن الستة، لذا كانت المواجهة صعبة. لكننا أسقطنا أربعة منهم في الهجوم الأول، وقُتل ثلاثة من عصابتنا قبل أن نتمكن من الوصول إلى الذهب. وضعت مسدسي على رأس سائق العربة، والذي كان مكارثي نفسه، وليتني قتلته وقتها، لكنني عفوت عنه رغم أنني رأيت عينيه الصغيرتين الماكرتين مُثبتة على وجهي وكأنه يحفظ كل قسماته. هربنا بالذهب، وأصبحنا أغنياء، وسافرنا إلى إنجلترا دون أن يشك بنا أحد. ثم تركت الأصدقاء القدامى وقررت الاستقرار وبناء حياة هادئة ومحترمة. اشتريت هذه المزرعة والتي كانت مُتاحة بالصدفة في السوق وقتها، وعزمت على القيام ببعض الأعمال الخيرية بأموالي، كي أُكفّر عن طريقة كسبي لها، كما تزوجت أيضًا، وبرغم أن زوجتي ماتت شابة، فإنها تركت لي طفلتي الحبيبة آليس. وحتى عندما كانت رضيعة، أرشدتني يداها الصغيرتان نحو الطريق المستقيم كما لم يفعل شيء آخر من قبل. وباختصار، بدأت صفحة جديدة، وبذلت جهدي في التعويض عن الماضي، وقد سار كل شيء على ما يرام، حتى أحكم مكارثي قبضته عليّ.

كنت قد ذهبت إلى المدينة للاستثمار حينما قابلته في شارع ريجنت، لم يكن يرتدي حينها سوى معطف مهلهل وحذاء بالٍ.

قال وهو يمسك ذراعي: ها نحن نتقابل يا جاك. سنكون بمنزلة عائلتك أنا وابني، ويمكنك أن تتكفل بنا. وإذا لم تفعل، فلا مشكلة على الإطلاق، فنحن في إنجلترا دولة القانون، ودائمًا ما يكون هناك شرطي حولك.

فجاءا إلى البلدة الغربية، ولم أستطع التخلص منهما، ومن يومها عاشا في أفضل مزارعي مجانًا. ولم أشعر بالسلام أو الراحة أو النسيان من وقتها، فأينما ذهبت وجدت ذلك الماكر المستهزئ أمامي. ولقد ازداد الأمر كلما كبرت آليس، فلقد اكتشف سريعًا أن خوفي من اكتشافها الماضي أكبر من خوفي من

الشرطة. وهكذا حصل على كل ما أراده من أرض ومال ومنازل دون أن أتردد، حتى طلب شيئًا لم يكن بإمكاني أن أعطيه إياه.. لقد طلب آليس.

فكما ترى كبر ابنه وكذلك ابنتي، ولأنني كنت مريضًا، بدا له الأمر كضربة جيدة كي يتقدم ابنه ويحصل على الأملاك كلها، لكنني رفضت بشكل قاطع. لم أكن لأوافق على اختلاط سلالته الملعونة بسلالتي، ليس لأنني أحمل أي ضغينة تجاه الشاب، لكنه يحمل دمه، وهذا يكفي. تمسكت برأيي، فهددني مكارثي، فتحديته بأن يفعل أسوأ ما عنده. واتفقنا أن نتقابل عند البحيرة بين منزلي ومنزله لنتناقش في الأمر.

عندما ذهبت إلى هناك، وجدته يتحدث مع ابنه، لذا دخّنت سيجارًا وانتظرت خلف الشجرة حتى يصبح وحده، لكن عندما سمعت كلامه، بدا وكأن كل الظلام والشر بداخلي قد تأجج. لقد كان يحثّ ابنه على الزواج بابنتي دون أن يهتم برأيها، وكأنها فتاة ليل من الشارع. التفكير بأنني وكل ما هو عزيز عليّ سيكون تحت رحمة رجل كهذا دفعني إلى الجنون. ألا يمكنني أن أحطم قيودي؟ فأنا بالفعل رجل يائس يحتضر، ومع ذلك صافي العقل وقوي الأوصال. عرفت أن مصيري محتوم، لكن ذكراي وابنتي! يمكن إنقاذهما إذا قمت بإخراس ذلك الفم الدنيء.

نعم فعلتها يا سيد هولمز، وكنت لأفعلها ثانية. نعم لقد أذنبت، لكنني عشت حياة مُعذّبة تكفيرًا عن ذنوبي. لكن أن تقع ابنتي في نفس الشَّرَك الذي عانيت منه، كان هذا فوقَ احتمالي. فضربته دون أي ندم كما لو كان وحشًا سامًّا قذرًا، إلا أن صيحته دفعت ابنه إلى العودة، فاختبأت بين الأشجار. ولكنني اضطررت للعودة كي أستعيد معطفي الذي سقط أثناء هروبي. هذه هي القصة الحقيقية يا سادتي لكل ما حدث.

قال هولمز بينما كان العجوز يوقّع الاعتراف الذي كتبه: حسنًا، ليس من شأني أن أحكم عليك، وأرجو ألا أضطر إلى ذلك.

– أرجو ذلك يا سيدي. ماذا تنوي أن تفعل؟

– بالنظر إلى صحتك، لا شيء. أنت تعرف بأنك ستقف قريبًا أمام محكمة أعلى لتُحاسب على أفعالك. سأحتفظ باعترافك، وإذا جُرِّم مكارثي، فسأكون مجبرًا على استخدامه. وإذا لم يحدث ذلك، فلن تقع عليه عين مخلوق، وسيكون سرّك في أمان معنا سواء كنتَ حيًّا أو ميتًا.

قال العجوز بوقار: الوداع إذن. عند وفاتكما وعندما يحين موعدكما، ستشعران بالراحة عند التفكير في السلام الذي منحتماني إياه.

غادر العجوز الغرفة ببطء وجسده العملاق يهتز ويتمايل. وبعد فترة طويلة من الصمت قال هولمز: فليساعدنا الله. أنا لا أتخيل أن قضية كهذه قد تدفعني إلى التفكير في كم كانت حياتي رغدة، وتدفعني للقول: لكن بنعمة من الله، يذهب شيرلوك هولمز.

*****

بُرِّئ جاميس مكارثي من الجريمة بناء على عدد من الاعتراضات التي بيّنها هولمز لمحامي الدفاع. ولقد عاش تيرنر العجوز لسبعة أشهر بعد مقابلتنا، لكنه ميت الآن، وهناك احتمال كبير بأن الابن

والابنة قد تزوجا وعاشا بسعادة دون أن يعرفا بالسحابة السوداء التي تخيّم على ماضيهما.

مغامرة منزل الأشجار النحاسية

علّق شيرلوك هولمز وهو يقطع صفحة الإعلانات من صحيفة الديلي تلجراف قائلًا: «بالنسبة لشخص يحب الفن من أجل الفن، فإنني لاحظت أنه كلما قلّت المبالغة والزخرفة في العمل، زادت المتعة. ويسعدني أن ألاحظ يا واتسون أنك استطعت فهم هذه الحقيقة بالفعل، وتوضيحها في تلك السجلات القصيرة لقضايانا التي تكرّمت بكتابتها، أو بالأحرى تكرّمت بزخرفتها. فأنت لم تولِ أهمية كبيرة للعديد من القضايا الشهيرة التي قمتُ بحلها، لكن وليت اهتمامك تجاه تلك الحوادث التي ربما تكون عادية في حد ذاتها، لكنها أظهرت القدرات الاستنتاجية والتحليل المنطقي الذي جعلتُه مجال تخصصي».

قلت مبتسمًا: وبالرغم من ذلك، فإنني لا أستطيع أن أبرئ نفسي تمامًا من تهمة الإثارة التي أُخِذَت على سجلاتي.

- ربما كنتَ مخطئًا.

قالها وهو يلتقط جمرة متأججة بملقطه، ثم أشعل بها غليونه الخشبي الطويل، الذي اعتاد أن يستخدمه في أوقات النقاشات، بدلًا من الغليون الفخاري الخاص بالمزاج التأملي، واستطرد: ربما كنتَ مخطئًا في محاولتك إضفاء اللون والحياة على كل ما ترويه، بدلًا من أن تقتصر مهمتك على تسجيل التحليل المنطقي الصرف، من خلال الانتقال من الأسباب إلى النتائج، فهذا هو الشيء الوحيد الجدير بالملاحظة في تلك القضايا.

شعرت بالنفور من غرور صديقي والذي يمثل عنصرًا أساسيًّا في شخصيته الفريدة، وأجبته بفتور: «يبدو لي أنني قد وفّيتك حقك كاملًا في هذا الأمر».

فكان ردّه على أفكاري لا كلماتي كالعادة: «لا، الأمر لا يتعلق بالأنانية أو الغرور. فعندما أطلب بأن توفي التحليل المنطقي حقه، فذلك لشيء أكبر مني. فالجرائم شائعة، لكن المنطق نادر، لذا ينبغي أن تكتب عن المنطق لا الجريمة، بينما ما فعلتَه أنتَ أنك قمت بتحويل سلسلة من المحاضرات إلى سلسلة من الحكايات».

كان ذلك الحوار في صباح ربيعي بارد، حيث جلسنا وتناولنا الإفطار بجوار نار متأججة في مدفأة الغرفة القديمة، في شارع بيكر. وكان الضباب الكثيف يكسو صفوف المنازل الباهتة، فبدت النوافذ المقابلة كبقع داكنة غير منتظمة بين الأكاليل الكثيفة للزهور. كان مصباحنا مضيئًا، فألقى بضوئه على القماش الأبيض، وجعل الأواني الفضية والخزفية تبرق. كان شيرلوك هولمز صامتًا طوال النهار، غارقًا في قراءة أعمدة الإعلانات في صحيفة تلو الأخرى، حتى انتهى أخيرًا من بحثه، وبدا في مزاج سيئ للغاية، فراح يلقي عليّ محاضرة في مشكلاتي الأدبية.

وعلّق بعد فترة صمت جلس خلالها ينفث دخان غليونه الطويل ويحدّق إلى النار: «وفي نفس الوقت، بالكاد يمكن اتهامك بمعالجة القضايا المثيرة، فمن بين تلك القضايا -والتي كان من اللطيف جدًّا اهتمامك بها- كان هناك عدد كبير لا علاقة له بالجريمة بمعناها القانوني على الإطلاق، مثل المشكلة الصغيرة التي قمتُ بحلها لمساعدة ملك بوهيميا، والمشكلة المتعلقة بالآنسة ماري سذرلاند، والمشكلة المتعلقة بالرجل ذي الشفة المقلوبة، وحادثة النبيل الأعزب؛ كل تلك القضايا كانت خارج إطار القانون، ولكنني أخشى أنك عندما تجنبت القضايا المثيرة، ذهبت إلى القضايا العادية.

فأجبته: «ربما كانت قضايا عادية، لكن الأساليب التي اتبعتَها كانت جديدة ومثيرة للاهتمام».

– أف! يا صديقي العزيز، ماذا قد يهم العامة، العامة الذين لا يستطيعون الملاحظة، الذين لا يستطيعون تمييز عامل النسيج من أسنانه، أو عامل المطبعة من إبهامه الأيسر، بأساليب التحليل والاستنتاج الأدق! لكن إذا لجأت للقضايا العادية، فلا يمكنني أن ألومك في الحقيقة، فأيام القضايا المهمة قد ولّت. فالرجل، أو بالأحرى الرجل المجرم قد فقد الجرأة والأصالة. وبالنسبة لمهاراتي الخاصة، فيبدو أن وضعها يتدهور لتصبح وكالة لاستعادة الأقلام الرصاص المفقودة، وتقديم النصيحة للشابات في المدارس الداخلية. وأعتقد أنني انحدرت إلى القاع مؤخرًا على أي حال، فهذه الرسالة التي استلمتها صباح اليوم تدل على وصولي إلى نقطة الصفر كما أتصور. اقرأها.

قال ذلك وألقى بالرسالة المجعدة إليَّ. كانت بتاريخ الأمس في مونتاج، وفيها ما يلي:

«عزيزي السيد هولمز:

أنا متشوقة للغاية لاستشارتك فيما إذا كان ينبغي أو لا ينبغي أن أقبل عرض العمل كمربّية. سأزورك غدًا في العاشرة والنصف إذا لم يزعجك ذلك.

مع تحياتي

فيوليت هانتر».

فسألته: هل تعرف هذه الشابة؟

– لا.

– إنها العاشرة والنصف الآن.

– نعم، ولا شك أنها من يدق الجرس الآن.

– مَن يدري ربما يكون لديها ما يثير اهتمامك على عكس ما تتوقع. أتذكر قضية العقيق الأزرق؟ ظهرت كنزوة في البداية، ثم تطورت لتصبح تحقيقًا جادًّا، وقد يكون الأمر كذلك في هذه القضية.

– حسنًا، سنكتشف ذلك قريبًا، فإذا لم أكن مخطئًا، فهذا هو الشخص المُنتظر.

وبينما كان يتحدث، فُتح الباب ودلفت إلى الغرفة سيدة شابة، ترتدي ملابس بسيطة، لكنها أنيقة، وجهها مشرق يبدو على ملامحها الذكاء، وجهها منمّش، وقد بدا من أسلوبها أنها امرأة تشق طريقها في الحياة وحدها.

قالت حين وقف رفيقي ليحيّيها: أثق أنك ستعذرني فيما سببته لك من إزعاج، فقد مررت بتجربة غريبة للغاية، ونظرًا إلى أنه لم يعد لي والدان ولا أقارب يمكنني طلب النصح منهم، فكرت أنك قد تتكرم وتخبرني بما ينبغي أن أفعله.

– أرجو أن تجلسي يا آنسة «هانت» وسيسعدني أن أقوم بأي شيء قد يساعدك.

كان بإمكاني ملاحظة أن هولمز قد أُعجب بطريقة عميلته الجديدة في الكلام، فقد تفحّصها كعادته، ثم عدّل من وضع جسده، وأرخى جفنيه، ووضع أطراف أصابعه معًا ليستمع إلى قصتها.

قالت: إنني أعمل مربية منذ خمس سنوات لدى عائلة الكولونيل سبينس مونرو، لكن منذ شهرين تلقى الكولونيل عرضًا لوظيفة في هاليفاكس في مقاطعة نوفا سكوشيا، واصطحب أطفاله معه إلى أمريكا، وهكذا وجدت نفسي بلا وظيفة، فنشرت إعلانًا لطلب وظيفة، وسعيت في كل فرص التوظيف، لكن بلا فائدة. حتى بدأ المال القليل الذي ادّخرته في النفاد، كما نفدت أفكاري بما يتوجب عليَّ فعله.

توجد وكالة توظيف جيدة للمربيات في الطرف الغربي للمدينة اسمها «ويست أواي»، اعتدت على زيارتها أسبوعيًّا على أمل أن أجد لديهم وظيفة مناسبة. «ويست أواي» هو اسم مؤسس هذه الوكالة، لكن مَن تديرها فعلًا هي الآنسة ستوبر. تجلس في مكتبها الصغير، وتنتظر السيدات اللائي يسعين إلى وظيفة في غرفة مُلحقة، ثم يُعرضون عليها الواحدة تلو الأخرى، فتقوم بمراجعة سجلاتها لترى إذا كان لديها ما يناسبهن.

عندما زرتهم الأسبوع الماضي، أدخلوني المكتب الصغير كالمعتاد، لكنني وجدت أن الآنسة ستوبر لم تكن وحدها؛ إذ جلس بجوارها رجل بدين له وجه بشوش للغاية وذقن ضخم، وعلى أنفه نظارة، يتفحص السيدات الداخلات باهتمام شديد. عندما دخلت الغرفة، قفز من كرسيه فجأة والتفت إلى السيدة ستوبر قائلًا: هذه ستفي بالغرض. لم أكن لأتمنى أفضل من ذلك. ممتازة! ممتازة!

بدا متحمسًا للغاية وفركَ يديه بطريقة لطيفة. كان رجلًا ترتاح العين عند النظر إليه، ثم سألني: جئتِ من أجل الوظيفة يا آنسة؟

– نعم يا سيدي.

– كمربية؟

– نعم يا سيدي.

– وما هو الراتب الذي تطلبينه؟

– كنت أتقاضى أربعة جنيهات في الشهر في آخر مكان عملت فيه مع الكولونيل سبينس مونرو.

فصاح وهو يلوّح في الهواء بانفعال شديد قائلًا: أوه، يا للهراء! يا له من أجر زهيد! كيف يمكن لأي شخص أن يعرض مثل هذا الأجر الزهيد لسيدة بمثل مميزاتك ومهاراتك.

فقلت: قد تكون مهاراتي يا سيدي أقل ممّا تتصور. القليل من الفرنسية، والقليل من الألمانية، والموسيقى والرسم...

فصاح مُقاطعًا: هراء! كل ذلك غير متعلق بالموضوع. المهم هو هل لديك سلوك وتصرفات سيدة أم لا؟ هذا هو الأمر باختصار. إذا لم يكن لديك ذلك السلوك، فأنت لا تصلحين لتربية طفل قد يلعب دورًا مهمًّا في تاريخ البلد. لكن إذا كان لديك ذلك السلوك، فكيف لأي سيد محترم أن يطلب منك أن تتنازلي وتقبلي بأي مبلغ أقل من ثلاثة أرقام؟ إن راتبك معي يا سيدتي سيبدأ بمئة جنيه في العام.

يمكنك أن تتخيل يا سيد هولمز كيف بدا لي هذا العرض وأنا مُعدمة أنه أروع من أن يكون حقيقيًّا. وبسبب نظرة عدم التصديق تلك التي ارتسمت على وجهي –على الأرجح– أخرج محفظته وهو يبتسم بشكل مُبهج للغاية لدرجة أن عينيه بدتا كشقين صغيرين يلمعان وسط ثنايا وجهه الأبيض وقال: «إن

من عادتي كذلك أن أدفع للسيدات العاملات لدي نصف راتبهن مقدمًا حتى يستطعن مواجهة نفقات رحلتهن أو ملابسهن.

بدا لي أنني لم أقابل رجلًا في مثل روعة ذلك الرجل أو ذوقه. فقد كنت مَدينة بالفعل للتجار الذين أتعامل معهم، وكانت تلك السُّلفة مناسبة للغاية، لكن كان هناك شيء غير طبيعي بخصوص تلك الصفقة. ذلك الشيء جعلني أرغب في معرفة المزيد قبل أن ألزم نفسي بهذا الأمر، فسألته: هل يمكنني أن أسألك عن محل إقامتك يا سيدي؟

– في مكان ريفي ساحر في هامبشير. اسم المنزل «أشجار الزان النحاسية» على بُعد خمسة أميال عن وينشستر. إنه أعز وأقدم منزل ريفي في أجمل مكان في الريف يا سيدتي العزيزة.

– وماذا عن واجباتي يا سيدي؟ سيسعدني إن عرفت ماذا ستكون.

– طفل واحد –طفل واحد عزيز، شديد الحيوية ويبلغ من العمر ست سنوات. آه لو تمكنتِ من رؤيته وهو يقتل الصراصير بالنعل! ضرب! ضرب! ضرب! وستجدين ثلاثة قد قُتلوا قبل أن ترمشي!

ثم مال إلى الخلف في كرسيه وضحك بشدة حتى اختفت عيناه في ثنايا وجهه مرة أخرى. صُدمت قليلًا من طبيعة تسلية الطفل، لكن ضحكات الأب جعلتني أعتقد أنه ربما كان يمزح فسألت: إذن فإن واجبي فقط هو رعاية طفل وحيد؟

فصاح قائلًا: لا، لا، ليس الوحيد، ليس الوحيد يا سيدتي العزيزة. حيث سيكون من واجبك –كما أثق في أن تفكيرك سيُملي عليكِ– أن تطيعي الأوامر البسيطة التي قد تطلبها زوجتي، ما دامت تلك الأوامر في حدود اللياقة ويمكن أن تطيعها سيدة. فكما ترين لا توجد أي صعوبات، ها؟

– يسعدني أن أكون مفيدة.

– بالضبط. فعلى سبيل المثال بالنسبة للملابس؛ نحن أناس مهووسون، نعم مهووسون لكن طيبون. إذا طُلب منك أن ترتدي أي فستان قد نعطيه لكِ، فلن تعترضي على نزوتنا الصغيرة، أليس كذلك؟

فقلت وقد أذهلتني كلماته تمامًا: نعم!

– ولن تشعري بالإهانة إذا طلبنا منك أن تجلسي هنا أو هناك؟

– أوه، نعم!

– أو تقصي شعرك ليصبح قصيرًا للغاية قبل مجيئك؟

لم أستطع أن أصدق أذني. فلربما لاحظت يا سيد هولمز، إن شعري غزير وله لون كستنائي جميل، لذا لم أكن لأحلم أن أضحي به بتلك الطريقة الفظة، فقلت: أخشى أن هذا مستحيل.

كان يراقبني بلهفة بعينيه الضيقتين، واستطعت رؤية الكآبة تغطي وجهه عندما تحدثت. فقال: أخشى أن هذا طلب أساسي. فهذه نزوة صغيرة لزوجتي، وكما تعلمين نزوات النساء يا سيدتي يجب تحقيقها. لن تقصي شعرك إذن؟!

فأجبت بصرامة: لا يا سيدي، لن أستطيع فعل ذلك حقًّا.

– آه، حسنًا، هذا يحسم الأمر. إنه أمر مؤسف، فمن كل النواحي الأخرى، كنتِ مناسبة تمامًا لهذه الوظيفة. لكن في هذه الحالة، من الأفضل أن أقابل شابّات أخريات يا آنسة ستوبر.

كانت المديرة جالسة كل ذلك الوقت مشغولة بأوراقها دون أن تنطق بكلمة لأي منّا، لكنها نظرت إليّ حينها وعلى وجهها ضيق شديد، فعرفت أن رفضي قد تسبب في خسارتها لعمولة كبيرة. ثم سألتني: هل ترغبين أن يظل اسمك في السجلات؟

– إذا سمحتِ يا آنسة ستوبر.

فقالت بحدة: حسنًا، في الواقع يبدو أن الأمر عديم الجدوى بما أنك ترفضين أفضل العروض بهذه الطريقة. فلا يمكنك أن تتوقعي منّا أن نجهد أنفسنا لنجد لك فرصة أخرى كهذه. أتمنى لكِ يومًا سعيدًا يا آنسة هانتر.

ثم قرعت جرسًا على الطاولة، فرافقني خادم إلى الخارج.

حسنًا يا سيد هولمز، عندما عدت إلى منزلي ووجدت القليل الموجود في الخزانة، ووجدت فاتورتين على الطاولة، بدأت في سؤال نفسي إذا ما كنت قد تصرفت بطريقة حمقاء للغاية. فرغم كل شيء وحتى إن كان لهؤلاء الناس نزواتهم، ويتوقعون الطاعة في أكثر الأمور غرابة، فإنهم على الأقل مستعدون لأن يدفعوا مقابل غرابة أطوارهم. فمربيات قلائل جدًّا في إنجلترا يتقاضون مئة جنيه في العام. ثم بماذا يفيدني شعري؟ يصبح شكل الكثير من الناس أجمل عندما يقصون شعرهم، وربما أكون منهم. وفي اليوم التالي ملت للاعتقاد بأنني قد ارتكبت خطأً، وفي اليوم الذي تلاه كنت قد تأكدت من ذلك. وكنت على وشك التغلب على كبريائي وأن أذهب إلى الوكالة وأسأل إذا ما كانت الوظيفة لا تزال مُتاحة حين استلمت هذه الرسالة من الرجل المحترم نفسه. إنها معي هنا، وسأقرؤها عليك:

«منزل الأشجار النحاسية، بالقرب من وينشستر.

عزيزتي الآنسة هانتر،

لقد تكرمت الآنسة ستوبر وأعطتني عنوانك وأنا أكتب إليك من هنا لأسألك إذا كنتِ قد أعدتِ النظر في قرارك. إن زوجتي متلهفة لمجيئك، فلقد سحرها وصفي لك. نحن مستعدون لدفع ثلاثين جنيهًا بشكل ربع سنوي، أي مئة وعشرين جنيهًا كل سنة لنعوضك عن أي إزعاج قد تسببه لك نزواتنا، بالرغم من أنها نزوات غير قاسية على كل حال.

إن زوجتي مولعة باللون الأزرق، وستطلب منك أن ترتدي ثوبًا بهذا اللون داخل المنزل في الصباح. وعلى كل حال لن تكوني مضطرة إلى تحمل نفقات شرائه، فلدينا واحد يخص ابنتنا العزيزة أليس (تعيش الآن في فيلادلفيا) والذي سيناسبك تمامًا كما أعتقد.

أما بالنسبة للجلوس هنا أو هناك أو تسلية نفسك بطريقة يُشار عليكِ بها، فلا حاجة لأن يسبب ذلك لكِ أي إزعاج. أما بالنسبة لشعرك، فهذه خسارة بلا

شك، فلقد لاحظت جماله في مقابلتنا القصيرة، لكني أخشى أنني مضطر إلى الإصرار على هذه النقطة، وأتمنى أن تعوضك زيادة الراتب عن تلك الخسارة. وواجباتك ناحية الطفل بسيطة للغاية.

الآن جربي أن تأتي، وسأقابلك بعربة صغيرة في وينشستر إذا أخبرتني بموعد وصول قطارك.

تحياتي..

جيفرو روكاسيل»

– هذا هو الخطاب الذي استلمته يا سيد هولمز، ولقد عزمت أمري على أن أقبل بتلك الوظيفة. ومع ذلك فكرت في استشارتك في هذا الأمر بأكمله قبل أن أقوم بالخطوة الأخيرة.

فقال هولمز مبتسمًا: حسنًا يا آنسة هانتر، إذا عزمتِ أمرك، فهذا يحسم الأمر.

– ولكن ألن تنصحني بالرفض؟

– أعترف بأنني ما كنت لأحب لأختي أن تتقدم لوظيفة كهذه.

– ما تفسيرك لكل هذا يا سيد هولمز؟

– آه، ليس لدي أي معلومات، وبالتالي لا يمكنني أن أفسر الأمر. ربما قد كونتِ بنفسك رأيًا عن الموضوع؟

– حسنًا، بالنسبة إليَّ يبدو أن هناك احتمالًا واحدًا فقط. بما أن السيد روكاسيل بدا طيبًا ولطيفًا للغاية، أليس من الممكن أن تكون زوجته مجنونة، وهو يحاول أن يبقي الأمر سرًّا خشية أن تدخل مستشفى الأمراض العقلية، ولذلك فهو يلبي نزواتها بكل طريقة كي يمنع انتشار الخبر؟

– هذا احتمال وارد، بل في الحقيقة وحسبما أرى يبدو أن هذا هو الأكثر احتمالية، لكن على أي حال لا يبدو منزلًا لطيفًا بالنسبة إلى سيدة شابة.

– لكن المال يا سيد هولمز، المال!

– حسنًا، نعم بالطبع الراتب جيد، بل جيد للغاية، وهذا ما يقلقني. لماذا يدفعون مئة وعشرين جنيهًا في السنة بينما يستطيعون الحصول على ما يريدون مقابل أربعين جنيهًا؟ لا بد أن هناك سببًا قويًّا وراء ذلك.

– لقد فكرت في أنني إذا أخبرتك بالملابسات، فإنك ستتفهم الأمر فيما بعد إذا احتجت لمساعدتك. سأشعر بأنني أقوى بكثير إذا شعرت بأنك تساندني.

– أوه، يمكنك الاطمئنان لهذا، وأؤكد لكِ أن مشكلتك الصغيرة تبشّر بأن تكون أكثر القضايا التي مرّت عليّ منذ بضعة شهور إثارة. فهناك شيء غريب بالتأكيد بخصوص بعض العناصر. إذا وجدتِ نفسك في حيرة أو خطر.

– خطر! ما الخطر الذي تتوقعه؟

هزّ هولمز رأسه بقوة قائلًا: لن يكون خطرًا إذا استطعنا معرفته، ولكن إذا أرسلتِ برقية في أي وقت سواء كان ليلًا أو نهارًا، فإنني سأحضر فورًا لمساعدتك.

قامت من مقعدها بسرعة وقد اختفى القلق الذي كان مرتسمًا على وجهها وقالت: يكفيني ذلك. سأذهب إلى هامبشير وأنا مطمئنة الآن. سأكتب إلى السيد روكاسيل الآن، كما سأضحي بشعري المسكين الليلة لأذهب غدًا إلى وينشستر.

أظهرت امتنانها لهولمز، ثم حيّتنا وانطلقت في طريقها بنشاط. فقلت ونحن نسمع خطواتها السريعة الثابتة تهبط الدرج، فقلتُ: على الأقل تبدو كشابة قادرة على الاعتناء بنفسها.

فقال هولمز باهتمام: وستحتاج إلى ذلك. سأكون مخطئًا بشكل كبير إن لم تراسلنا قبل انقضاء عدة أيام.

لم يمر وقت طويل قبل أن يتحقق توقع صديقي، حيث مر أسبوعان وكثيرًا ما وجدت نفسي خلالهما أفكر فيها وأتعجب من تلك التجربة الإنسانية الغريبة التي تخوضها تلك المرأة الوحيدة. الراتب الاستثنائي والظروف المثيرة للفضول والواجبات الخفيفة، كلها أشارت إلى شيء غير عادي، برغم صعوبة تحديد إذا ما كان الأمر نزوة أو مؤامرة، أو إذا كان الرجل محبًّا للخير أو شريرًا؟ كان ذلك يفوق قدراتي.

أما هولمز، فقد لاحظت أنه كثيرًا ما كان يجلس لنصف ساعة وهو شارد الذهن عاقد الحاجبين، وعندما ذكرت الموضوع أمامه لوّح بيده مقاطعًا كلامي وصاح قائلًا: المعلومات! المعلومات! المعلومات! لا يمكنني صنع الطوب دون طين.

وبالرغم من ذلك، دائمًا ما كان يختم الأمر وهو يتمتم بأنه لم يكن ينبغي على أخت له أن تقبل مثل هذه الوظيفة.

وصلت البرقية أخيرًا في وقت متأخر من إحدى الليالي وأنا على وشك الاستسلام للنوم، وكان هولمز يستعد لبعض أبحاثه الكيميائية التي ينغمس فيها أحيانًا طوال الليل، حيث أتركه منحنيًا على إناء تقطير وأنبوب اختبار لأعود في الصباح لتناول الإفطار وأجده على نفس الوضع.

فتح الظرف الأصفر وألقى نظرة سريعة على الرسالة، ثم رماها إلي قائلًا: تحقق من مواعيد القطارات في الدليل.

ثم عاد إلى دراساته الكيميائية. كان استدعاء قصيرًا وعاجلًا حيث قالت:

> **«أرجو أن تكون في فندق البجعة السوداء في وينشستر في ظهر الغد. تعال أرجوك! أنا في حيرة من أمري.**
>
> **- هانتر».**

سألني هولمز وهو يرفع رأسه للحظة عن الأنابيب: هل ستأتي معي؟

- أتمنى ذلك.

- فلتتفحص الدليل إذن.

فقلت وأنا أنظر إلى الدليل: هناك قطار في التاسعة والنصف، وسيصل وينشستر في الحادية عشرة والنصف.

- سيفي ذلك بالغرض تمامًا. من الأفضل إذن أن أؤجل تحليلي للأَسِتون، يتوجب علينا أن نكون في أفضل حالاتنا في الصباح.

في الساعة الحادية عشرة في اليوم التالي كنا قد قطعنا شوطًا كبيرًا تجاه عاصمة إنجلترا. وقد انهمك هولمز في قراءة الصحف الصباحية طوال الطريق، وعندما تجاوزنا حدود هامبشير، ألقى بالصحف بعيدًا وبدأ يستمتع بالمنظر. فلقد كان يومًا ربيعيًّا مثاليًّا، السماء زرقاء صافية وتتناثر فيها سحب بيضاء ناعمة تتحرك من الغرب إلى الشرق. وبالرغم من توهج الشمس في ذلك اليوم، فإننا شعرنا بلسعة برد في الجو، لكنها لسعة منعشة. على طول الطريق الريفي، ظهرت التلال حول ألديرشوت، وكذلك أسقف المزارع ذات اللون الأحمر والرمادي وسط اللون الأخضر للبراعم الجديدة. فصحت بحماسة رجل خرج لتوّه من ضباب شارع بيكر: أليست منعشة وجميلة؟

هزّ هولمز رأسه بوقار قائلًا: أتعرف يا واتسون؟ إن لعنة العقل لرجلٍ مفكر مثلي تضطرني إلى النظر إلى كل شيء من خلال موضوع تخصصي الخاص. فأنت تنظر إلى تلك المنازل المتناثرة وتنبهر بجمالها، بينما عندما أنظر إليها أنا فإن الفكرة الوحيدة التي تحضرني هي العزلة، واحتمالية أن تُرتكب جريمة هنا بسهولة.

فصحت: يا إلهي! من يمكنه أن يربط الجريمة بتلك البيوت القديمة الجميلة؟

- إنها دائمًا ما تملؤني برعب مؤكد. إن رأيي المبني على التجربة يا واتسون هو أن أكثر أزقة لندن حقارة ودناءة لا تحدث فيها جريمة مرعبة كتلك التي تحدث في الريف المبهج الجميل.

- أنت ترعبني.

- لكن السبب بدَهي للغاية. فضغط الرأي العام يمكنه أن يحقق في المدينة ما لا يمكن للقانون أن يحققه. فلا يوجد زقاق بالوضاعة التي لا تجعل صرخة طفل مُعذب، أو جلجلة سقوط سكير، تؤثر في الجيران وتثير تعاطفهم أو امتعاضهم. ولأن نظام العدل بأكمله قريب للغاية، فأي شكوى بسيطة تجعله يبدأ بالعمل فورًا، ولذلك فإن المسافة بين الجريمة والقفص قصيرة للغاية. لكن انظر لتلك المنازل المنعزلة، كل واحد في حقله الخاص، ممتلئة بأناس جهلة لا يعرفون الكثير عن القانون. فكر في الأفعال الجهنمية الوحشية والشر الخفي الذي قد يستمر في مثل هذه الأماكن لأعوام ولا يدري به أحد. فلو كانت السيدة التي طلبت مساعدتنا ذاهبة إلى وينشستر، لما خفت عليها أبدًا، لكن الخطر يكمن في تلك الأميال الخمسة من الريف. ومع ذلك، فإنه من الواضح أن الخطر لا يهددها شخصيًّا.

- نعم، فإذا استطاعت أن تأتي إلى وينشتسر لمقابلتنا، فهي تستطيع الهرب منهم.

- بالضبط، إنها تمتلك حريتها.

- فماذا قد يكون الأمر إذن؟ ألا تستطيع استنتاج أي تفسير؟

– لقد استنتجت سبعة تفسيرات منفصلة، يغطي كل منها الوقائع التي نعرفها، لكن لا يمكنني تحديد أيها الصحيح دون المعلومات الجديدة التي تنتظرنا بلا شك. حسنًا، ها هو برج الكاتدرائية، وستطلعنا قريبًا الآنسة هانتر على ما لديها.

كان فندق البجعة السوداء معروفًا في الشارع العام، ولا يبعد عن محطة القطار كثيرًا، وهناك وجدنا السيدة الشابة في انتظارنا، وقد حجزت لنا مكانًا لنجلس فيه، وغداؤنا ينتظرنا على الطاولة.

قالت بامتنان: أنا سعيدة للغاية بقدومك. إنه لأمر لطيف جدًّا منكما أن تأتيا. إنني لا أعرف ما يجب عليّ فعله في الحقيقة، وستكون نصيحتك غالية جدًّا.

– أرجو أن تخبرينا بكل ما حدث معك.

– سأخبرك، ويجب أن أفعل ذلك بسرعة لأنني وعدت السيد روكاسيل أنني سأرجع قبل الثالثة. لقد حصلت على إذن بالحضور إلى المدينة هذا الصباح، لكنه يعرف القليل جدًّا عن السبب.

– فلنسمع كل شيء بالترتيب الصحيح.

قالها هولمز ثم دفع ساقيه الطويلتين ناحية النار وأعد نفسه للاستماع.

– في البداية، يجب أن أقول إنه في المُجمل لم يُسئ السيد روكاسيل وزوجته معاملتي. أقول ذلك كي أكون منصفة، لكنني لا أستطيع فهمهما ولست مطمئنة إليهما.

– ما الذي لا تفهمينه؟

– أسباب تلك الأفعال، لكن يجب أن أقص عليك الأمر كله كما حدث. عندما وصلت إلى هنا، قابلني السيد روكاسيل واصطحبني بعربته إلى منزل الأشجار النحاسية. وهو يقع -كما قال- في موقع جميل، إلا أن المنزل ليس جميلًا في حد ذاته، رغم أنه مبني على مساحة كبيرة، ومدهون باللون الأبيض، فإنه مليء بالبقع نتيجةً للرطوبة وتقلب الطقس. تحيط به الغابات من ثلاث جهات، ومن الجهة الرابعة حقل ينحدر مئة خطوة تقريبًا وصولًا إلى طريق ساوثهامبتون السريع، والذي ينعطف مرة أخرى ليصل إلى باب المنزل. الحديقة الأمامية تخص المنزل، بينما الغابات التي تحيط بالمنزل تُعد جزءًا من محمية اللورد سوذرتون. وأمام باب قاعة المنزل تقف مجموعة شجر زان ذات أوراق نحاسية، والتي اكتسب المنزل اسمه منها.

أوصلني مديري -والذي كان ودودًا للغاية- وقدمني لزوجته والطفل. لم يصح الاستنتاج الذي بدا لنا في منزلك في شارع بيكر، فالسيدة روكاسيل لم تكن مجنونة. لقد وجدتها امرأة صامتة شاحبة، وأصغر من زوجها كثيرًا في العمر، فهي لا تتعدى الثلاثين، بينما لا يمكن أن يقل عمره عن خمسة وأربعين سنة.

واستطعت أن أستنتج من محادثتهما أنه كان متزوجًا قبلها لحوالي سبعة أعوام، وأنه أرمل، ولم ينجب من زوجته الأولى سوى ابنته التي ذهبت إلى فيلادلفيا. ولقد أخبرني السيد روكسيل على انفراد أن سبب مغادرتها كان كرهها غير المُبرر لزوجة أبيها. وبما أن الابنة لا يمكن أن تتجاوز العشرين، فيمكنني أن أتخيل صعوبة الحياة مع زوجة أبيها الشابة.

ولقد بدت لي السيدة روكاسيل عديمة الشخصية، لا تترك في المرء انطباعًا محددًا، فهي لم تؤثر فيَّ سواء إيجابًا أو سلبًا، وبدا أنها شخصية مهتزة. وكان من السهل أن أرى أنها متفانية بشكل كبير في خدمة زوجها وابنها. فعيناها الرماديتان لم تتوقفا عن التنقل بينهما لتراقب أي حاجةٍ صغيرة لهما، وتلبّيها إذا استطاعت. ولقد كان كذلك يعاملها بلطف بطريقته المبالغة الفجة، وفي المُجمل بدا أنهما زوجان سعيدان.

ومع ذلك، بدا أنها تدفن حزنًا بداخلها، فكثيرًا ما كانت تغرق في تفكير عميق ونظرة حزن شديد على وجهها. دخلت عليها فجأة أكثر من مرة لأجدها تبكي. ولقد فكرت في بعض الأحيان أن طباع ابنها هي سبب حزنها، فأنا لم أقابل مخلوقًا في مثل سوء طباعه، مُدلل بشدة، وسلوكه غاية في السوء. هو صغير الحجم بالنسبة لعمره، ولكن رأسه كبير بشكل لا يتناسب مع ذلك الجسم. ويبدو لي أنه قد قضى حياته كلها يتأرجح بين نوبات انفعال وحشية وفترات من الكآبة، فكرته الوحيدة عن التسلية هي إيذاء أي كائن أضعف منه، يبدي مهارة شديدة في التخطيط للإمساك بالفئران والطيور الصغيرة والحشرات، لكنني لا أفضل التحدث عن هذا المخلوق يا سيد هولمز، وفي الواقع ليست له علاقة كبيرة بقصتي».

علّق صديقي: أنا سعيد بكل التفاصيل سواء بدت لكِ متعلقة أو غير متعلقة بالقصة.

– سأحاول ألّا أنسى أي شيء مهم. الشيء الوحيد غير السار في المنزل والذي فاجأني مرة واحدة كان مظهر وتصرفات الخدم. وهما اثنان فقط، رجل وزوجته. تولر كان اسم الرجل، رجل خشن فظ أشيب الشعر، ودائمًا ما تفوح منه رائحة الشراب. ولقد رأيته مرتين منذ إقامتي معهم ثملًا، إلا أن السيد روكاسيل يبدو أنه لا يهتم بالأمر. أمّا زوجته فهي امرأة طويلة وقوية جدًّا وذات وجه بغيض، وصامتة دائمًا مثل السيدة روكاسيل، لكنها أقل كثيرًا منها لطفًا. إنهما زوجان كريهان للغاية، ولكن لحسن الحظ أقضي معظم وقتي في غرفة الحضانة أو في غرفتي الخاصة، وهما غرفتان متجاورتان في أحد أركان المبنى.

كانت حياتي هانئة للغاية لمدة يومين منذ وصولي إلى منزل الأشجار النحاسية، وفي اليوم الثالث نزلت السيدة روكاسيل بعد الإفطار مباشرة وهمست بشيء لزوجها. فقال زوجها: أوه، نعم! نحن ممتنون لكِ كثيرًا يا آنسة هانتر لأنك حققتِ نزوتنا الصغيرة فيما يتعلق بقص شعرك، وأؤكد لكِ أنه لم يقلل من مظهرك ولو قليلًا. وسنرى الآن كيف سيبدو عليكِ الفستان الأزرق. ستجدينه على السرير في غرفتك، ولو تكرمتِ وارتديتِه، سنكون ممتنين لكِ للغاية.

كان الثوب الذي وجدته بدرجة غريبة من الأزرق، مصنوعًا من خامة قماش ممتازة، لكنه حمل علامات واضحة تدل أنه قد لُبس من قبل. ناسبني مقاسه تمامًا، حتى كأنه مصنوع لي. وقد أبدى كل من السيد والسيدة روكاسيل سعادتهما بمظهره، والتي بدت مُبالغًا فيها بالنسبة إليّ. انتظراني في غرفة الرسم، وهي غرفة كبيرة للغاية تمتد على طول الواجهة الأمامية للمنزل، وفيها ثلاث نوافذ طويلة تصل إلى الأرض. وقد وُضع مقعد بالقرب من النافذة الوسطى وظهره ناحيتها، وطُلب مني أن أجلس في هذا المقعد. بعدها ذرع السيد روكاسيل الغرفة ذهابًا وإيابًا، وبدأ يقصّ عليّ سلسلة من أكثر القصص المضحكة التي استمعت إليها من قبل. لا يمكنكما تخيل كما كان مضحكًا، ضحكت حتى أُرهقت تمامًا.

أمّا السيدة روكاسيل، فلقد كان واضحًا أنها لا تتمتع بحس الدعابة، فهي لم تبتسم، بل جلست ويدها في حجرها وعلى وجهها نظرة حزينة قلقة. وبعد ساعة تقريبًا، قال السيد روكاسيل فجأة إنه قد حان وقت بدء الواجبات المنزلية، وأنه بإمكاني تغيير ثوبي والذهاب إلى إدوارد الصغير في الحضانة.

وبعد يومين قمنا بنفس العرض تحت نفس الظروف بالضبط. فمجددًا قمت بارتداء ثوبي، وجلست بجوار النافذة مرة أخرى، ومرة أخرى ضحكت من قلبي على القصص المضحكة التي امتلك ربّ عملي ذخيرة هائلة منها، والتي كان يقصّها بشكل لا يُضاهى، ثم أعطاني رواية ذات غلاف أصفر، وحرّك المقعد إلى الجانب قليلًا حتى لا يقع ظلي على الصفحة، وطلب أن أقرأ عليه بصوت مرتفع. بدأت في القراءة لمدة عشر دقائق حتى أمرني فجأة بالتوقف وأنا في وسط جملة، وأمرني كذلك بتغيير ملابسي.

يمكنك أن تتصور بسهولة يا سيد هولمز مدى فضولي لمعرفة معنى ذلك السلوك الغريب. ولقد لاحظت أنهما كانا حريصين للغاية على أن أدير وجهي بعيدًا عن النافذة، لذا تملكتني رغبة رؤية ما يحدث خلف ظهري، بدا الأمر مستحيلًا في البداية، إلا أنني سرعان ما توصلت إلى طريقة لتحقيق ذلك. فلقد كانت مرآة الكف الخاصة بي مكسورة، لذا توصلت إلى فكرة جيدة، فقمت بإخفاء جزء من الزجاج في منديلي، وفي المرة التالية، وفي وسط ضحكاتي، رفعت المنديل إلى الأعلى أمام عيني، وبالقليل من المهارة، استطعت رؤية كل ما يقع خلفي. وأعترف أنه قد خاب أملي، فلم يكن هناك أي شيء، أو على الأقل كان ذلك انطباعي الأول. فعندما نظرت مرة أخرى، لاحظت أن هناك رجلًا يقف في طريق ساوثهامبتون، كان رجلًا ضئيلًا ذا لحية، ويرتدي بزّة رمادية، وبدا أنه ينظر ناحيتي. وبالرغم من أن الشارع طريق عام، وعادة ما يكون هناك أناس فيه، فإن هذا الرجل كان يتكئ على السور الذي يحيط بحقلنا وينظر إلى أعلى بتركيز. خفضت منديلي ونظرت إلى السيدة روكاسيل، فوجدت عينيها مُثبّتة عليّ بنظرة متفحصة، وبالرغم من أنها لم تقل شيئًا، فإنني مقتنعة بأنها قد استنتجت أنني كنت أحمل مرآة في يدي، وأنني رأيت ما يحدث خلفي، فوقفت على الفور وقالت: جيفرو، هناك شخص وقح يحدق إلى الآنسة هانتر.

فسألني: هل هو أحد أصدقائك يا آنسة هانتر؟

– لا، لا أعرف أحدًا في هذه المنطقة.

– يا إلهي! يا لها من وقاحة! أرجو أن تلتفتي، وتشيري إليه كي يبتعد.

– بالتأكيد سيكون من الأفضل ألا نعيره انتباهًا.

– لا، لا! فحينها سيتسكع هنا طوال الوقت. أرجو أن تستديري وتلوّحي له هكذا كي يبتعد.

ففعلت مثلما طلب مني، وفي نفس اللحظة أغلقت السيدة روكاسيل الستارة. حدث ذلك منذ أسبوع، ومنذ ذلك الوقت لم أجلس ثانية أمام النافذة، ولا ارتديت الفستان الأزرق، ولا رأيت الرجل الذي كان في الشارع».

فقال هولمز: أرجو أن تستمري، فروايتك تبشر بأنها من القصص الأكثر إثارة للاهتمام.

– لكن أخشى أنك ستجدها غير مترابطة، وقد يتضح أنه لا توجد علاقة بين الحوادث المختلفة التي أقصّها. ففي أول يوم في منزل الأشجار النحاسية، أخذني السيد روكاسيل إلى ملحق خارجي صغير يقع

بجوار باب المطبخ. وفيما كنّا نقترب، سمعت صليلًا حادًّا لسلسلة وصوت حيوان ضخم يتحرك في المكان. فقال السيد روكاسيل وهو يشير إلى شق بين لوحين خشبيين: انظري هنا، أليس مخلوقًا جميلًا؟

نظرت بينهما، فوجدت عينين لامعتين وجسم غير واضح رابض في الظلام. فوثبت مرعوبة ليقول ربّ عملي ضاحكًا: لا تخافي، إنه كلبي كارلو. أدّعي أنه كلبي، لكن في الواقع خادمي تولر العجوز هو الوحيد الذي يمكنه التعامل معه. نطعمه مرة واحدة في اليوم، ولا نكثر فيها الطعام ليظل يقظًا. يطلقه تولر كل ليلة، وليساعد الله أي متسلل يقع تحت أنيابه. لذا، وبحق الإله، لا تخرجي من عتبة الباب في الليل تحت أي ظرف، فقد تخسرين حياتك مقابل ذلك.

ولم يكن التحذير فارغًا، فبعد ليلتين كنت أنظر خارج نافذة غرفة نومي في الثانية صباحًا تقريبًا، وقد كانت ليلة جميلة سطع فيها القمر وألقى بنوره على العشب أمام المنزل لأراه كما لو كنت في النهار تقريبًا. وقفت مستغرقة في الجمال المُسالم للمشهد عندما لاحظت أن شيئًا يتحرك في ظل الأشجار النحاسية. وعندما خرج إلى ضوء القمر، رأيته، كلبٌ عملاق في حجم العجل، لونه بني فاتح وله شحمة تتدلى من ذقنه، خطمه أسود، وعظامه ضخمة بارزة. تمشّى ببطء على العشب، واختفى في الظل عند الجانب الآخر. ولقد بثّ ذلك الحارس المخيف في قلبي الرعب أكثر مما قد يفعل أي لصّ.

والآن لدي تجربة غريبة جدًّا لأخبرك بها. كما تعلم، قد قصصت شعري في لندن، ووضعته في لفة كبيرة في قاع صندوق ملابسي. ذات مساء، وبعد أن ذهب الطفل إلى النوم، بدأت أسلي نفسي بتفحص أثاث غرفتي وإعادة ترتيب أغراضي البسيطة. في الغرفة صندوق ملابس قديم بثلاثة أدراج. الدرجان العلويان فارغان ومفتوحان، أما السفلي فقد كان مُغلقًا. ملأت الدرجين الأول والثاني بملابسي الكتّانية، وانزعجت لعدم تمكني من استخدام الدرج الثالث، حيث ما زال لدي الكثير من الأغراض التي أودّ وضعها. خطر ببالي أنه ربما قد أُغلِقَ سهوًا، فأخذت سلسلة مفاتيحي وحاولت فتحه، كان أول مفتاح مناسبًا تمامًا وفتحت الدرج. كان فيه شيء واحد، ولكنني متأكدة أنك لن تستطيع تخمين ما هو أبدًا.. لقد كانت لفّة شعري.

أخرجتها وتفحصتها، نفس اللون والسُمك، لكن بعدها اقتنعت باستحالة حدوث ذلك، فكيف يمكن أن يُغلق الدرج على لفّة شعري؟ بيدين مرتعشتين أخرجت محتويات صندوقي لأسحب شعري من قاعه. وضعت الضفيرتين معًا، وأؤكد لك أنهما متطابقتان تمامًا. أليس هذا أمرًا غريبًا للغاية؟ تملكتني الحيرة ولم أتمكن من فهم معنى ذلك. أعدت الشعر الغريب إلى الدرج، ولم أخبر الزوجين روكاسيل بأي شيء لأنني شعرت أنني قد أضع نفسي في موضع لوم لأنني فتحت الدرج الذي أغلقاه.

إنني حادة الملاحظة بطبيعتي كما قد تلاحظ يا سيد هولمز، وهكذا فسرعان ما رسمت مُخططًا جيدًا للمنزل في عقلي، وقد بدا أن هناك جناحًا غير مُستخدم على الإطلاق. وكان الباب المواجه للباب الذي يقود إلى سكن الزوجين تولر يُفتح على هذا الجناح، ولكنه كان مغلقًا دائمًا. ومع ذلك، فذات يوم وبينما كنت أصعد الدرج، قابلت السيد روكاسيل خارجًا من ذلك الباب ومفاتيحه في يده وعلى وجهه نظرة جعلته شخصًا مختلفًا عن ذلك البشوش اللطيف الذي تعودت عليه. فقد احمرّ خدّاه، وعقد حاجبيه في غضب، ونفرت عروق جبهته في انفعال. وأغلق الباب ومرّ بجواري مسرعًا دون أن ينطق بكلمة أو بنظرة حتى.

أثار ذلك فضولي، لذلك عندما خرجت لأتنزه في الحديقة مع الطفل، تمشيت حتى وصلت إلى الجانب الذي يمكنني أن أرى منه نوافذ ذلك الجزء من المنزل. كان هناك صف من أربع نوافذ؛ ثلاث منها كانت متسخة، أما الرابعة فكانت مُغلقة بمصاريع. كان من الواضح أنها مهجورة بشكل كامل. وبينما تمشيت ذهابًا وإيابًا ناظرة إليها من حين إلى آخر، خرج إليّ السيد روكاسيل باديًا عليه المرح والسعادة المعتادين وقال: آه! أرجو ألا تعتبريني وقحًا لأنني مررت بجوارك دون أن أكلمك يا سيدتي العزيزة، فلقد كان ذهني مشغولًا بأمور العمل.

فأكدت له أنني لم أعتبرها إهانة. وقلت: بالمناسبة، يبدو أن هناك جناحًا من الغرف الفارغة هناك، وأن أحدها مُغلق بإحكام.

ظهرت عليه المفاجأة -وكما بدا لي- أجفل من ملاحظتي وقال: إن التصوير إحدى هواياتي، ولقد أعددت غرفتي المظلمة هناك في الأعلى، لكن يا إلهي! يا لكِ من شابة قوية الملاحظة! من كان ليصدق ذلك؟ من كان ليصدق ذلك أبدًا؟

حملت نبرته الدعابة، لكنني لم أر في عينيه عندما نظر إليّ أي دعابة، بل قرأت فيهما الحنق والضيق وليس الدعابة.

حسنًا يا سيد هولمز، منذ تلك اللحظة فهمت أن هناك شيئًا بخصوص هذا الجناح لا يريدونني أن أعرفه، ولقد كنت على أحرّ من الجمر لأكتشف ذلك الشيء. فلم يكن الأمر فضولًا فحسب -رغم أنني فضولية- بل كان شعورًا بالواجب. شعور بأن شيئًا جيدًا قد يحدث إذا اقتحمت ذلك المكان. يتحدث الناس عن غريزة المرأة، ربما كانت غريزة المرأة هي ما أمدتني بذلك الشعور. أيًّا كان السبب، فلقد كان الشعور قويًّا وانتظرت في ترقّب شديد لأية فرصة تسمح لي بعبور ذلك الباب المُحرّم. ولقد واتتني الفرصة بالأمس فقط.

كذلك يمكنني أن أقول إنه بالإضافة إلى السيد روكاسيل، فإن تولر وزوجته يفعلان شيئًا ما في هذه الغرف المهجورة، فلقد رأيت تولر مرة وهو يحمل حقيبة كبيرة من الكتان الأسود ويعبر بها الباب. ومؤخرًا أصبح يشرب كثيرًا، وبالأمس كان ثملًا للغاية، ولذلك عندما صعدت إلى الدور العلوي ووجدت المفتاح في الباب، لم أشكّ على الإطلاق في أنه قد نسيه هناك. كان السيد والسيدة روكاسيل في الطابق السفلي ومعهما الطفل، وبالتالي كانت فرصة رائعة. فأدرت المفتاح برفق في القفل، وفتحت الباب ودخلت منه.

كان أمامي ممر صغير غير مغطى بالورق ولا مفروش بالسجاد، ينتهي بعطفة قائمة. وبالقرب من تلك الزاوية، اصطفت ثلاثة أبواب؛ الأول والثالث مفتوحان ويفضي كل منهما إلى غرفة خالية كئيبة ومليئة بالغبار، وفي إحداهما نافذتان، وفي الأخرى واحدة. ولقد ملأهما الغبار لدرجة أن ضوء المساء كان يومض عبرهما بخفوت. أما الأوسط، فلقد كان مغلقًا وقد ثُبِّت عليه عمود عريض لسرير حديدي على الجزء الخارجي منه بالكامل، وقد ثُبت العمود من إحدى نهايتيه في حلقة في الحائط، ورُبط من النهاية الأخرى بحبل متين. وكان الباب نفسه مُغلقًا بقفل كذلك، ولم يكن المفتاح موجودًا. ولقد توافق هذا الباب المُحصّن تمامًا مع النافذة المُغلقة بالمصاريع بالخارج. وبالرغم من ذلك تمكنت من رؤية ضوء من

تحت الباب يدلّ على أن الغرفة لم تكن مظلمة. بالتأكيد هناك فتحة في السقف تسمح بدخول الضوء من أعلى. وبينما كنت أقف في الممر أحدق إلى الباب المشؤوم، وأتساءل عن السر الذي يحجبه، سمعت فجأة صوت خطوات داخل الغرفة، ورأيت ظلًّا يتحرك ذهابًا وإيابًا من خلال الشق الصغير تحت الباب. اعتراني رعب شديد فور رؤيتي لذلك يا سيد هولمز، وخانتني أعصابي المتوترة فجأة، فاستدرت وجريت.. جريت كما لو أن يد الموت تحاول الإمساك بطرف ثوبي. قطعت الممر بسرعة، وخرجت من الباب مباشرة لأجد نفسي بين ذراعي السيد روكاسيل الذي كان ينتظر في الخارج.

فقال مبتسمًا: لقد كنتِ أنتِ إذن. لقد اعتقدت أنه لا بد أن يكون أنتِ عندما رأيت الباب مفتوحًا.

فلهثت قائلة: أوه، إنني خائفة للغاية!

فقال بطريقة لطيفة ومُهدئة بشكل لا يمكنك تصوره: سيدتي العزيزة! سيدتي العزيزة! ما الذي أخافك يا سيدتي العزيزة؟

ولكنه بالغَ في إظهار عطفه وظهر ذلك في نبرات صوته، لذا أخذت حذري منه وأجبته قائلة: لقد كنت حمقاء بما يكفي كي أدخل الجناح الخالي، كانَ موحشًا ومخيفًا للغاية في ذلك الضوء الخافت، فخفت وخرجت مرة أخرى. أوه، إن المكان بالداخل يسوده السكون بشكل مخيف للغاية.

فسألني وهو ينظر إليّ مُتفحصًا: هذا فقط ما أخافك؟

فسألته: لماذا؟ ماذا كنت تعتقد؟

– ولماذا تظنين أنني أغلق الباب بالقفل؟

– لا أعرف بالتأكيد.

– إنه لمنع هؤلاء الذين ليس لهم علاقة به من الدخول. هل فهمتِ؟

قال ذلك وهو لا يزال يبتسم بودٍّ شديد، فقلت: لو كنت أعلم، فإنني بالتأكيد...

فقاطعني: حسنًا إذن، أنت تعلمين الآن، ولو خطت قدمك هذه العتبة مرة أخرى..

وهنا قست ابتسامته فورًا، وتحولت إلى تكشيرة غاضبة، وحملق فيّ بوجه شيطاني وأنهى جملته قائلًا: سأرميكِ إلى الكلب.

كنت خائفة للغاية لدرجة جعلتني لا أتذكّر ما فعلت. أعتقد أنني أسرعت متجاوزة إياه إلى غرفتي. فأنا لا أتذكر شيئًا بعدها حتى وجدت نفسي راقدة على السرير وجسدي كله يرتعد. وبعدها فكرت فيك يا سيد هولمز. إذ لم يعد بمقدرتي الاستمرار في الإقامة هناك دون نصائحك. لقد كنت خائفة من المنزل والرجل والمرأة والخدم، بل من الطفل. لقد شعرت بالرعب منهم جميعًا، وفكرت أنني لو استطعت إحضارك فقط، فإن كل شيء سيكون على ما يرام.

بالطبع كان بإمكاني الهروب من المنزل، لكن تساوى فضولي مع خوفي تقريبًا. وسريعًا ما اتخذت قراري بأن أرسل إليك برقية. فارتديت قبعتي ومعطفي واتجهت إلى مكتب البريد الذي يبعد عن المنزل حوالي نصف ميل، ثم عدت مرة أخرى وأنا أشعر براحة أكبر.

ولقد خطر على ذهني خاطر مرعب حين اقتربت من المنزل؛ أن الكلب قد يكون طليقًا، لكنني تذكرت أن تولر قد شرب حتى غاب عقله ذلك المساء، وكنت أعرف أنه الوحيد في المنزل الذي يتعامل مع الكائن الوحشي، والوحيد الذي بإمكانه أن يطلق سراحه، فتسللت إلى المنزل بأمان، وبقيت مستيقظة نصف الليل من البهجة بفكرة أنني سأراك في اليوم التالي. ولم أواجه أي صعوبة في الحصول على إذن بالقدوم إلى وينشستر هذا الصباح، لكن يجب عليّ العودة قبل الثالثة لأن السيد والسيدة روكاسيل سيخرجان، وسيقضيان المساء كله بالخارج، لذا يجب أن أعتني بالطفل.

الآن قد أخبرتك يا سيد هولمز بكل مغامراتي، وسأكون في غاية السعادة إذا أخبرتني بمعنى كل ذلك، وقبل كل شيء ما الذي يجب عليّ فعله».

استمعنا أنا وهولمز إلى هذه القصة الغريبة بإنصات شديد. والآن وقف صديقي وأخذ يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا واضعًا يديه في جيبيه وعلى وجهه تعبير شديد الصرامة، ثم سأل: هل لا زال تولر ثملًا؟

– نعم، لقد سمعت زوجته تخبر السيدة روكاسيل بأنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا معه.

– هذا جيد. والزوجان روكاسيل سيخرجان الليلة؟

– نعم.

– هل هناك قبو بقفل قوي؟

– نعم، قبو النبيذ.

– يبدو لي أنكِ قد تصرفتِ في هذا الأمر كفتاة عاقلة وشجاعة للغاية يا آنسة هانتر. هل تعتقدين أنكِ قادرة على القيام بعمل شجاع آخر؟ لم أكن لأطلب منكِ هذا العمل لو لم أعتقد أنكِ امرأة استثنائية.

– سأحاول، لكن ما هو؟

– سنكون أنا وصديقي في منزل الأشجار النحاسية في تمام السابعة، وسيكون الزوجان قد خرجا بحلول ذلك الوقت، ونأمل أن يكون تولر غائبًا عن الوعي. وبالتالي لن يبقى سوى السيدة تولر فقط قادرةً على تحذيرهم. إذا استطعتِ أن ترسليها إلى القبو لأي طلب ثم أغلقتِ عليها القفل، سيسهل ذلك الأمور بشكل كبير.

– سأفعل ذلك.

– ممتاز! سندرس الأمر إذن. إنني أجد تفسيرًا واحدًا ممكنًا. لقد تم إحضارك إلى هناك كي تنتحلي شخصية شخص ما، وهذا الشخص مسجون في هذه الغرفة. هذا بدَهي! أما بالنسبة لشخصية هذا السجين، فإنها بلا شك الابنة، الآنسة آليس روكاسيل التي قيل إنها في أمريكا على ما أذكر. ولقد تم اختيارك بلا شك لأنك تشبهينها في الطول والجسم ولون الشعر. ولقد تم قص شعرها غالبًا بسبب مرضٍ ما، ولهذا كان يجب التضحية بشعرك كذلك. وبالمصادفة البحتة عثرتِ على ضفيرتها. أما الرجل الواقف في الطريق، فإنه بلا شك صديق لها ومن الممكن أن يكون خطيبها، وبلا شك بما أنكِ قد ارتديتِ فستان الفتاة، وتشبهينها كثيرًا، فلقد اقتنع بسبب ضحكاتك كلما رآكِ، وبسبب إشارتك له بالابتعاد بأن

الآنسة روكاسيل سعيدة للغاية، وأنها لم تعد تريده. وكذلك يتركون الكلب حرًّا في الليل كي يمنعوه من الاتصال بها. كل ذلك واضح، أما أخطر نقطة في القضية فهي طبيعة الطفل.

فتعجبت قائلًا: ما علاقة هذا بالقضية بحق الإله؟

– عزيزي واتسون، أنت كطبيب دائمًا ما تتعرف على ميول الطفل من خلال دراسة أبويه. ألا ترى أن العكس صحيح كذلك؟ فأنا عادة ما أحصل على معرفتي الأولى بشخصية الأبوين من خلال دراسة أطفالهما. طباع هذا الطفل قاسية بشكل غريب. فهي قاسية لأجل القسوة في حد ذاتها، وسواء اكتسب هذا الأمر من أبيه المبتسم –كما أعتقد– أو من أمه، فإن هذا نذير شرّ بالنسبة للفتاة المسكينة المحبوسة تحت سُلطتهما.

صاحت عميلتنا: أنا على يقين بأنك على حق يا سيد هولمز. لقد تذكرت الآن ألف موقف تؤكد بأنك قد أصبت تمامًا. أوه، يجب ألا نضيع لحظة قبل مساعدة هذا الكائن المسكين.

– يجب أن نأخذ حذرنا، فنحن نتعامل مع رجل ماكر للغاية. لا يمكننا أن نفعل أي شيء حتى السابعة مساءً. وفي ذلك الوقت سنكون معكِ، ولن يمضي وقت طويل قبل أن نحلّ اللغز.

أوفينا بوعدنا، حيث وصلنا منزل الأشجار النحاسية في السابعة بالضبط بعد أن نصبنا الفخ في منزل عام على جانب الطريق. كانت مجموعة الأشجار بأوراقها الداكنة والتي تلمع كمعدن مصقول تحت الشمس الغاربة كافية لتميز المنزل، حتى وإن لم تكن الآنسة هانتر واقفة على عتبة الباب مبتسمة.

سألها هولمز: هل تمكنتِ من إتمام الأمر؟

سمعنا ضوضاء مكتومة آتية من مكانٍ من الأسفل، فقالت: هذه السيدة تولر في القبو. وزوجها يغطّ في نومه على سجادة المطبخ. ها هي مفاتيحه، وهي نسخة مطابقة لمفاتيح السيد روكاسيل.

فصاح هولمز بحماسة: لقد تصرفتِ بشكل جيد حقًّا. والآن تقدمي الطريق، وقريبًا سننهي هذا الأمر الشرير.

صعدنا الدرج وفتحنا الباب وتجاوزنا الممر، فوجدنا أنفسنا أمام الحاجز الذي وصفته الآنسة هانتر، فقطع هولمز الحبل وأزال العمود الحاجز. وبعدها جرّب مفاتيح مختلفة في القفل، لكن بلا فائدة، ولم يأتِ صوت من الداخل، فاكفهرّ وجه هولمز في ذلك الصمت وقال: أرجو ألا نكون قد تأخرنا. أعتقد يا آنسة هانتر أنه من الأفضل أن ندخل دونك. والآن يا واتسون، ادفعه بكتفك، ولنرَ إن كنا سنستطيع اقتحام الغرفة.

كان بابًا متهالكًا، استسلم فورًا أمام قوتنا المتحدة، فاندفعنا معًا إلى الغرفة. فوجدناها شبه خالية! ليس بها سوى فراش ضيق من القش وطاولة صغيرة وسلة مليئة بالملابس الكتانية. وكانت نافذة السقف مفتوحة والسجينة غير موجودة.

قال هولمز: لقد وقع شيء حقير هنا. لقد خمّن ذلك المخادع نية الآنسة هانتر، فهرب بضحيته.

– لكن كيف؟

– سنرى حالًا كيف فعل ذلك عبر فتحة السقف.

ثم أرجح نفسه من النافذة حتى وصل إلى السقف.

ثم صاح: آه، نعم! ها هي علامات خفيفة لنهاية سلم طويل على حافة السطح. هذه هي طريقة قيامه بالأمر.

قالت الآنسة هانتر: لكن هذا مستحيل. لم يكن السلم موجودًا هناك عندما غادر الزوجان روكاسيل.

– لقد عاد وفعل ذلك. لقد قلت لكِ إنه رجل ماكر وخطير، ولن أكون مندهشًا إذا كان هو من أسمع خطواته على الدرج الآن. أعتقد يا واتسون أن هذا وقت مناسب لتجهز مسدسك.

لم تكد الكلمات تخرج من فمه حتى ظهر بالباب رجل بدين ضخم الجثة في يده عصا غليظة. صرخت الآنسة هانتر عندما شاهدته وانكمشت إلى الجدار، بينما وثب شيرلوك هولمز أمامه وواجهه قائلًا: أيها الشرير! أين ابنتك؟

دار الرجل بعينيه في الغرفة وصولًا إلى النافذة المفتوحة في الأعلى، ثم صرخ قائلًا: يجب أن أسأل أنا هذا السؤال أيها اللصوص! جواسيس ولصوص! لقد قبضت عليكم، أليس كذلك؟ أنتم تحت رحمتي الآن، وسأعاقبكم!

استدار وهبط الدرج بأقصى ما يمكنه من قوة، فصاحت الآنسة هانتر: لقد ذهب ليحضر الكلب!

فقلت: لا تخافي، معي مسدسي.

صاح هولمز: من الأفضل أن نغلق الباب الأمامي.

فاندفعنا جميعًا ننزل الدرج معًا، ولم نكد نصل إلى الصالة حتى سمعنا نباح كلب، وبعد ذلك سمعنا صرخة ألم مرعبة، واندفع من الباب الجانبي رجل عجوز وجهه أحمر ترتعد أوصاله وصاح: يا إلهي! لقد أطلق أحدهم سراح الكلب. إنه لم يتناول الطعام منذ يومين. أسرعوا، أسرعوا وإلا فات الأوان!

أسرعت أنا وهولمز إلى الخارج، وبعد أن درنا حول المنزل وخلفنا تولر مسرعًا، وجدنا الوحش الضخم، وخطمه الأسود مدفون في حلق روكاسيل وهو يصرخ ويتلوى على الأرض. فاندفعت جريًا وفجّرت رأس الكلب، فسقط وأنيابه البيضاء ما زالت مطبقة على نهاية رقبة الرجل. استطعنا بعد عناء أن نفصل عنقه عن فك الكلب، وحملناه إلى المنزل وهو على قيد الحياة، لكنه كان مشوّهًا بشدة. وضعناه على أريكة غرفة الرسم، وأرسلنا تولر الذي استفاق ليخبر زوجته بالخبر، ثم قمت بما أستطيع لأخفف ألمه. كنا مجتمعين حوله كلنا حين دخلت الغرفة امرأة طويلة كئيبة، فصاحت الآنسة هانتر: السيدة تولر؟

– نعم يا آنسة. لقد أخرجني السيد روكاسيل عندما عاد قبل أن يصعد إليكم. آه، إنه شيء مؤسف يا آنسة أنكِ لم تخبريني بما كنتِ تخططين لفعله، لأنني كنت سأخبرك عندئذ أن جهودك ستكون بلا فائدة.

فقال هولمز وهو يتفحصها: ها! من الواضح أن السيدة تولر تعلم عن الموضوع أكثر من أي شخص آخر.

– نعم يا سيدي، وأنا على استعداد كافٍ لإخبارك بما أعرف.

– إذن أرجو أن تجلسي ولنسمع ما لديك. فأنا أعترف بأن هناك بعض النقاط التي لم تتضح بالنسبة لي حتى الآن.

فقالت: سأوضحها لك الآن، وكنت لأفعل ذلك قبل الآن لو استطعت الخروج من القبو. وإذا وصل الأمر إلى الشرطة والمحكمة، فتذكّر أنني من وقفت كصديقة لك، وأنني كنت صديقة للآنسة آليس كذلك. إن الآنسة «آليس» لم تكن سعيدة على الإطلاق في المنزل منذ أن تزوج أبوها مرة أخرى. لقد تجاهلها ولم يكن لها رأي في أي شيء، لكن لم يصبح الأمر سيئًا بالفعل بالنسبة لها إلا بعدما قابلت السيد فاولر في منزل صديق. فعلى حد علمي، للآنسة آليس حقوقها الخاصة وفقًا للوصية، لكنها كانت هادئة وصبور للغاية لدرجة أنها لم تتحدث بكلمة، وتركت كل شيء بين يدي السيد روكاسيل، وكان يأمن جانبها، لكن عندما أصبحت هناك فرصة لزوج قد يتقدم ويطالب بكل ما يحق لها بالقانون، فكر والدها بأن من الأفضل أن ينهي ذلك الأمر، فطلب منها أن توقّع على ورقة حتى يستطيع أن يستخدم أموالها سواء تزوجت أم لم تتزوج. وعندما رفضت فعل ذلك، استمر في إزعاجها حتى أصيبت بحمى الدماغ وظلت لستة أسابيع على مشارف الموت، لكنها تحسّنت أخيرًا، لكنها فقدت الكثير من الوزن وتحوّلت إلى ظل، وشعرها الجميل تم قصّه، لكن كل هذا لم يغيّر موقف صديقها الشاب، فتمسك بها كما يفعل الرجل الحقيقي.

قال هولمز: آه، أعتقد الآن بأن ما تكرمتِ وأخبرتِنا به يوضّح الأمر تمامًا، ويمكنني استنتاج الباقي. أفترض أن السيد روكاسيل اعتمد نظام الحبس ذلك.

– نعم يا سيدي.

– وأحضر الآنسة هانتر من لندن كي يتخلص من وجود السيد فاولر غير المرغوب فيه.

– هذا ما حدث يا سيدي.

– لكن لأن السيد فاولر رجل مثابر –كما يجب أن يكون أي بحّار– فقد حاصر المنزل، ونجح حين قابلك أن يقنعك بحجج معينة سواء كانت قوية أم لا بأن من مصلحتك أن تساعديه.

قالت السيدة تولر بصدق: إن السيد فاولر رجل سخي اليد وطيب الكلام.

– وبهذه الطريقة استطاع أن يجعل رجلك الطيب ثملًا، وأنه سيكون هناك سلم جاهز لحظة مغادرة سيدك.

– أصبت يا سيدي، هذا ما حدث بالضبط.

فقال: أعتقد أننا ندين لكِ باعتذار يا آنسة تولر، فلقد أوضحتِ كل شيء كان يحيّرنا بالتأكيد. وها هو جرّاح الريف والسيدة روكاسيل قادمين، لذا أعتقد يا واتسون أنه من الأفضل أن نرافق الآنسة هانتر ونعود إلى وينشستر، فلقد أصبح وجودنا هنا مريبًا.

وهكذا حُلَّ لغز المنزل المشؤوم الذي تقف أمامه الأشجار النحاسية. ولقد نجا السيد روكاسيل، لكنه ظل مشوهًا وبقي حيًّا بفضل رعاية زوجته المخلصة فقط. وسيعيشان مع خادميهما اللذين يعرفان عن تاريخ روكاسيل الكثير بحيث يجد صعوبة في التخلص منهما.

ولقد تزوّج السيد فاولر والآنسة روكاسيل برخصة خاصة في ساوثهامبتون في اليوم التالي لهروبهما، وهو يعمل الآن في وظيفة حكومية في جزيرة موريشيوس. أما بالنسبة للآنسة فيوليت هانتر، فللأسف صديقي هولمز لم يبدِ لها أي اهتمام بمجرد أن توقفت عن كونها مركزًا لإحدى قضاياه. وهي الآن تعمل مديرة لمدرسة خاصة في والسال حيث لاقت قدرًا كبيرًا من النجاح كما أعتقد.

الرجل ذو الشّفة الملتوية

كان ويتني -وهو أخ للراحل إلياس ويتني، مدير كلية اللاهوت في جامعة سانت جورج- مُدمنًا على الأفيون. ولقد وقع في الإدمان -كما فهمت- نتيجة نزوة حمقاء عندما كان في الكلية. حيث قرأ وصف الكاتب دي كوينسي لأحلامه وأحاسيسه، فاستعان بالتبغ المخلوط بالأفيون في محاولة للحصول على نفس التجربة. ولقد اكتشف -مثلما اكتشف كثيرون من قبله- بأن التخلّص من هذه العادة ليس بسهولة الوقوع فيها. ولسنوات عديدة، استمر عبدًا لذلك المُخدر، وأصبح مصدرًا للرعب والشفقة لكل أصدقائه وأقاربه. يمكنني أن أتخيله الآن بوجهٍ أصفر شاحب، وجفنين ذابلين، وبؤبؤي عينين ثابتين، يتكوم في أحد الكراسي حطامًا وأطلال رجلٍ نبيل.

وفي إحدى ليالي يونيو عام 1889، دقَّ الجرس في الوقت الذي يبدأ فيه المرء بالتثاؤب والنظر في ساعته. فاعتدلت في مقعدي، ووضعت زوجتي ما تحوكه بإبرتها في حجرها، وظهر على وجهها الإحباط قائلة: مريض! ستضطر للخروج.

تأففت لأنني كنتُ قد عدت للتوّ من يوم عمل مُرهق. سمعنا صوت الباب يُفتح وبضع كلمات سريعة، وبعدها بضع خطوات ثم فُتح باب الغرفة، دخلَت سيدة تغطي رأسها، وتلتفّ بشيء داكن اللون، وبدأت حديثها قائلة: أرجو أن تعذروني لزيارتي في مثل هذا الوقت المتأخر.

ثم فقدت أعصابها فجأة، واندفعت إلى الأمام لتلقي بذراعيها حول عنق زوجتي وهي تبكي على كتفيها قائلة: أوه، أنا في مشكلة كبيرة، وأحتاج إلى المساعدة.

فقالت زوجتي وهي ترفع عنها غطاء رأسها: يا للعجب! إنها كايت ويتني. لقد أخفتني يا كايت! لم أكن أعرف أنه أنتِ عندما دخلتِ علينا.

- لم أعرف ماذا أفعل، لذا أتيت إليكِ مباشرة.

لطالما كان الوضع كذلك، فالناس في حزنهم يأتون إلى زوجتي، كما تذهب الطيور إلى المنارات المضيئة في الليالي المظلمة.

- لقد كان من الجميل أن تأتي. الآن، يجب أن تشربي بعض النبيذ والماء، ثم تجلسين هنا على راحتك لتخبرينا بكل شيء. أم لعلك تفضلين أن أطلب من جون أن يذهب للنوم؟

- أوه، لا، لا! أنا أريد نصيحة الدكتور ومساعدته كذلك. الأمر يتعلق بعيسى، فهو لم يأتِ للمنزل منذ يومين، وأنا خائفة عليه كثيرًا.

لم تكن هذه المرة الأولى التي تتحدث فيها عن زوجها؛ معي بصفتي طبيبًا، ومع زوجتي بصفتها صديقة قديمة، وزميلة دراسة. حاولنا تهدئتها والتخفيف عنها بكل ما وجدنا من كلمات. سألنا إن كانت تعرف مكان زوجها؟ وهل كان من الممكن أن نعيده إليها؟

بدا أن ذلك ممكنًا، فلقد امتلكت معلومات مؤكدة بأن زوجها عندما انتابته النوبة في المرة الأخيرة، ذهب إلى وكر الأفيون في أقصى شرق المدينة. كانت نوباته تقتصر على يوم واحد يذهب فيه إلى ذلك الوكر، ثم يعود في المساء إلى المنزل مرتعشًا ومُحطمًا. أما الآن، فهو تحت تأثير المخدر لثمانٍ وأربعين ساعة، ولا بد أنه يرقد هناك الآن بين حثالة المجرمين، ويستنشق السم أو ينام حتى تزول آثاره. كانت

متأكدة أنه هناك في حانة جولد في نهاية زقاق سواندام، لكن ما الذي يمكنها فعله؟ كيف يمكنها، وهي الشابة الخجول أن تشق طريقها في مثل ذلك المكان لتخرج زوجها من بين الأشرار الذين يحيطون به؟

تلك كانت المشكلة، وبالطبع لم يكن أمامي سوى حل واحد. فهل بإمكاني ألّا أرافقها إلى ذلك المكان؟ وبعد تفكير تساءلت لماذا يجب عليها أن تأتي من الأساس؟ لقد كنت الطبيب الخاص بعيسى ويتني، لذا لديّ سلطة عليه، كما أنني سأتمكن من التعامل معه بشكل أفضل إذا كنت وحيدًا. وعدتها بأن أرسله إلى المنزل بسيارة أجرة في خلال ساعتين إذا كان في ذلك العنوان الذي أعطته لي. ولذا، وفي غضون عشر دقائق، تركت مقعدي المريح وغرفة جلوسي المُبهجة، وانطلقت شرقًا في عربة صغيرة في مهمة غريبة كما بدت لي وقتها، لكن المستقبل وحده هو ما أظهر مدى غرابتها.

لم يكن هناك أي صعوبات في المرحلة الأولى من مغامرتي. فزقاق سواندام ممرّ حقير يقع خلف أرصفة الميناء العالية، والتي تصطف على الجانب الشمالي للنهر شرق جسر لندن. وبين محل ملابس مستعملة ومحل مشروبات كحولية، وجدت فتحة مظلمة كفوهة الكهف تدخلها نزولًا بدرجات شديدة الانحدار، وبداخله وجدت الوكر الذي أبحث عنه. طلبت من سائق الأجرة أن ينتظر، ونزلت الدرجات المتهالكة من خطوات السكارى الثقيلة، وعلى ضوء مصباح زيتي مُعلَّق فوق الباب، وجدت المزلاج، فقمت بشق طريقي إلى غرفة حقيرة طويلة معبَّقة بدخان الأفيون البني الثقيل، تتخللها مقاعد خشبية كي يبدو المنظر كأنها مقدمة سفينة مهاجرة.

ومن خلال الغيوم، يمكن رؤية أشباح لأناس يرقدون في أوضاع غريبة؛ أكتاف مقوَّسة وركب محنيّة ورؤوس مائلة إلى الخلف، وذقون مرفوعة لأعلى، وعيون هنا وهناك قد ضاع بريقها، تتفقد كل قادم جديد. كذلك لمعت من الظلال السوداء دوائر حمراء صغيرة تبرق تارة وتخبو تارة نتيجة لزيادة ونقصان السم المحترق في الأنابيب المعدنية. جلست الأغلبية صامتة، بينما تمتم بعضهم لنفسه، وتحدث بعضهم مع بعض بصوت غريب منخفض رتيب. تتدفق محادثتهم ثم تتوقف فجأة ليسود الصمت. لم يهتم أي شخص سوى بأفكاره، ولم يلقِ بالًا لكلمات جاره. في نهاية الغرفة رأيت حاملًا نحاسيًّا للفحم المشتعل، وإلى جانبه جلس رجل عجوز نحيل طويل على كرسي خشبي صغير بثلاثة أرجل، وقد أسند فكه إلى قبضتيه، بينما أسند مرفقيه إلى ركبتيه وهو يحدّق إلى النار.

عند دخولي، أسرع خادم ماليزي شاحب يمسك غليونًا وبعض المخدرات وأشار إلى مكان فارغ. فقلت: شكرًا، لكني لم أحضر لأجلس، بل لأن لي صديقًا هنا هو السيد ويتني، وأرغب في التحدث معه.

كانت هناك حركة وصياح على يميني، وعندما نظرت رأيته في الظلام، السيد ويتني يحدّق إليّ وهو شاحب ومنهك وقذر. قال متفاجئًا: يا إلهي! إنه واتسون.

كان في حالة مُثيرة للشفقة بسبب تأثير المخدّر، وأخذت أعصابه في التوتر، ثم سألني: كم الساعة الآن يا واتسون؟

- الحادية عشرة تقريبًا.

- من أي يوم؟

- الجمعة، التاسع عشر من يونيو.

– يا إلهي! لقد ظننت أنه الأربعاء. إنه الأربعاء بالفعل. لماذا تريد أن تخيفني إلى هذا الحد؟

ثم دفن وجهه بين يديه، وأجهش بالبكاء بصوت مرتفع. فقلت: أؤكد لك أنه يوم الجمعة يا رجل. زوجتك تنتظرك منذ يومين. يجب أن تشعر بالخجل من نفسك!

– أشعر بذلك بالفعل، لكن لا بدّ أن الأمر قد اختلط عليك يا واتسون، فأنا لم أمضِ هنا سوى بضع ساعات. لقد دخّنت الغليون ثلاث مرات أو أربعة، نسيت العدد، لكني سأعود معك إلى المنزل. لا أريد أن تقلق كايت.. كايت المسكينة. أعطني يدك! هل معك عربة؟

– نعم، تنتظر في الخارج.

– سأستقلها إذن.. ولكن لا بدّ أنني مدين ببعض النقود. اسأل بكم أنا مدين لهم يا واتسون، فأنا في حالة مزرية ولا أستطيع القيام بأي شيء لنفسي.

مشيت عبر الممر الضيق بين صفّي النائمين وأنا أكتم نَفَسي كي لا أستنشق دخان المخدّر الكريه الذي يسلب العقل، وبحثت حولي عن صاحب الوكر، وفيما أنا أمرّ بجوار الرجل الطويل الجالس عند حامل الجمر النحاسي، شعرت بشدّة مفاجئة في طرف معطفي، وسمعت صوتًا هامسًا يقول: تجاوزني ثم انظر إليّ. كان وقع الكلمات مباشرًا على أذني، فنظرت إلى الأسفل. ولم يكن من الممكن أن تصدر هذه الكلمات إلّا من الرجل العجوز الموجود بجانبي، ولكنه كان جالسًا مستغرقًا تمامًا في التفكير، كان نحيلًا جدًّا، كثير التجاعيد، محنيّ الظهر، يتدلى غليون الأفيون بين ركبتيه وكأنه قد سقط من فرط التعب من بين أصابعه. فقطعت خطوتين للأمام، ثم نظرت إلى الخلف. لقد استلزم الأمر كل قدرتي على ضبط النفس كي أمنع نفسي من إطلاق صيحة دهشة، حيث كان الرجل قد أدار ظهره بحيث لا يراه أحد غيري، وعندها انتصبت قامته، وتلاشت تجاعيد وجهه، واستعادت عيناه البليدتان تألقهما، فلم يكن الرجل الذي يجلس بجوار النار ويضحك على ذهولي سوى شيرلوك هولمز! أشار إليّ بحركة بسيطة لأقترب منه، وبعدها أدار وجهه على الفور نصف استدارة تجاه الجماعة لينهار في حالة الشيخوخة المرتعشة بشفتين مرتخيتين.

همست: هولمز! ما الذي تفعله في هذا الوكر بحق السماء؟

فأجاب: تحدث بأخفض صوت يمكنك التحدث به، فسمعي ممتاز. ولو تكرمت وتخلصت من صديقك المدمن، فسوف يسعدني أن أتحدث إليك.

– لدي عربة في الخارج.

– حسنًا، أرجو أن ترسله فيها إلى المنزل. ولا تقلق عليه، فهو يبدو مُنهكًا للغاية ولن يقدر على القيام بأي شيء. كما أنصحك أيضًا بإرسال رسالة إلى زوجتك مع السائق، لتخبرها بأن قدرك قد ألقاك في طريقي، ولو انتظرتني في الخارج، سألحق بك خلال خمس دقائق.

كان من الصعب رفض أي طلب لشيرلوك هولمز، حيث كانت طلباته دائمًا مُحدَّدة جدًّا، ويعرضها بطريقة يغلفها الغموض. وعلى أي حال، فلقد شعرت بأن مهمتي قد أُنجِزَت فعليًّا حالما أصبح السيد ويتني محبوسًا في العربة. أما عن الباقي، فلا أتمنى شيئًا أكثر من أن أشترك مع صديقي في إحدى مغامراته الغريبة التي تشكّل جزءًا طبيعيًّا من نمط حياته.

وخلال بضع دقائق، كنت قد كتبت الرسالة إلى زوجتي، ودفعت حساب ويتني، وقدته إلى العربة لأشاهده يبتعد في الظلام. وبعدها بلحظات، خرج عجوز متهالك من وكر الأفيون، لأجد نفسي أسير في الشارع مع شيرلوك هولمز. وقد مشى يجرّ قدميه بظهرٍ محنيّ لشارعين، ثم نظر حوله قبل أن يشد قامته وينفجر في نوبة من الضحك العنيف.

قال: أتوقع يا واتسون أنك تخيلت أنني قد أضفت تدخين الأفيون إلى حقن الكوكايين مع كل زلاتي الأخرى التي نصحتني وعرضت آرائك الطبية بشأنها.

– لقد فوجئت عندما وجدتك هناك.

– ليس أكثر من مفاجأتي عندما رأيتك.

– لقد جئت بحثًا عن صديق.

– أمّا أنا فقد جئت بحثًا عن عدو.

– عدو؟

– نعم، واحد من أعدائي المُعتادين، أو فريستي. باختصار يا واتسون؛ أنا وسط واحد من أكثر تحقيقاتي غرابة، ولقد تمنيت أن أجد دليلًا في الكلام المتفكك لهؤلاء المُغيبين كما فعلت من قبل. ولم تكن لتساوي حياتي شيئًا لو تعرّفوا عليّ في ذلك الوكر، وذلك لأنني سبق واستخدمته لأغراض خاصة، وقد أقسم النذل الذي يدير الوكر على الثأر مني. خلف تلك البناية هناك باب خفي بالقرب من رصيف بول، والذي يمكنه أن يقص العديد من الحكايات الغريبة عمّا مرّ من خلاله في الليالي المظلمة.

– ماذا؟ أنت لا تعني جثثًا!

– بلى، جثث يا واتسون! إذا أخذنا ألف جنيه عن كل مسكين مات في ذلك الوكر، لأصبحنا أثرياء. إنه أسوأ فخ للقتل على ضفاف النهر، وأشعر أن نيفيل سانت كلير قد دخله بلا عودة.. يجب أن تكون عربتنا هنا.

ثم وضع مقدمة إصبعين بين أسنانه، وصفّر بحدّة لمرة واحدة، فردّ عليه أحدهم بصفارة مماثلة من بعيد، تبعها صرير العجلات، ورنين حوافر الأحصنة.

بينما اندفعت العربة الطويلة ذات الحصانين عبر الظلام نحونا، مُلقيةً بظلين من الضوء الأصفر الذهبي الصادر عن المصباحين الجانبيين، قال هولمز: والآن يا واتسون ستأتي معي، أليس كذلك؟

– إذا كانت لي فائدة.

– أوه، الصديق المؤتمن دائمًا ذو فائدة. إن غرفتي في سيدارز بسريرين.

– سيدارز؟

– نعم، إنه منزل السيد سانت كلير، وأنا أقيم فيه أثناء قيامي بهذا التحقيق.

– وأين هو إذن؟

– بالقرب من لي في كِنت. أمامنا سبعة أميال لنقطعها.

– لكني ما زلت لا أعرف أي شيء عن الموضوع.

– بالطبع، لكنك ستعرف كل شيء عمّا قريب. اصعد إلى هنا. حسنًا يا جون، نحن لن نحتاجك. خذ نصف كراون. انتظرني غدًا في الحادية عشرة. ودع الحصانين هذه الليلة، والآن إلى اللقاء.

ضرب الحصان بسوطه، وانطلقنا مُسرعين في سلسلة لا تنتهي من الشوارع المهجورة والمعتمة، والتي اتسعت تدريجيًّا حتى أصبحنا ننطلق فوق جسر واسع بسور، والنهر المظلم يجري من تحتنا ببطء. وبعده يقع عدد ضخم من المباني الحجرية الكئيبة، لا يقطع الصمت فيها إلا الصوت القوي المنتظم لخطوات رجل الشرطة، أو أغاني وصرخات مجموعة متأخرة من المحتفلين.

أخذ السحاب الباهت يتحرك ببطء في السماء، ولمعت نجمة أو نجمتان هنا وهناك بشكل خافت بين السحاب، بينما يقود هولمز العربة صامتًا، ورأسه مائل على صدره، كرجل غارق في التفكير. وأثناء جلوسي بجانبه متسائلًا عن ماهية هذه المهمة الجديدة، وفي نفس الوقت أخاف أن أسأل وأقاطع تسلسل أفكاره. وبعد أن قطعنا عدة أميال، وكدنا أن نصل إلى أطراف منطقة بيوت الضواحي الفاخرة، هزّ هولمز كتفيه وأشعل غليونه.

ثم قال: لديك فضيلة الصمت يا واتسون. وهذا يجعلك رفيقًا قيّمًا للغاية. صدقني، إنه لشيء عظيم عندما أجد شخصًا أتحدث إليه، فأفكاري ليست سارّة جدًّا. لقد كنت أتساءل عمّا يجب أن أقوله للسيدة الصغيرة عندما تقابلني عند الباب.

– لقد نسيت أنني لا أعرف أي شيء عن الموضوع!

– سأتمكن من إخبارك بوقائع القضية قبل أن نصل إلى لي.

إنها قضية تبدو بسيطة للغاية، وبالرغم من ذلك فأنا بطريقة ما لا أجد أي شيء لأبدأ منه. توجد الكثير من الخيوط بلا شك، ولكنني لا أستطيع الإمساك بطرفها. سأعرض عليك الآن يا واتسون القضية بوضوح وبشكل مختصر، وقد تتمكن من رؤية أي شرارة مضيئة وسط كل الظلام الذي يغلفها.

– حسنًا، ابدأ.

– منذ بضع سنوات، وتحديدًا في مايو سنة 1884، جاء إلى «لي» سيد محترم اسمه نيفيل سانت كلير، والذي بدا أنه يملك الكثير من المال، حيث اشترى فيلا كبيرة، وقام بتخطيط الحدائق بشكل رائع، وعاش بوجه عام في مستوى جيد. بالتدريج كوّن صداقات مع جيرانه، وفي عام 1887 تزوج ابنة صاحب مصنع محلي، أنجبت له طفلين. لم تكن لديه وظيفة، لكنه كان مهتمًّا ببعض الشركات، يذهب إلى المدينة في الصباح ثم يعود كل ليلة في قطار الخامسة وأربع عشرة دقيقة من محطة شارع كانون. يبلغ السيد سانت كلير سبعة وثلاثين عامًا، عاداته طبيعية، زوج جيد، وأب حنون للغاية، ومحبوب من كل من يعرفه. ويمكنني أن أضيف أن كل ديونه في الوقت الحاضر –حسب تقديرنا– تبلغ ثمانية وثمانين جنيهًا وعشرة قروش، في حين أن حسابه في بنك كابيتال أند كونتيز يبلغ مئتين وعشرين جنيهًا، أي إنه لا يوجد سبب للاعتقاد بأنه كان يعاني من مشكلات مادية.

ذهب السيد نيفيل سانت كلير إلى المدينة أبكر من المعتاد مشيرًا قبل أن يتحرك بأن لديه أمرين مهمّين يجب أن ينجزهما، وأنه سيحضر معه صندوق مكعبات لابنه الصغير حينما يعود إلى المنزل. وبالصدفة البحتة، في نفس اليوم تلقت زوجته بعد رحيله بوقت قصير جدًّا برقية تفيد بأن طردًا بريديًّا بقيمة

كبيرة كانت تتوقع وصوله ينتظرها في مكتب شركة أبردين للشحن. والآن، إذا كنت تعرف لندن جيدًا، فسوف تعرف أن مكتب الشركة يقع في شارع فريسنو الذي يتفرع من آخر زقاق سواندام حيث وجدتني الليلة.

تناولت السيدة سانت كلير غداءها ثم اتجهت إلى المدينة وذهبت للتسوّق قبل أن تتابع طريقها إلى مكتب الشركة، واستلمت طردها، ووجدت نفسها في تمام الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة تسير في زقاق سواندام في طريق العودة إلى المحطة. هل فهمت ما قلته حتى الآن؟

– بمنتهى الوضوح!

– كان يوم الاثنين حارًّا للغاية –لو تتذكر– سارت السيدة سانت كلير ببطء وهي تنظر حولها على أمل رؤية عربة؛ لأنها لم تكن مرتاحة للحيّ الذي وجدت نفسها فيه. وبينما كانت تسير بهذه الطريقة في شارع سواندام، سمعت هتافًا أو صياحًا، وصُعقت حين رأت زوجها ينظر إليها من نافذة الطابق الثاني لأحد المباني، وتراءى لها أنه يومئ لها. كانت النافذة مفتوحة، وقد رأت وجهه بوضوح، ووصفته بأنه كان شديد الانفعال، لوّح لها بيديه بعصبية، ثم اختفى من النافذة بشكل مفاجئ، لدرجة أنها تصورت أنه قد سُحب إلى الوراء بواسطة قوة قهرية من الخلف. وقد لفت انتباهها الأنثوي نقطة غريبة؛ فبالرغم من أنه كان يرتدي معطفًا داكنًا مثل الذي كان يرتديه عندما غادر المنزل متجهًا إلى المدينة، فإنه لم يكن يرتدي ياقة ولا ربطة عنق.

اقتنعت بوجود شيء مريب بشأن زوجها، فأسرعت تنزل الدرج، ولم يكن المنزل إلّا وكر الأفيون الذي وجدتني فيه الليلة. جرت السيدة عبر الغرفة الأمامية محاولةً صعود الدرج الذي يؤدي إلى الطابق الأول، ولكنها قابلت عند أسفل الدرج ذلك البحّار النذل، والذي يساعده شخص دنماركي، دفعاها الاثنان إلى الشارع بالقوة. ملأتها الشكوك والمخاوف؛ ما أفقدها صوابها، فأسرعت تجري عبر الشوارع حتى قابلت لحسن الحظ في شارع فريسنو عددًا من الجنود ومعهم مفتش كانوا في طريقهم جميعًا إلى العمل. عاد معها المفتش وجنديان، وبالرغم من المقاومة المستمرة للمالك، فقد شقّوا طريقهم إلى الغرفة التي شوهد فيها السيد سانت كلير لآخر مرة.

لم يكن هناك أثر له على أي حال. بل لم يكن في الطابق كله سوى شخص عاجز بمظهر قبيح يبدو أنه اتخذ من ذلك المكان منزلًا له. ولقد أقسم ذلك الشخص والبحّار على أنه لم يكن في الغرفة الأمامية أحد آخر طوال فترة بعد الظهيرة. وبسبب إنكارهما وجود أي شخص آخر بإصرار شديد، فقد تسلل الشك إلى عقل المفتش حتى كاد أن يصدّق أن السيدة سانت كلير كانت واهمة، وفجأة صرخت السيدة وقفزت إلى صندوق صغير على الطاولة، ومزقت غلافه، فسقطت مجموعة مكعبات الأطفال، وهي اللعبة التي وعد زوجها بإحضارها إلى المنزل.

هذا الاكتشاف بالإضافة إلى الارتباك الذي أظهره الرجل العاجز جعل المفتش يدرك أن الأمر خطير. فُحِصت الغرف بشكل كامل، وأشارت النتائج إلى جريمة فظيعة. كانت الغرفة الأمامية مفروشة ببساطة كغرفة جلوس، وتقود إلى غرفة نوم صغيرة تطل على الجزء الخلفي لأحد أرصفة الميناء. وقد كان هناك ممر ضيق طويل بين رصيف الميناء ونافذة غرفة النوم، وهو عادة ما يكون جافًّا عند

انخفاض المدّ، لكن عندما يرتفع المدّ يغطيه تمامًا بارتفاع أربعة أقدام ونصف على الأقل. وكانت نافذة غرفة النوم عريضة وتُفتح من الأسفل، وعُثِر على آثار دماء على إطار النافذة. وكذلك وجدوا عدة قطرات من الدماء متناثرة على الأرضية الخشبية لغرفة النوم. وبالإضافة إلى كل ذلك، خلف ستارة في الغرفة الأمامية وجدوا كل ملابس السيد نيفيل سانت كلير باستثناء معطفه. وجدوا حذاءه وشرابه وقبعته وساعته وكل أشيائه هناك.

لم تكن هناك آثار للعنف على أي من هذه الملابس، ولم يكن هناك أي أثر آخر للسيد نيفيل سانت كلير. لا بد أنه قد خرج من النافذة، فلا يوجد مخرج آخر سواها، ولطخة الدم المشؤومة على إطار النافذة تشير إلى أنه لم يكن باستطاعته السباحة لإنقاذ نفسه، حيث كان المدّ في ذروته وقت وقوع المأساة.

والآن بالنسبة إلى الوغدين اللذين بدا على الفور أنهما متورطان في الأمر، فالبحّار معروف بسوابقه الشريرة، ولكنه كان –حسب رواية السيدة سانت كلير– عند أسفل الدرج قبل ثوانٍ قليلة من ظهور زوجها في النافذة، ولذلك فلا يمكن أن يكون أكثر من مجرد شريك ثانوي في الجريمة. وقد استغل الأمر ودافع عن نفسه بادعاء الجهل الكامل بالواقعة، وأكد أنه لا يعرف شيئًا عن أفعال السيد هيو بون المستأجر عنده، وقال إنه لا يستطيع بأي حال أن يعرف سببًا لوجود ملابس السيد المختفي.

تحدثنا بما يكفي عن البحّار، فدعنا الآن نتحدث عن العاجز الشرير الذي يعيش في الطابق الثاني من وكر الأفيون، والذي هو بالتأكيد آخر شخص رأى السيد نيفيل سانت كلير.

اسمه هيو بون، ووجهه القبيح مألوف لدى كل من يتردد على المدينة، فهو متسوّل محترف، ولكنه يدّعي بيع الثقاب كي يتجنب الشرطة. فعلى بُعد مسافة قصيرة أسفل شارع ثريدنيدل، وعلى الجهة اليسرى منه توجد زاوية صغيرة في الحائط –كما قد تكون لاحظت– وهي المكان الذي يقضي فيه هذا المخلوق يومه جالسًا القرفصاء وعدد صغير من علب الثقاب في حِجْره، ولأن منظره مثير للشفقة، فإن التبرعات تنهمر كالمطر في قبعته الجلدية المتسخة الموجودة على الرصيف بجانبه.

راقبت هذا الرجل أكثر من مرة قبل أن أفكر في التعرّف على مهنته، وتعجبت من المكسب الذي تمكن من الحصول عليه في وقت قصير. مظهره مُميز لدرجة أنه لا يمكن أن يمرّ به شخص دون أن يلاحظه. شعره برتقالي كثيف، ووجه شاحب شوّهته ندبة رهيبة أدّى انكماشها إلى رفع الحافة الخارجية لشفته العليا، كما أن له ذقنًا يشبه ذقن كلب الصيد، وعينين داكنتين ثاقبتين تشكلان تباينًا غريبًا مع لون شعره. ولقد ميّزه كل ذلك عن حشود المتسولين العاديين، بالإضافة إلى ذكائه، وكونه جاهزًا بشكل دائم على رد أي مزحة قد يلقي بها أحد المارة عليه. هذا هو الرجل الذي نعلم أنه استأجر مسكنًا في وكر الأفيون، وأنه آخر من رأى السيد الذي نبحث عنه».

قلت مندهشًا: لكنه عاجز! ما الذي يستطيع أن يفعله دون قدميه أمام رجل في مقتبل العمر؟

– عاجز بمعنى أنه يعرج في مشيته، لكن بالنسبة لباقي النواحي، فهو يبدو رجلًا قويًّا ذا بنية جيدة. وبالطبع تعرف يا واتسون بحكم خبرتك الطبية أن الضعف في أحد الأطراف يؤدي إلى قوة استثنائية في بقيتها.

– استأنف روايتك من فضلك.

– غابت السيدة سانت كلير عن وعيها عند رؤيتها الدماء على النافذة، ثم نقلتها الشرطة إلى المنزل بواسطة عربة، وذلك لأن وجودها لم يكن ليساعدهم في تحقيقاتهم. وقد أجرى المفتش بارتون –الذي تولى التحقيق– فحصًا دقيقًا للمبنى، لكنه لم يجد أي شيء قد يلقي بالضوء على الموضوع. ولقد ارتكبوا خطأ عندما لم يقبضوا على بون على الفور، حيث سُمح له ببضع دقائق تمكن من خلالها بالتواصل مع صديقه البحّار، وصُحِّح هذا الخطأ سريعًا؛ حيث قبضوا عليه وفتّشوه، ولم يجدوا شيئًا يجرّمه. ورغم أنهم وجدوا بعض بقع الدم على كم قميصه الأيمن، فإنه أشار إلى بنصره الذي كان مجروحًا بالقرب من الظفر، وأوضح أن هذا هو سبب وجود الدماء على كم قميصه. كما أضاف أنه كان عند النافذة منذ قليل، وأن البقع التي لوحظت على الإطار قد جاءت من نفس المصدر بلا شك. وقد أنكر بشدة أنه قد رأى السيد نيفيل سانت كلير، وأقسم أن وجود الملابس في منزله يمثّل لغزًا بالنسبة إليه كما هو بالنسبة إلى الشرطة. أمّا بالنسبة إلى إصرار السيدة سانت كلير على أنها قد رأت زوجها يطلّ من النافذة، فقد رأى أنها قد تكون مجنونة، أو أنها كانت تحلم. نُقِل إلى قسم الشرطة وهو يصرخ مُبديًا اعتراضه، بينما بقي المفتش في المكان على أمل أن يكشف انحسار المد عن بعض الأدلة الجديدة.

وهذا ما حدث بالفعل، حيث وجدوا على الضفّة الطينية ما كانوا يخشون، فقد وجدوا معطف السيد نيفيل سانت كلير –وليس السيد نيفيل سانت كلير بنفسه– عندما تراجع المدّ. وماذا وجدوا في جيوبه في اعتقادك؟

– لا يمكنني التصوّر.

– فعلًا، لم أتوقع أن بإمكانك التخمين. لقد تم حشو كل جيب بالقروش وأنصاف القروش (421 قرشًا، و270 من أنصاف القروش) ولذلك من العجب أن المدّ لم يجرفه، بينما اختلف الأمر بالنسبة للجثة، فهناك دوامة قوية بين رصيف المرفأ والمنزل. وهكذا فقد بدا من المُرجَّح أن يكون المعطف الثقيل قد بقي في مكانه، بينما انجرفت الجثة العارية إلى النهر.

– لكن حسب ما فهمت، فإن باقي الملابس كانت في الغرفة. فهل كانت ترتدي الجثة المعطف فقط؟

– لا يا سيدي، ولكن هناك تفسير ظاهري قد يكون معقولًا. فلنفترض أن ذلك الرجل بون قد دفع السيد نيفيل سانت كلير من النافذة ولم يره أحد، فما الذي يمكن أن يفعله حينذاك؟ لا بدّ بالطبع أن يفكر في التخلص من الملابس التي تدل على الواقعة في الحال. فيقوم بالإمساك بالمعطف ليرميه، لم يخطر بباله وقتها أن المعطف سيطفو ولن يغوص. الرجل لديه وقت قصير حيث سمع الشجار بالأسفل حينما حاولت الزوجة الصعود عنوة، وقد يكون قد عرف من شريكه البحّار أن الشرطة قادمة بسرعة عبر الشارع، ولم يكن أمامه وقت ليضيعه، فأسرع إلى مخبئه السري حيث يحتفظ بثمرة تسوّله، وأخذ يحشو الجيوب بكل ما يصل إلى يده من عملات حتى يضمن أن يغوص المعطف ثم ألقاه من النافذة. وكان سيفعل نفس الشيء مع باقي الملابس الأخرى، ولكنه سمع تسارع الخطوات بالأسفل، ولم يكن أمامه وقت إلا ما يكفي لإغلاق النافذة قبل ظهور الشرطة.

– يبدو ذلك معقولًا بكل تأكيد.

- حسنًا سننظر إليها كفرضية حتى نجد أخرى أفضل منها. قُبِض على بون -كما أخبرتك- وأُخِذ لقسم الشرطة، ولكن لم يظهر أي شيء ضده. فهو معروف منذ سنوات كمتسول محترف، ويبدو أن حياته كانت هادئة وبريئة للغاية. هذا هو الموقف في الوقت الحالي. هناك أسئلة يجب الإجابة عنها الآن وهي: ما الذي كان يفعله نيفيل سانت كلير في وكر الأفيون؟ وما الذي حدث له هناك؟ وأين هو الآن؟ وما علاقة هيو بون باختفائه؟ وكل هذه الأسئلة بعيدة كل البعد عن الحل. أعترف أنني لا أتذكر أي قضية ضمن خبرتي تبدو بهذه البساطة عند النظرة الأولى لها، وبعد ذلك تقدم مثل هذه الصعوبات.

بينما كان يسرد شيرلوك هولمز تفاصيل هذه السلسلة الغريبة من الأحداث، كنّا ننطلق عبر ضواحي المدينة العريقة، حتى ابتعدنا عن آخر المنازل المتفرقة، وأخذنا نمشي بالعربة وسياج الريف على جانبينا. وعندما فرغ من الحديث، كنا ننطلق عبر قريتين براقتين، حيث كانت بعض الأنوار لا تزال تلمع في النوافذ.

فقال رفيقي: نحن على أطراف «لي»، لقد سرنا في رحلتنا القصيرة على حدود ثلاث مقاطعات إنجليزية من مدلسكس، مرورًا بإحدى زوايا صرّي، وصولًا إلى كِنت. هل ترى ذلك الضوء بين الأشجار؟ إنه مصباح سيدارز، وبجوار ذلك المصباح تجلس سيدة أشك بأن أذنها المتلهّفة قد التقطت صوت حوافر الحصان بالفعل».

فسألته: لكن لماذا لم تقم بالتحقيق في هذه القضية من شارع بيكر؟

- لأن هناك الكثير من التحريات التي يجب القيام بها هنا. ولقد تكرمت السيدة سانت كلير وأعطتني غرفتين ليكونا تحت تصرفي، وتأكد أنها لن تعبر سوى عن ترحيبها بصديقي وزميلي، وإن كنت أكره أن أقابلها يا واتسون وليس لدي أي أخبار عن زوجها. أوه، لقد وصلنا.

توقّفنا أمام فيلا كبيرة ذات حديقة خاصة. جرى صبي الإسطبل وأمسك برأس الحصان. وقفزت من العربة، وتبعت هولمز على ممرّ العربات المتعرّج والمرصوف بالحصى. عندما اقتربنا من المنزل، فُتح الباب ووقفت امرأة شقراء صغيرة الحجم في فتحة الباب مرتدية ثوبًا من القماش الحريري المُزيَّن بالشيفون الوردي المنفوش عند العنق والمعصمين. وقفت تحت الضوء فظهرت ملامحها بشكل جيد. كانت إحدى يديها لا تزال على الباب، في حين أن الأخرى نصف مرفوعة في تحفّز. وقد مال جسدها إلى الأمام، ورأسها ووجهها ممدودان، بدت اللهفة في عينيها وشفتيها المفتوحتين قليلًا في تساؤل واضح. ثم صاحت قائلة: حسنًا، ما الأخبار؟

عندما رأت أننا اثنان، صرخت بأمل، ثم خفتت صرختها حينما رأت رفيقي يهزّ رأسه وكتفيه، سألت: ما من أخبار جيدة؟

- لا شيء.

- ولا سيئة؟

- نعم.

- الحمد لله على ذلك. ادخلا، لا بدّ أنك مرهق، لقد كان يومك طويلًا.

– هذا صديقي الدكتور واتسون، وقد أفادني في العديد من القضايا. كانت المصادفة السعيدة هي السبب في تمكني من إحضاره هنا، وإشراكه في هذا التحقيق.

قالت وهي تشد على يدي بحرارة: أنا سعيد للغاية لرؤيتك، أثق أنك ستسامحنا على أي تقصير في حسن استقبالك نتيجة النكبة التي حلّت بنا.

فقلت: سيدتي العزيزة، أنا مُخيِّم قديم، وحتى لو لم أكن، فأنا أستطيع أن أرى بوضوح أنه لا حاجة إلى أي اعتذار. وسأكون في غاية السعادة إذا تمكّنت من مساعدتك أو مساعدة صديقي.

قالت السيدة ونحن ندخل إلى غرفة الطعام المُضاءة جيدًا، حيث وُضع على الطاولة عشاء بارد: أريد أن أسألك سؤالًا أو اثنين، وأرجو أن تكون صريحًا معي.

– بالتأكيد يا سيدتي.

– لا تقلق بشأن مشاعري، فأنا لست هشّة الأعصاب ولا أفقد وعيي بسهولة. ببساطة أريد أن أسمع رأيك الحقيقي.

– في أي شيء؟

– في أعماق قلبك، هل تعتقد أن نيفيل على قيد الحياة؟

بدا شيرلوك هولمز مُحرجًا من السؤال. فكررت وهي واقفة على السجادة ناظرة إليه باهتمام: بصراحة؟

– بصراحة يا سيدتي، لا أظن ذلك.

– هل تعتقد أنه قد مات؟

– نعم، أعتقد ذلك.

– قُتل؟

– لا أقول ذلك، لكن ربما.

– وفي أي يوم لقي حتفه؟

– يوم الاثنين.

– إذن لعلك تتكرم يا سيد هولمز، وتشرح لي كيف استلمتُ اليوم خطابًا منه؟

هبَّ هولمز من كرسيه واقفًا كمَن صُعق بالكهرباء. وزمجر قائلًا: ماذا؟!

وقفت مبتسمة وهي ترفع ورقةً. فسأل: هل يمكن أن أراه؟

– بالتأكيد.

خطف هولمز الورقة من يدها بلهفة، وبسطها على الطاولة، ثم سحب المصباح وفحصها باهتمام شديد. بينما تركت أنا مقعدي، ونظرت إليها من فوق كتفيه. كان الظرف خشنًا جدًّا ومختومًا بختم بريد جرافسيند، بتاريخ اليوم نفسه، أو بالأحرى بتاريخ اليوم السابق حيث كان قد تجاوز الوقت منتصف الليل.

غمغم هولمز: الخط رديء. هذا ليس خط زوجك بالتأكيد يا سيدتي.

– صحيح، لكن الخطاب الموجود في الظرف مكتوب بخطه.

– ألاحظ أيضًا أن الشخص الذي كتب العنوان على المظروف كان مضطرًّا إلى أن يستفسر عن العنوان.

– كيف استطعت معرفة ذلك؟

– الاسم –كما ترين– بحبر أسود مكتوب بخط واضح جفّ من تلقاء نفسه. أما الباقي فلونه رمادي، ما يدل على استخدام ورق تجفيف. لو كُتب كله مرة واحدة، ثم جُفِّف، لما كانت هناك كتابة باللون الأسود الزاهي. هذا الرجل كتب الاسم، ثم توقف لفترة قبل أن يكتب العنوان، ما يدل على أنه لم يكن يعرفه. هذا الأمر ثانوي بالطبع، لكن لا يوجد شيء أهم من الأشياء الثانوية. فلنر الخطاب. ها! كان هناك شيء هنا!

– نعم، كان هناك خاتم.. خاتم التوقيع الخاص به.

– هل أنتِ متأكدة أن هذا هو خط زوجك؟

– واحد من خطّيه.

– واحد؟

– هذا خطه حين يكتب بسرعة، وهو مختلف تمامًا عن خطه المعتاد، ولكنني أعرفه جيدًا.

«عزيزتي، لا تخافي! سيكون كل شيء على ما يُرام. هناك خطأ كبير، وسيحتاج بعض الوقت لتصحيحه. انتظري بصبر.

– نيفيل».

– مكتوب بقلم رصاص على ورقة بيضاء بحجم دفاتر الملاحظات، ودون علامة مائية. هممم! أُرسِل اليوم من جرافسيند بواسطة رجل له إبهام متّسخ، وأُغلِق المظروف من شخص –ما لم أكن مخطئًا بشكل كبير– يمضغ التبغ. ليس لديكِ أي شك أن هذا خط زوجك يا سيدتي؟

– على الإطلاق! نيفيل هو من كتب هذه الكلمات.

– وأُرسِلت اليوم من جرافسيند! حسنًا سيدة سانت كلير، لقد انقشعت الغيوم، لكن بالرغم من ذلك لا يمكنني المجازفة بالقول إن الخطر قد زال.

– ولكن لا بدّ أنه حيّ يا سيد هولمز.

– إلا إذا كان هذا الخطاب مُزوَّرًا بمهارة حتى يضعنا على المسار الخاطئ. فالخاتم في النهاية لا يثبت أي شيء. ربما أُخِذَ منه.

– لا.. لا. هذا خطه بكل تأكيد!

– حسنًا. يمكن مع ذلك أن يكون قد كُتب يوم الاثنين، ولم يُرسل بالبريد سوى اليوم.

– هذا ممكن.

– إذا كان الأمر كذلك، فالكثير قد يحدث بين وقتها واليوم.

– أوه، لا تخفني يا سيد هولمز. أنا أعرف أنه بخير، فبيننا من المشاعر ما يجعلني أشعر إذا حدث له مكروه. ففي آخر يوم رأيته جرح نفسه في غرفة النوم، وبالرغم من كوني في غرفة الطعام فإنني أسرعت إلى الطابق العلوي وأنا متأكدة تمامًا بأن شيئًا قد حدث. هل تعتقد أنني قد أشعر بمثل هذا الأمر التافه، وألا أشعر بموته؟

– لقد رأيت الكثير مما يجعلني أعرف أن إحساس المرأة قد يكون أكبر قيمة من استنتاج مُحلل منطقي. وبهذا الخطاب، فإن لديكِ دليلًا قويًّا للغاية يؤيد رأيك، لكن إذا كان زوجك حيًّا وقادرًا على كتابة مثل ذلك الخطاب، فما الذي يبقيه بعيدًا عنكِ؟

– لا يمكنني تخيل السبب. إنه أمر يفوق العقل.

– ويوم الاثنين، هل قال أي تعليق قبل أن يغادر؟

– لا!

– وهل فوجئتِ عند رؤيتك له في زقاق سواندام؟

– فوجئت للغاية.

– هل كانت النافذة مفتوحة؟

– نعم.

– كان بإمكانه أن يناديكِ إذن؟

– ربما.

– ولكنه أطلق صرخة مترددة فقط كما فهمت؟

– نعم.

– أكان يطلب المساعدة في اعتقادك؟

– نعم، فلقد لوّح بيديه.

– ولكن ربما كانت صيحة دهشة. الدهشة من رؤيتك غير المُتوقعة يمكن أن تدفعه كي يحرك يديه إلى أعلى؟

– هذا ممكن.

– ولقد اعتقدتِ أنه قد سُحب إلى الخلف؟

– لقد اختفى بشكل مفاجئ للغاية.

– من الممكن أن يكون قد وثب إلى الخلف. أنت لم تري أي شخص آخر في الغرفة معه؟

– نعم، ولكن هذا الرجل الرهيب اعترف بأنه كان هناك، وكذلك البحّار كان أسفل الدرج.

– بالضبط. هل كان زوجك –حسبما رأيتِ– يرتدي ملابسه العادية؟

– لكن بدون الياقة أو ربطة العنق، فلقد رأيت عنقه العاري بوضوح.

– وهل تحدث عن زقاق سواندام من قبل معك؟

– لا.

– وهل ظهرت عليه أي علامات لتعاطي الأفيون من قبل؟

– إطلاقًا.

– أشكرك يا سيدة سانت كلير. لقد كانت هذه هي النقاط الأساسية التي أردت أن أستوضحها منك بشكل كامل. يمكننا الآن أن نتناول عشاء خفيفًا، ثم نأوي إلى الفراش لأن أمامنا يوم عمل حافلًا غدًا.

كان تحت تصرفنا غرفة ذات سريرين واسعة ومريحة. ولقد أويت إلى الفراش بسرعة، حيث كنت مُرهقًا بعد مغامرتي تلك الليلة. أمّا شيرلوك هولمز فهو رجل إذا شغلت عقله قضية غير محلولة، فإنه يستطيع الاستمرار لأيام وربما لأسابيع دون راحة، يقضي تلك الفترة يفكّر في الأمر، ويعيد ترتيب الحقائق، وينظر إليها من كل زاوية ممكنة حتى يتمكن من تفسيرها أو يقنع نفسه بأن المعلومات المُتاحة له غير كافية.

واتضح لي سريعًا أنه يُعد لجلسة ستستمر الليل كله. حيث خلع معطفه، وارتدى منامة واسعة، ثم راح يتجوّل في الغرفة جامعًا الوسائد من سريره والأريكة والمقعد الكبير، لينشئ ما يشبه الديوان الشرقي ليجلس القرفصاء عليه، وإلى جانبه كومة من التبغ الخشن وعلبة ثقاب. وعلى ضوء المصباح الخافت، رأيته يجلس صامتًا بلا حركة، وبين شفتيه غليون قديم، وعيناه مُثبتتان بلا تعبير على زاوية السقف. وقد تصاعد الدخان الأزرق من فمه في حلقات، بينما لمع الضوء على ملامحه القوية التي تشبه ملامح النسر. وظل جالسًا هكذا حتى استسلمت للنوم.

وهكذا وجدته حين أيقظني نداء مفاجئ، لأجد شمس الصيف تضيء الغرفة، والغليون لا يزال بين شفتيه، وحلقات الدخان تتصاعد منه. غرقت الغرفة في غيمة من دخان التبغ الكثيف، والشيء الذي اختلف أن كومة التبغ الخشن التي رأيتها بجانبه الليلة الماضية قد اختفت.

سألني: هل استيقظت يا واتسون؟

– نعم.

– هل أنت مستعد لرحلة صباحية؟

– بالتأكيد.

– ارتد ملابسك إذن. لم يستيقظ أحدٌ بعد، لكنني أعرف أين ينام صبي الإسطبل، وسريعًا ما سيُخرج العربة.

ضحك هولمز لنفسه أثناء حديثه، ولمعت عيناه وبدا كشخص مختلف عن مفكر الليلة الماضية المكتئب. نظرت إلى ساعتي وأنا أرتدي ملابسي، فوجدت أنه لا عجب ألا يكون أحد قد استيقظ بعد، فقد كانت الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة. لم أكد أنتهي من ارتداء ملابسي حتى عاد هولمز ليخبرني أن الصبي يُعدُّ الحصان.

وقال وهو ينتعل حذاءه: أريد أن أختبر نظرية بسيطة لدي. وأعتقد يا واتسون أنك تقف الآن أمام واحد من أكثر الأشخاص غباء في أوروبا. إنني أستحق أن يتم ركلي من هنا وحتى مقاطعة أخرى، لكني

أعتقد أن مفتاح القضية قد أصبح معي الآن.

سألت مبتسمًا: وأين هو؟

أجاب: في الحمام.

وأستأنف بعد أن رأى عدم التصديق مرتسمًا على وجهي: أوه، نعم، أنا لا أمزح. لقد كنت هناك منذ لحظات، وأخذته معي، ووضعته في تلك الحقيبة. تعالى يا بني، وسنرى إذا ما كان يناسب القفل أم لا.

نزلنا بأقصى هدوء ممكن، وخرجنا إلى شمس الصباح المشرقة لنجد العربة والحصان يقفان على الطريق، وصبي الإسطبل يقف عند مقدمة العربة. قفزنا إلى العربة، وانطلقنا مسرعين على طريق لندن. كانت هناك عربات يدوية ريفية قليلة تتحرك على الطريق وهي تحمل الخضراوات، ولكن القرى القائمة على جانبي الطريق صامتة بلا حياة كما لو كانت مدينة في حلم.

قال هولمز وهو يلمز الحصان ليسرع: إنها قضية فريدة من عدة جهات، وأعترف أنني كنت أعمى تمامًا. لكن من الأفضل أن تصل إلى الحقيقة متأخرًا، على ألَّا تصل إليها على الإطلاق.

مررنا بطريق جسر واترلو، ثم عبرنا النهر، وقطعنا شارع ويلنجتون، ثم انحرفنا بحدّة إلى اليمين، لنجد أنفسنا في شارع بو. كان شيرلوك هولمز معروفًا بين الشرطة بشكل جيد، لذا حيّانا الشرطيان على الباب، وقام أحدهما بإمساك رأس الحصان، بينما قادنا الآخر إلى الداخل.

سأل هولمز: من هو الضابط المناوب الآن؟

– المفتش برادستريت يا سيدي.

جاء رجل قوي طويل يرتدي قبّعة عالية وسترة مزيَّنة بعُرى من الخيط المجدول عبر الممرّ ذي الأرضية الحجرية، فقال هولمز: آه، برادستريت، كيف حالك؟ أريد أن أكلمك على انفراد.

– بالتأكيد يا سيد هولمز، ادخل إلى غرفتي إذا سمحت.

كانت غرفة صغيرة تشبه المكتب، وعلى الطاولة سجلّ ضخم، بينما عُلِّق هاتف على الجدار. جلس المفتش على مكتبه وقال: كيف يمكنني أن أخدمك يا سيد هولمز؟

– لقد جئت إليك بخصوص ذلك المتسوّل بون. ذلك الذي اتُّهِم بأنه المسؤول عن اختفاء السيد نيفيل سانت كلير من بلدة لي.

– نعم، لقد قبضنا عليه، ومدّدنا مدة حبسه للقيام بتحقيقات إضافية.

– هذا ما سمعته. هل هو لديك هنا؟

– في الزنزانة.

– هل هو هادئ؟

– أوه، إنه لا يسبب أي مشكلات، لكنه وغد قذر.

– قذر؟!

– نعم، لقد فعلنا ما بوسعنا، لنغسل فقط يديه، لكن وجهه ما زال متسخًا ككل متشرد. عندما تنتهي قضيته، سيكون عليه الاستحمام بشكل منتظم في السجن، وأظنك ستتفق معي –إن رأيته– أنه في حاجة

إلى ذلك.

– إنني أودّ أن أراه للضرورة.

– تريد ذلك حقًّا؟ هذا سهل. تعال من هنا، يمكنك ترك حقيبتك.

– لا، أظن أنني سآخذها.

– لا بأس لتأخذها. تفضلا من هنا لو سمحتما.

ثم قادنا عبر ممرّ، وفتح بابًا مزودًا بالقضبان لننزل على درج لولبي ونصل إلى رواق مطلي باللون الأبيض، وعلى كل من جانبيه صف من الأبواب.

قال المفتش: الزنزانة الثالثة من اليمين.. ها هي ذي!

ثم دفع بعنف لوحًا موجودًا بالجزء العلوي من الباب ونظر إلى الداخل قائلًا: إنه نائم، يمكنك النظر إليه جيدًا.

نظرنا عبر الحاجز فوجدنا السجين نائمًا بعمق ووجهه باتجاهنا، يتنفس ببط وبعمق. كان رجلًا متوسط الحجم يرتدي ملابس خشنة تتناسب مع مهنته، ويظهر من شق في معطفه البالي قميصه الملوَّن. كان في منتهى القذارة كما وصف المفتش، لكن لم تكن القذارة المتراكبة على وجهه كافية لإخفاء قبحه البغيض. امتدّت ندبة عريضة من أثر جرح قديم على طول وجهه من العين إلى الذقن، وتسبب تقلّصها في رفع أحد جانبي شفته العليا، ولذا ظهرت ثلاث من أسنانه في تكشيرة دائمة. كما كان الشعر في جبهته وحاجبيه كثيفًا قصيرًا وله لون أحمر فاقع.

قال المفتش: إنه جميل، أليس كذلك؟

علّق هولمز: إنه يحتاج إلى الاغتسال بالتأكيد. ولقد توقعت أنه قد يحتاج ذلك، فسمحت لنفسي بأن أحضر أدوات الاستحمام معي.

فتح حقيبته وهو يتحدث ليخرج منها –لدهشتي– قطعة إسفنج كبيرة جدًّا. فقهقه المفتش قائلًا: أنت رجل مضحك.

– والآن، إذا تكرمت وفتحت هذا الباب بهدوء شديد، سنجعله بمظهر يستحق احترامًا أكبر في وقت قصير.

– حسنًا، لا أرى مانعًا في ذلك، فهو يبدو بشكل لا يليق بسجن شارع بو، أليس كذلك؟

أدخل مفتاحه في القفل، وكنّا هادئين تمامًا عندما دخلنا الزنزانة. تقلّب النائم قليلًا، ثم عاد ليغرق مرة أخرى في سباته العميق. مال هولمز ناحية دورق المياه، وبلّل قطعة الإسفنج ثم حكّ بها وجه السجين مرتين بقوة، ثم صاح: اسمحا لي بأن أقدّم لكما السيد نيفيل سانت كلير من بلدة «لي» من مقاطعة كِنت!»

لم أرَ في حياتي مثل ذلك المنظر. فلقد انسلخ وجه الرجل تحت قطعة الإسفنج كما ينسلخ اللحاء عن الشجر. اختفى اللون البني الخشن، كما اختفى أيضًا أثر الجرح الذي كان قد ترك ندبة على طول وجهه، والشفة الملتوية التي أضافت على وجهه ذلك الشكل المثير للاشمئزاز! وكذلك انتزع منه الشعر

الأحمر، وها هو يجلس على السرير بوجهه الحزين الشاحب بمظهر مهذب وشعر أسود، بالإضافة إلى بشرة ناعمة. وفجأة أدرك افتضاح أمره، فصرخ ورمى بنفسه على السرير مُخفيًا وجهه بالوسادة.

صاح المفتش: يا إلهي! إنه هو بالفعل، الرجل المفقود. أنا أعرفه من الصورة.

استدار السجين بتهور رجل ترك مصيره في يد القدر قائلًا: وإن يكن ذلك، ما هي تهمتي؟

قال المفتش بابتسامة عريضة: التخلص من السيد نيفيل سانت كلير.. أوه، لا يمكن أن تُتهم بذلك إلا لو حُوِّلت إلى قضية محاولة انتحار. حسنًا، لقد قضيت سبعة وعشرين عامًا في الشرطة، وهذه أغرب قضية صادفتها.

– ما دمت أنا السيد نيفيل سانت كلير، فإنه من الواضح أنه لا توجد جريمة، ولذلك فاحتجازي هنا غير قانوني.

قال هولمز: لا توجد جريمة، لكن يوجد خطأ هائل ارتُكب. لقد كان من الأفضل أن تأتمن زوجتك على سرّك.

أنَّ السجين قائلًا: لم تكن زوجتي هي المقصودة، بل الأطفال. فليساعدني الله، لن أحتمل شعورهم بالخجل من أبيهم. يا إلهي! يا لها من فضيحة! ماذا يمكنني أن أفعل؟

جلس شيرلوك هولمز بجانبه، وربّت على كتفه بلطف قائلًا: إذا تركت الأمر للقضاء، فلن يمكنك بالتأكيد تجنّب انتشار الخبر، لكن من ناحية أخرى لو أقنعت الشرطة أنه لا توجد قضية ضدك، فلا أجد سببًا لأن تصل تفاصيل القضية إلى الصحف. أنا متأكد أن المفتش برادستريت سيسجّل كل ما ستقوله ويرفعه للسلطات المسؤولة، وبالتالي لن تُرفع القضية إلى المحكمة على الإطلاق.

صاح السجين بحرارة: باركك الله، لقد كنت لأتحمل السجن، بل الإعدام في مقابل ألّا يتحول سري الشائن إلى وصمة عار في مستقبل أطفالي. ستكونون أول من يسمع قصتي. لقد كان أبي أستاذًا في تشسترفيلد، تلقيتُ تعليمًا ممتازًا. وسافرت في شبابي وعملت ممثلًا في المسرح، وأخيرًا أصبحت مراسلًا في صحيفة مسائية في لندن. وفي أحد الأيام، أراد رئيس التحرير سلسلة من المقالات عن التسوّل في العاصمة، فتطوعت لتقديمها، فكانت هذه هي نقطة البداية لمغامراتي، فلم أكن أستطيع الحصول على الوقائع التي ستستند إليها مقالاتي إلا عن طريق تجربتي للتسوّل الفعلي. وعندما مثّلتُ الدور، تعلمت كل أسرار التنكر، وكنت مشهورًا بهذه المهارة. قمت باستغلال هذه الميزة؛ حيث صبغت وجهي وصنعت ندبة كبيرة لأبدو مثيرًا للشفقة قدر الإمكان، كما قمت بتثبيت أحد جانبي شفتي بشكل ملتو بمساعدة شريط لاصق بلون الجلد. ثم ارتديت الملابس المناسبة ووضعت شعرًا أحمر مستعارًا. وبعد ذلك أخذت مكاني في القسم التجاري من المدينة لأبيع الثقاب ظاهريًّا، لكنني في الحقيقة أتسوّل. اجتهدت في العمل لمدة سبع ساعات، وحين عدت إلى المنزل في المساء وجدت –لدهشتي– أنني تلقيت 4 جنيهات و26 قرشًا.

كتبت مقالاتي، ولم أفكر في الأمر كثيرًا حتى ضمنت صديقًا لي في فاتورة شراء، وحُكم عليّ لسداد خمسة وعشرين جنيهًا. لم أجد حلًّا، ولم أعرف كيف أحصل على المال، حتى خطرت ببالي فكرة مفاجئة. توسلت للدائن أن يمهلني أسبوعين، وطلبت إجازة من العمل. قضيت الوقت في التسوّل في المدينة متنكرًا، وفي عشرة أيام كان لدي ما يكفي لسداد الدَّين.

حسنًا، يمكنكم أن تتخيلوا كم هو صعب أن يرضى المرء بالعمل مقابل جنيهين في الأسبوع، في حين أنه يعرف أن بإمكانه أن يتحصل على نفس المبلغ في يوم واحد عن طريق تلطيخ وجهه بالقليل من الألوان ووضع قبعة على الأرض والجلوس دون حركة.

لقد كانت معركة طويلة بين كرامتي والمال، وانتصرت النقود في النهاية. تركت الصحافة وجلست يومًا بعد يوم في الزاوية التي اخترتها من البداية مُثيرًا للشفقة بوجهي الرهيب، بينما أملأ جيبي بالعملات النحاسية. لم يعرف بسرّي سوى رجل واحد، وهو حارس وكر حقير في زقاق سواندام حيث استأجرت غرفة منه، أخرج في الصباح كمتسول حقير، ثم أعود لرجل حسن الملبس في المساء. وتلقى هذا الرجل -البحّار- أجرًا جيدًا للغرفة، ولهذا عرفت أن سرّي سيبقى في أمان معه.

وجدت نفسي أوفّر مبالغ كبيرة بسرعة. لا أعني أن أي متسوّل في لندن يمكن أن يجمع سبعمئة جنيه في السنة -وهو مبلغ أقلّ من متوسط ما أجمعه- لكنني كنت أمتلك قدرات استثنائية في التنكر، بالإضافة إلى سرعة بديهتي التي تحسّنت بالتدريب وجعلتني مُميزًا في المدينة. انهال عليّ المال بمختلف فئاته طوال اليوم، وكان اليوم السيئ للغاية هو الذي أفشل خلاله في جمع جنيهين.

كلما ازددت في الثراء، ازداد طموحي، فاشتريت منزلًا في الريف وتزوجت في النهاية دون أن يشك أحد في مهنتي الحقيقية. عرفت زوجتي العزيزة أن لدي عملًا في المدينة، لكنها لم تعرف طبيعته.

يوم الاثنين الماضي أنهيت يومي وارتديت ملابسي في غرفتي فوق وكر الأفيون، حينما نظرت من النافذة فرأيت -لدهشتي ورعبي- أن زوجتي تقف في الشارع وعيناها مُثبّتتان عليّ. خرجت مني صرخة دهشة، ورفعت ذراعي لأغطي وجهي، وأسرعت إلى البحّار كاتم أسراري أتوسّل إليه أن يمنع أي شخص من الصعود إليّ. سمعت صوتها بالأسفل، ولكنني عرفت أنه لن يكون بإمكانها الصعود. خلعت ملابسي بسرعة، وارتديت ملابس المتسوّل ووضعت الأصباغ والشعر المستعار. حتى عينا زوجتي لم تكن لتخترق مثل هذا التنكّر الكامل.

وعندها خطر على بالي أن من الممكن أن يتمّ تفتيش الغرفة، وأن وجود ملابسي الأصلية قد يفضحني. فتحت النافذة، وبسبب عنفي انفتح جرح كنت قد أصبت به في غرفة نومي ذلك الصباح. بعدها ضغطت معطفي الذي كان ثقيلًا من العملات المعدنية التي نقلتها إليه منذ لحظات من الحقيبة الجلدية التي أضع فيها إيرادي. ألقيته خارج النافذة، واختفى في النهر. وكنت على وشك أن ألقي بباقي الملابس، لكن اندفع عدد من رجال الشرطة على الدرج، وأعترف أنني قد شعرت بالراحة بعدما قبضوا عليّ بتهمة قتل السيد نيفيل سانت كلير بدلًا من أن يعرفوا أنني نيفيل نفسه.

لا أظن أن لديّ أي شيء آخر لأشرحه، فقد كنت مصمّمًا على المحافظة على سرية شخصيتي لأطول فترة ممكنة، ولهذا فضّلت أن يبقى وجهي قذرًا. ولمعرفتي أن زوجتي ستكون في غاية القلق، قمت بخلع خاتمي -في لحظة لم يكن يراقبني فيها أي شرطي- وأعطيته للبحّار ومعه رسالة كتبتها على عجل لزوجتي، أخبرها بأنه لا داعي للخوف».

فقال هولمز: لم تصلها هذه الرسالة إلا بالأمس فقط.

- يا إلهي! يا له من أسبوع قد قضته!

قال المفتش برادستريت: كان رجال الشرطة يراقبون ذلك البحّار، ولذلك يمكنني أن أستنتج أنه قد واجه صعوبة في إرسال الخطاب دون أن يلاحظه أحد. ومن المحتمل أن يكون قد أعطاه لأي بحّار من زبائنه وتأخر في إرساله لعدة أيام.

هزّ هولمز رأسه موافقًا ثم قال: هذا ما حدث بلا شك. ولكن ألم تتم محاكمتك بتهمة التسوّل من قبل؟

– مرات كثيرة، ولكن ماذا تمثل الغرامة مقارنة بما أجنيه؟

قال برادستريت: يجب أن يتوقف الأمر عند هذا الحد على أي حال. إن تسترت الشرطة على الموضوع، فلن يكون هناك هيو بون بعد الآن.

– أقسم على ذلك بأغلظ الأيمان.

– في هذه الحالة، أعتقد أننا لن نتخذ أي إجراءات إضافية، لكن لو قُبض عليك مرة أخرى، فسيتم فضح كل شيء. أنا واثق يا سيد هولمز بأننا مدينون لك بالكثير لتوضيحك هذه المسألة. أتمنى أن أعرف كيف خرجت بمثل هذه الاستنتاجات.

فقال صديقي: لقد توصلت إليها من خلال جلوسي على خمس وسائد، وتدخيني لكومة من التبغ. أتوقع يا واتسون إذا انطلقنا الآن أن نتمكن من الوصول إلى شارع بيكر في وقت مناسب للإفطار.

بذور البرتقال الخمس

عندما ألقي نظرة على ملاحظاتي أو تسجيلاتي لقضايا شيرلوك هولمز بين عامي 1882 و1890، فإنني أواجه العديد من الغرائب المشوّقة، والتي تجعل من الصعب تحديد أيّها أختار، وأيّها أترك. بعضها اكتسب شهرة من خلال الصحف، وبعضها أتاح المجال للمميزات الخاصة التي يتمتع بها صديقي بشكل كبير، وكذلك بعضها حيّر مهاراته التحليلية، لتصبح قصصًا نعرف بداياتها لكن دون نهايات، وكذلك حُلَّ بعضها جزئيًّا؛ حيث اعتمد تفسيرها على التخمين والتصوّر، وليس الدليل المنطقي بشكل مُطلق، والذي كان مُفضلًا بالنسبة له. وهنا قصة من النوع الأخير والتي كانت مُميزة جدًّا بتفاصيلها، ومذهلة في نتائجها، وتغريني بأن أقصّها بالرغم من أن بعض النقاط المتصلة بها لم تتضح بشكل كامل حتى الآن، ومن المُرجح أنها لن تتضح أبدًا.

شغلنا عام 1887 بسلسلة طويلة من القضايا متفاوتة الأهمية، والتي احتفظت بتسجيلاتها. وبين عناويني في ذلك العام أجد تسجيلًا لمغامرة مجلس برادول، ومغامرة جماعة الرهبان الهواة الذين قاموا ببناء نادٍ فخم في سرداب أحد مستودعات الأثاث، وتسجيلًا للحقائق المتعلقة بفقدان السفينة البريطانية «صوفي أندرسون»، والمغامرات الفريدة لعائلة جريس باترسون في جزيرة أوفا، وأخيرًا قضية تسمم كامبرويل. وفي الأخيرة، تمكّن شيرلوك هولمز من إثبات أن ساعة القتيل قد مُلئت قبل ساعتين من وفاته، وبذلك يكون القتيل قد أوى إلى فراشه في ذلك الوقت، وقد كان لهذا الاستنتاج أهمية عظيمة في حل القضية، ربما أُوَضّح تلك القضايا في المستقبل، لكنها لا تتميز بتلك الخصائص الفريدة لسلسلة الملابسات الغريبة التي أمسك قلمي الآن لأصفها لكم.

كنا في الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر، وقد هبت العواصف الموسمية بعنف أكثر من المعتاد. الرياح تصرخ، والأمطار تضرب النوافذ بعنف طوال اليوم، حتى هنا في قلب لندن العظيمة، كنّا مجبرين بأن نبتعد بعقولنا في الوقت الحاضر عن نمط حياتنا المألوف، وأن ننتبه لوجود قوى عظمى تصرخ على الإنسان كالوحش المحبوس في قفص من خلف قضبان الحضارة التي تفصل بينهما. وحين نزل المساء، زادت العاصفة قوةً وهديرًا، وأخذت الرياح في الصراخ والنواح عبر المدفأة. جلس شيرلوك هولمز على أحد جوانب المدفأة مكتئبًا، وأخذ يراجع فهرس سجلات قضاياه، في حين استغرقت أنا في قراءة إحدى قصص كلارك راسل البحرية الرائعة، حتى خُيّل لي أن زئير العاصفة قد اختلط بالنص، وأن دقات المطر قد استطالت لتطول أمواج البحر الهائج. كانت زوجتي في زيارة حينها لأمها، فعُدتُ لعدة أيام إلى الإقامة في مسكني القديم في شارع بيكر.

صحت مندهشًا وأنا أنظر إلى رفيقي قائلًا: ما هذا؟! لعله الجرس! لكن مَن قد يأتي الليلة؟ بعض أصدقائك ربما؟

فأجاب: ليس لدي أصدقاء سواك. وأنا لا أشجّع الزوار.

– عميل إذن؟

– إذا كان الأمر كذلك، فإنها قضية خطيرة. فلن يأتي رجل في يومٍ كهذا وفي ساعةٍ كتلك لسبب أقل من ذلك. ولكنني أرجح أنه أحد ضيوف صاحبة المنزل.

كان شيرلوك هولمز مخطئًا في تخمينه. عندما سمع الخطوات الآتية من الممرّ، والطرقات على الباب، مدَّ ذراعه الطويلة ليزيح المصباح بعيدًا عنه ويسلطه تجاه المقعد الخالي، والذي سيجلس عليه القادم الجديد بلا شك، ثم قال: ادخل.

دخل شاب في الثانية والعشرين من عمره على ما يبدو، أنيق، يحمل وجهه مسحة من الطيبة والرقّة. وقد دلّت المظلة المُبلَّلة التي حملها في يده، ومعطف الوقاية من المطر الطويل اللامع الذي ارتداه على مدى قسوة الطقس الذي جاء فيه. نظر إليه شيرلوك بترقب تحت وهج المصباح، واستطعت رؤية شحوب وجهه، وتثاقل عيونه كمن يرضخ تحت وطأة قلقٍ شديد. ثم قال: أنا أدين لك باعتذار. ورفع نظارته الذهبية على عينيه واستطرد: أرجو ألا أكون متطفلًا، وأخشى أن أكون قد جلبت بعض آثار العاصفة والمطر إلى غرفتك الدافئة.

فقال هولمز: أعطني معطفك ومظلتك، وسنعلقهما هنا على الخطّاف ليجفّا. لقد جئت من الجنوب الغربي كما أرى.

- نعم، من هورشام.

- خليط الطين والجير الذي أراه على أطراف أصابع قدميك مُميَّزٌ للغاية.

- لقد جئت طالبًا النصيحة.

- هذا أمرٌ سهل.

- والمساعدة.

- لا تكون بنفس السهولة دائمًا.

- لقد سمعت عنك يا سيد هولمز. سمعت من الرائد برندرجاست كيف أنقذته من فضيحة نادي تانكرفيل.

- آه، بالطبع. لقد اتُّهِم ظلمًا بالغش في أوراق اللعب.

- قال إنك تستطيع حل أي شيء.

- لقد بالغ في كلامه.

- وإنك لم تُهزم من قبل.

- لقد هُزمت أربع مرات؛ ثلاث مرات من الرجال، ومرّة من امرأة.

- ولكن ما حجم ذلك مقارنة بعدد نجاحاتك؟

- هذا صحيح، فأنا ناجح بشكل عام.

- إذن، لعلك تنجح معي.

- أرجو أن تسحب مقعدك بالقرب من النار، وتخبرني بتفاصيل قضيتك.

- إنها ليست بالقضية العادية.

- كل القضايا التي أتتني لم تكن عادية، فأنا الملاذ الأخير حينما يعجز الجميع.

- وبالرغم من ذلك، فإنني أشك يا سيدي أنك سمعت قضية أكثر غموضًا، أو سلسلة أحداث غير

مُبرَّرة كالتي حدثت في عائلتي رغم كل خبرتك.

فقال هولمز: أنت تشوقني، فلتخبرني –بربك– الحقائق الأساسية من البداية، وبعدها سأسألك عن التفصيلات التي ستبدو مهمة بالنسبة لي.

سحب الشاب مقعده وقرّب قدميه المبلّلتين من اللهب ثم قال: اسمي جون أوبنشو، ولكن ليس لي علاقة بهذه القضية كما أعتقد. إنها مشكلة ميراث، لذا كي أعطيك فكرة عن الحقائق، يجب أن أعود بك إلى بداية الموضوع. يجب أن تعرف أن جدي كان له ولدان: عمي إلياس، ووالدي جوزيف. وقد امتلك أبي مصنعًا صغيرًا في كوفنتري، والذي قام بتوسعته في وقت اختراع الدرّاجات، وحصل على براءة اختراع إطارات أوبنشو غير القابلة للكسر، نجحت تجارته لدرجة أنه استطاع بيعها والتقاعد بدخل كبير.

أما عمي إلياس فقد هاجر إلى أمريكا عندما كان شابًّا، وعمل مزارعًا في فلوريدا، حيث سمعنا أنه أبلى بلاء حسنًا. وفي وقت الحرب، انخرطَ في جيش «جاكسون» ومن بعده «هود»، حيث ترقى لرتبة عقيد. وعندما استسلم «لي»، عاد عمي إلى مزرعته حيث بقي هناك ثلاث أو أربع سنوات. وفي عام 1869 أو 1 عاد إلى أوروبا، واشترى مزرعة صغيرة في سَسِكْس بالقرب من هورشام، كوّن عمي ثروة معقولة جدًّا في الولايات المتحدة، وقد غادرها فقط لأنه يكره الزنوج، ولرفضه سياسة الديمقراطيين التي تمنحهم الامتيازات. كان عمي رجلًا وحيدًا، عنيفًا، حاد الطباع، بذيء اللسان عندما يغضب، وذا نزعة انطوائية، حتى إنني أشك أنه قد ذهب إلى المدينة ولو لمّرة واحدة طوال تلك السنوات التي عاشها في هورشام. كان لديه حديقة وحقلان أو ثلاثة حول منزله، حيث كان يقوم بتمارينه، وإن كان في أغلب الأحيان يقضي أسابيع طويلة دون أن يغادر غرفته، يسرف في شرب الكونياك، كما كان يدخّن بشراهة دون أن يختلط بالناس، ولم يرد أي أصدقاء، ولا حتى أخاه.

إلا أنه لم يكن يمانع وجودي معه، بل في الحقيقة كان يميل إلى ذلك منذ رآني أول مرة، وكان عمري حينها أقل من اثني عشر عامًا تقريبًا. كان ذلك في عام 1878 بعدما قضى ثماني أو تسع سنوات في إنجلترا. توسّل إلى أبي ليسمح لي بالعيش معه، وكان كريمًا معي بطريقته الخاصة، عندما يفيق من تأثير الشراب، كان يحب أن يلعب معي الطاولة والداما، وجعلني أنوب عنه في التعامل مع الخدم والتّجار، ولذلك حين بلغت السادسة عشرة كنت –نوعًا ما– سيد المنزل. احتفظت بكل المفاتيح، وكان بإمكاني الذهاب حيثما أريد، وأفعل ما أحب ما دمت لم أزعجه في عزلته. كان هناك استثناء واحد: هناك غرفة خشبية في العليّة مغلقة دائمًا، وغير مسموح لي ولا لأي شخصٍ آخر دخولها. ولقد دفعني فضول الأطفال إلى النظر من خلال ثقب المفتاح، لكني لم أرَ سوى مجموعة من الصناديق والحزم القديمة كما هو مُتوقع في مثل هذه الغرف.

وفي يوم –كان في مارس عام 1883– وجدت خطابًا عليه طابع بريد أجنبي أمام طبق عمي. لم يكن مُعتادًا أن تصله خطابات، حيث تُدفَع كل الفواتير نقدًا، وليس له أصدقاء من أي نوع. قال وهو يمسك الخطاب: من الهند! وختم بريد يوندشيري! ماذا يمكن أن يكون هذا؟ ثم فتحه فسقطت خمس بذور برتقال صغيرة وجافة في طبقه. شرعت في الضحك، ولكن الضحكة تجمّدت على شفتيَّ عندما رأيت

وجهه. فقد تدلّت شفتاه، وبرزت عيناه، وشحب لونه، وأخذ يحملق في الظرف الذي ما زال في يده المرتجفة، ثم صرخ: «ك. ك. ك.! يا إلهي، لقد أدركتني خطاياي!»

فصحت: ماذا هناك يا عمي؟

فقال: «الموت!» ثم نهض عن الطاولة وذهب إلى غرفته وتركني أرتجف من الرعب. فأخذت الظرف ورأيت الخط الرديء بالحبر الأحمر في الجزء الداخلي للغلاف فوق الشمع مباشرة، حيث تكرر الحرف (ك) ثلاث مرات. لم يكن هناك أي شيء سوى البذور الخمس الجافة. ماذا يمكن أن يكون سبب هذا الذعر الذي أصابه؟ تركت مائدة الإفطار، وبينما كنت أصعد الدرج قابلته نازلًا ومعه مفتاح صدئ في يدٍ -أدركت أنه لا بد أن يكون مفتاح العليّة- وفي اليد الأخرى حمل علبة نحاسية صغيرة كالتي تُستخدم في حفظ النقود. وقال متوعدًا: قد يفعلون ما يريدون، ولكني سأهزمهم في كل الأحوال. أخبر ماري أنني سأحتاج نارًا في غرفتي اليوم، وأرسل في طلب فوردهام محامي مدينة هورشام.

نفّذت أوامره، وعندما وصل المحامي، طُلِبَ مني أن أدخل الغرفة. كانت النار تتأجج في الموقد، وهناك كتلة من الرماد الأسود المنثور كبقايا الورق المحروق، بينما كان الصندوق النحاسي مفتوحًا وفارغًا إلى جانبه. عندما خطفت نظرة إلى الصندوق، لاحظت أن الغطاء مطبوع عليه حرف (ك) ثلاث مرات، وهو نفس ما قرأته على الظرف في الصباح.

قال عمي: أريدك يا جون أن تشهد على وصيتي. إنني أترك مزرعتي بكل مزاياها وعيوبها لأخي، أبيك، والتي ستؤول في نهاية الأمر إليك بلا شك. إذا استطعت الاستمتاع بها في سلام، فهنيئًا لك! وإذا لم تستطع، خذ بنصيحتي يا بني واتركها لألدّ أعدائك. أنا آسف على إعطائك شيئًا ذا حدّين بهذا الشكل، لكني لا أعرف إلامَ ستؤول الأمور. وقّع الأوراق حيث يشير لك السيد فوردهام من فضلك.

وقّعت الأوراق حيثما أشار، وأخذها المحامي معه. تركت تلك الحادثة الفظيعة في نفسي أثرًا عميقًا كما تتوقع. فكّرت مليًّا، وقلّبت الأمر على كل جوانبه في عقلي، فلم أستطع الخروج بأي شيء. ومع ذلك لم أستطع التخلّص من الشعور الغامض بالخوف الذي خلّفه في نفسي، وإن بدأ ذلك الإحساس بالتضاؤل بمرور الأسابيع. لم يحدث ما يعكّر نمط حياتنا المعتاد، لكن كان بإمكاني رؤية تغيّر عمي، حيث صار يشرب أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وأصبح أكثر انطوائية وأقل ميلًا للاجتماع بأي شخص، يمضي وقتًا أطول في غرفته بعد أن يحكم إغلاقها من الداخل، وأحيانًا يخرج مهتاجًا من الشراب إلى الحديقة شاهرًا مسدسه صارخًا بأنه لا يخشى أحدًا، وأنه لا يمكن لأحد حبسه كما تُحبس الأغنام في الحظيرة، سواء كان إنسانًا أو حتى شيطانًا. وعندما تهدأ هذه النوبات، كان يندفع نحو الباب ليغلقه كرجل لا يمكنه السيطرة على رعبه المتأصل في روحه. وفي تلك الأوقات كنت أرى وجهه -حتى في الأيام الباردة- يتصبب عرقًا كما لو أنه رفعه من حوض الماء توًّا.

حسنًا، في الختام يا سيد هولمز، وحتى لا ينفد صبرك، جاءت ليلة حيث قام بإحدى تلك الجولات وهو مخمور، ولم يعد منها. بحثنا عنه، فوجدناه قد انكفأ على وجهه في بركة صغيرة يكسوها العشب الأخضر تقع في آخر الحديقة. لم يكن هناك آثار لعنف، ولم يزد عمق البركة عن قدمين، لذا قرر المُحلّفون -نظرًا لما عُرِفَ عنه من غرابة أطوار- أنها حالة انتحار، لكنني ولمعرفتي بأنه يخاف من

مجرّد التفكير في الموت، واجهت صعوبة في إقناع نفسي بأنه خرج لمواجهته. وانقضى الأمر على كل حال، وحصل أبي على العزبة، بالإضافة إلى 14.000 جنيه إسترليني في حسابه البنكي.

قاطعه هولمز قائلًا: لحظة واحدة، إن روايتك يا سيدي -كما أتوقع- واحدة من أكثر القضايا التي استمعت إليها تميزًا. أرجو أن تخبرني بتاريخ استلام عمّك للخطاب، وتاريخ انتحاره المزعوم.

– وصل الخطاب في العاشر من مارس 1893. وكانت وفاته بعد ذلك بسبعة أسابيع في ليلة الثاني من مايو.

– شكرًا لك، استأنف قصتك من فضلك.

– عندما انتقلت ملكية عزبة هورشام إلى أبي، قام -بناء على طلبي- بفحص العليّة التي كانت مُغلقة دائمًا فحصًا جيدًا. ولقد وجدنا الصندوق النحاسي فيها، وإن أُتلِفت محتوياتها. وفي بطانة الغطاء وجدنا بطاقة ورقية مكتوب عليها الحروف الأولى (ك. ك. ك.) وكلمات أخرى مكتوبة تحتها هي (خطابات، مذكّرات، إيصالات، سجل). افترضنا أن هذه الكلمات توضّح طبيعة الأوراق التي دُمِّرت بواسطة العقيد أوبانشو. وباقي الأشياء في العليّة لم تكن ذات أهمية، بل فقط بعض الأوراق والمذكّرات التي تتعلق بحياة عمي في أمريكا. بعض منها عن فترة الحرب، تُظهر أنه قد قام بواجبه على أكمل وجه، واشتهر بأنه جندي شجاع. والبعض الآخر من فترة إعادة بناء الولايات الجنوبية، والتي تعلقت في معظمها بالسياسة، حيث كان من الواضح أنه لعب دورًا كبيرًا في معارضة السياسيين المتطفلين الذين جاؤوا من الشمال.

كنّا في بداية عام 1884 عندما انتقل والدي للإقامة في هورشام، ومضى كل شيء بأفضل حال بالنسبة لنا حتى شهر يناير عام 1885. ففي الليلة الرابعة في السنة الجديدة، سمعت أبي يصرخ صرخة دهشة حادة ونحن جالسون إلى مائدة الإفطار، حيث كان جالسًا وفي إحدى يديه ظرف فُتِحَ لتوّه، وفي كفه الأخرى المدودة خمس بذور برتقال جافة. لطالما سخر أبي مني ومما أطلق عليه حكاية ألف ليلة وليلة عن العقيد، لكن بدا عليه في تلك اللحظة الخوف والحيرة بأن جاءه نفس الشيء.

فقال متلعثمًا: لماذا؟! ما معنى هذا يا جون؟

فشعرت بقلبي ثقيلًا وأنا أقول: إنها (ك. ك. ك.).

نظر داخل الظرف وصاح: إنها كذلك. إنها نفس الحروف، لكن ما المكتوب فوقها؟

اختلست النظر من فوق كتفه وقرأت: «**ضع الأوراق في الساعة الشمسية**».

فسأل: أي أوراق؟ وأي ساعة شمسية؟

فقلت: الساعة الشمسية في الحديقة. لا يوجد غيرها. أمّا الأوراق، فلا بد أنها تلك التي أُتلِفت.

حاول استجماع شجاعته قائلًا: هراء! نحن في بلد متحضر هنا، ولا يمكن أن نتحمل سخافة من هذا النوع. من أين أتى هذا الخطاب؟

فأجبته وأنا ألقي نظرة على الختم البريدي: من دندي.

فقال: يا لها من مزحة خرقاء! ما شأني أنا بالساعات الشمسية والأوراق؟ يجب ألّا أبالي بهذه التفاهات.

فقلت: يجب أن نبلغ الشرطة.

– وأتعرض للسخرية؟ لن أفعل شيئًا من هذا القبيل.

– إذن، اسمح لي بأن أفعل أنا ذلك.

– لا، أنا أمنعك من ذلك. لا أريد إثارة ضجّة بسبب شيء تافه كهذا.

كان من العبث الجدال معه، إذ كان رجلًا عنيدًا للغاية. فتجاوزت الأمر مُثقلًا بالتشاؤم. وفي اليوم الثالث بعد وصول ذلك الخطاب، غادر أبي المنزل ليزور صديقًا قديمًا، وهو الرائد فريبدي، والذي كان قائدًا لأحد الحصون على تل بورتسداون. كنت سعيدًا بذهابه، حيث بدا لي أنه كلما بَعُدَ عن المنزل، قل الخطر. وكنت مخطئًا في ذلك الأمر. ففي اليوم التالي من غيابه استقبلت برقية من الرائد يحثّني فيها على القدوم فورًا. لقد سقط أبي في إحدى الحفر الجيرية العميقة المنتشرة في المنطقة، ورقدَ فاقدًا الوعي، وجمجمته مُهشَّمة. أسرعت إليه، لكنه مات ولم يستعد وعيه أبدًا. كان عائدًا –على ما يبدو– من فيرهام في وقت الغسق، ولأن المنطقة لم تكن مألوفة لديه، ومحاجر الجير غير مُسيَّجة، فلم يتردد المحلفون في إصدار قرارهم بأن «الموت كان حادثة»، وبالرغم من أنني فحصت كل الحقائق المتعلقة بموته، لم أتمكن من إيجاد أي شيء يوحي بفكرة القتل. فلم يكن هناك أي دليل على العنف، ولا آثار أقدام، ولم يُسرَق، ولم يسجِّل أيٌّ من أهل المنطقة رؤية لغرباء في الطريق. ومع ذلك، فإني لا أحتاج أن أخبرك أن عقلي كان أبعد ما يكون عن الراحة، وأنني كنت متأكدًا أن هناك مؤامرة حقيرة قد حيكت ضده.

وبهذه الطريقة المشؤومة حصلت على ميراثي. ستسألني لماذا لم أتخلص منه؟ وسأجيب بأنني كنت مقتنعًا بأن تلك المشكلات متعلقة –بطريقة ما– بحادثة في حياة عمي، وأن الخطر سيتساوى في هذا المنزل مع غيره.

مات والدي المسكين في يناير عام 1885، وانقضى عامان وثمانية أشهر بعدها. وفي خلال هذا الوقت عشت بسعادة في هورشام، وبدأت آمل في ابتعاد اللعنة عن العائلة، وأنها انتهت مع نهاية الجيل الراحل. قد تعجّلتُ الطمأنينة مبكرًا، حيث تلقّيت بالأمس نفس الصدمة التي تلقّاها أبي».

أخرج الشاب من جيب معطفه مظروفًا مُجعّدًا، وفوق الطاولة أخرج منه خمس بذور برتقال جافة وصغيرة.

واستطرد: هذا هو المظروف، وختم البريد من لندن –القسم الشرقي. وفي داخله نفس الكلمات التي كانت في رسالة أبي الأخيرة «**(ك. ك. ك.)** وتحتها **(ضع الأوراق في الساعة الشمسية)**.

سأله هولمز: وماذا فعلت؟

– لم أفعل شيئًا.

– لم تفعل شيئًا؟

غطّى وجهه بكفّيه النحيلتين الشاحبتين قائلًا: سأخبرك الحقيقة. لقد شعرت بالعجز. شعرت وكأني واحد من تلك الأرانب المسكينة عندما يزحف إليها الثعبان. يبدو أنني في قبضة شرٍّ جامح، ولن تحميني منه أي إجراءات وقائية.

صاح شيرلوك هولمز: هوه! هوه! يجب أن تتصرف يا رجل، وإلا فسوف يُقضى عليك. لا يمكن لشيء أن ينقذك سوى القوة. لا وقت لديك لليأس.

– لقد ذهبت للشرطة.

– آه! وماذا حدث؟

– استمعوا إلى قصتي وهم مبتسمون. وأنا مقتنع بأن المفتش قد استقرّ رأيه على أن الخطابات لا تتجاوز مزحة سخيفة، وأن وفيات أقاربي مجرد حوادث كما أقرّت المحكمة، ولا علاقة لها بالتحذيرات.

هزّ هولمز يديه في الهواء صائحًا: هذه حماقة غير معقولة!

– لكنّهم تركوا شرطيًّا ليبقى في المنزل معي على أية حال.

– هل جاء معك الليلة؟

– لا، فأوامره تقضي ببقائه في المنزل.

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟ والأهمّ هو لماذا لم تأتِ إليَّ في الحال؟»

– لم أكن أعرف. لم أتحدث مع الرائد برندرجاست عن مشكلاتي إلا اليوم، ونصحني بأن آتي إليك.

– لقد مضى يومان بالفعل منذ استلمت الخطاب. كان يجب علينا أن نتصرف قبل ذلك. فأنت لا تمتلك أي دليل آخر –على ما أظن– غير ذلك الذي عرضته علينا. ألا توجد أي تفاصيل موحية قد تساعدنا؟

قال جون أوبنشو: هناك شيء واحد.

ثم فتّش في جيب معطفه وأخرج ورقة بالية لونها أزرق، ووضعها على الطاولة قائلًا: أتذكر أنني قد لاحظت أنه في اليوم الذي أحرق فيه عمي الأوراق، لاحظت أن بعض الحافات غير المحترقة وسط الرماد كانت بنفس اللون. ولقد وجدت هذه الورقة الوحيدة على أرضية غرفته، وأتوقع أنها واحدة من تلك الأوراق وقد طارت من بينها ونجت من التلف. وبغض النظر عن ذكر البذور فيها، فأنا لا أرى أي شيء يمكن أن يساعدنا. أعتقد عن نفسي أنها ورقة من دفتر مذكّرات خاصة، وهذا خط عمّي بكل تأكيد.

حرّك هولمز المصباح، وانحنى كلٌّ منّا ناحية الورقة، والتي أظهرت حافتها غير المنتظمة أنها قد مُزِّقت من مذكرة بالفعل. كان عنوانها (**مارس 1869**) وتحتها هذه الملاحظات المُبهمة:

الرابع: جاء هدسون. نفس الرصيف القديم.

السابع: وضعت البذور لماكولي وبارامور وجون سوين من سانت أوجستين.

التاسع: غادر ماكولي.

العاشر: غادر جون سوين.

الثاني عشر: تمت زيارة بارامور. كل شيء جيد.

قال هولمز وهو يطوي الورقة ويعيدها إلى زائرنا: شكرًا! والآن لا يمكننا أن نخسر لحظة أخرى. ليس لدينا وقت لمناقشة ما قلته حتى. يجب عليك الذهاب إلى المنزل حالًا وأن تتصرف.

– ماذا يجب أن أفعل؟

– ليس أمامك سوى شيء واحد تفعله. ويجب أن تقوم به فورًا. يجب أن تضع قطعة الورق التي عرضتها علينا في الصندوق النحاسي الذي وصفته. يجب أن تضع ملحوظة تقول إن عمك قد حرق باقي الأوراق، وهذه هي الوحيدة المتبقية. يجب أن تؤكد ذلك بكلمات تقنعهم. بعد أن تفعل ذلك، يجب أن تأخذ الصندوق وتضعه في الساعة الشمسية كما أخبروك. هل تفهم ذلك؟

– تمامًا.

– لا تفكر في الانتقام أو أي شيء آخر من هذا القبيل في الوقت الحاضر. أظن أنه بإمكاننا تحقيق ذلك بوسائل قانونية، لكن الآن لدينا خطة نعدها، لأن خطتهم مُعدة بالفعل. يجب أن ينصبّ اهتمامنا الأول على إزالة الخطر الذي يهددك. الخطوة التالية هي كشف اللغز، ثم معاقبة الأطراف المذنبة.

فقال الشاب وهو ينهض ويرتدي معطفه: أشكرك! لقد بعثت فيّ الحياة والأمل من جديد. سوف أنفّذ نصيحتك بالتأكيد.

– لا تضيّع لحظة أخرى. والأهم من ذلك، خذ حذرك في الوقت الحاضر، لأنني لا أشك في أنك مُهدد بخطر حقيقي وشديد. كيف ستعود؟

– بالقطار من واترلو.

– لم تبلغ التاسعة بعد وستكون الشوارع مزدحمة، لذلك أظنّ أنك ستكون في أمان، وبالرغم من ذلك يجب أن تتوخى الحذر.

– أنا مُسلَّح.

– هذا جيد. سأبدأ غدًا في العمل على قضيتك.

– سأراك في هورشام إذن؟

– لا، يكمن سرّك في لندن، وسأسعى إلى حله هناك.

– حسنًا، سأتصل بك خلال يوم أو اثنين لأبلغك بأخبار الصندوق والأوراق. سأنفذ نصيحتك بحذافيرها.

ثم صافحنا وغادر، وفي الخارج لا تزال الرياح تهدر، والأمطار تدق على النوافذ. بدا أن القصة الغريبة والجامحة قد جاءت إلينا من عناصر الطبيعية الغاضبة، لتعصف بنا كطحلب صغير وسط العاصفة، والآن التحمت مع تلك القوى الغاضبة مرة أخرى.

جلس شيرلوك هولمز فترة من الوقت صامتًا، وقد أمال رأسه للأمام، وعيناه مثبتتان على وهج النار. ثم أشعل غليونه واعتدل في كرسيه ليراقب دوائر الدخان الأزرق وهي تتسابق الواحدة تلو الأخرى باتجاه السقف. وأخيرًا قال: «أعتقد يا واتسون أن من بين كل القضايا التي جاءتنا، هذه أروع قضية».

– باستثناء –ربما– قضية رمز الأربعة.

– حسنًا، قد أستثني تلك القضية. ومع ذلك أعتقد أن السيد جون أوبنشو يسير بين أخطار أعظم من تلك التي واجهت عائلة شلتوس.

فسألته: لكن هل كوّنت رأيًا محددًا عن طبيعة تلك الأخطار؟

فأجاب: لا شك لديّ في طبيعة هذه الأخطار.

– ماذا تكون إذن؟ من هو ك. ك. ك. ولماذا يسعى خلف تلك العائلة التعيسة؟

أغلق شيرلوك هولمز عينيه ووضع مرفقيه على مسندي الكرسي، وضمّ أطراف أصابعه بعضها إلى بعض قائلًا: المُحلل المثالي هو من يستطيع عند عرض حقيقة واحدة عليه بكل تفاصيلها أن يستنتج منها ليس فقط كل سلسلة الأحداث التي قادت إليها، بل كذلك كل النتائج التي ترتبت عليها. فمثل العالِم الطبيعي الذي يمكن أن يصف حيوانًا كاملًا بشكل صحيح من دراسة عظمة واحدة، كذلك المُلاحِظ يجب أن يكون قادرًا على استنتاج جميع الأحداث السابقة واللاحقة من خلال معرفة حلقة واحدة من سلسلة الأحداث. إننا لم ندرك حتى الآن ما الذي يمكن أن نصل إليه بالمنطق وحده. قد يُمكن حل المشكلات التي حيّرت كل أولئك الذين سعوا وراء الحل من خلال حواسّهم بالدراسة فقط. ولكي نصل بفن التحليل المنطقي إلى أقصاه، فمن الضروري على المُحلّل أن يستخدم كل الحقائق التي جاءته، ويدل ذلك في حد ذاته –كما سترى بوضوح– على امتلاك كل المعرفة، والتي تمثّل إنجازًا نادرًا حتى في عصر التعليم المجاني والموسوعات. ليس مستحيلًا بشكل كامل على الإنسان أن يمتلك كل المعرفة التي من المُرجَّح أن تساعده في عمله، وهذا هو ما سعيت جاهدًا إلى تحقيقه. وعلى ما أتذكر، قد قمت أنت في إحدى المناسبات في الأيام الأولى لصداقتنا بتحديد قدراتي بصفات دقيقة للغاية.

فأجبته ضاحكًا: نعم، لقد كانت وثيقة رائعة. فقد حصلت في الفلسفة والفلك والسياسة على صفر على ما أذكر. وبمستوى متفاوت في علم النبات، بينما كنت متعمقًا في علم الجيولوجيا لدرجة ملاحظة بقع الطين وتحديد مصدرها في نطاق خمسين ميلًا في البلدة. وقد كنت غريب الأطوار في الكيمياء، وغير مُنظَّم في علم التشريح، ومتميزًا في الأدب وسجلات الجريمة. وكنتَ عازفًا للكمان وملاكمًا بارزًا ومحاميًا، ومدمنًا على الكوكايين والتبغ. كما أتذكر فهذه هي النقاط الأساسية لتحليلي.

ضحك هولمز عند سماع الجملة الأخيرة قائلًا: حسنًا، ما أقوله الآن هو ما قلته وقتها وهو أنه يجب على الرجل الحفاظ على الأشياء المهمة في عقله، ويتجنب تكديسه بالأشياء الأخرى حتى يستطيع الحصول على تلك الأشياء المهمة عندما يريد. والآن، بالنسبة إلى القضية التي تسلّمناها الليلة، علينا أن نحشد كل مواردنا. ناولني بعد إذنك حرف الكاف في الموسوعة الأمريكية، ستجدها على الرف المجاور لك. شكرًا! والآن دعنا نستوعب الموقف ونرى ما يمكن استنتاجه. أولًا يمكننا البدء بافتراض أن كان للعقيد أوبنشو سبب قوي لمغادرة أمريكا. فالرجال في عمره لا يغيّرون عاداتهم ويستبدلون مناخ فلوريدا الرائع بالحياة القاتمة في الريف الإنجليزي بإرادتهم. ويرجّح ميله الشديد للعزلة في إنجلترا فكرة خوفه من شخص ما أو شيء ما. ومن ثم يمكننا أن نتبنى فرضية أن الخوف من شخص ما أو شيء ما هو الذي أخرجه من أمريكا. أما عن ماهية الشخص أو الشيء الذي خاف منه، يمكننا أن نستنتج ذلك إذا ما أخذنا

في الاعتبار تلك الحروف المرعبة التي تسلّمها هو وورثته من بعده. هل لاحظت الأختام البريدية على الخطابات؟

– الأول من بوندشيري، والثاني من دندي، والثالث من لندن.

– من شرق لندن. وما الذي تستنتجه من ذلك؟

– كلها مواني بحرية. ولذا فإن كاتب الخطابات كان على متن سفينة.

– ممتاز! الآن لدينا دليل. لا شك أن من المُرجح أن كاتب الخطابات كان على متن سفينة. الآن، فلنأخذ نقطة أخرى في الاعتبار. في حالة بوندشيري، كان هناك سبعة أسابيع بين التهديد والتنفيذ. وفي دندي كان الفاصل ثلاثة أو أربعة أيام. علامَ يدل ذلك؟

– كانت أمامه مسافة أطول ليقطعها».

– لكن كذلك كان للخطاب مسافة أطول ليقطعها».

– لا أستطيع فهم هذه النقطة».

– على الأقل توصلنا إلى فرضية أن السفينة التي جاء فيها الرجل أو الرجال هي سفينة شراعية. إذ يبدو أنهم يرسلون الإنذار دائمًا قبل أن يأتوا ويقوموا بمهمتهم. يمكنك رؤية سرعة الفعل بعد الإنذار عندما أتى من دندي. وإذا جاؤوا من بوندشيري بسفينة بخارية، لوصلوا في نفس وقت وصول الخطاب تقريبًا، لكن في الحقيقة، كان هناك فارق سبعة أسابيع. وأعتقد أن تلك الأسابيع السبعة هي الفارق بين سرعة سفينة البريد البخارية وسرعة السفينة الشراعية التي حملت كاتب الخطاب.

– هذا ممكن.

– بل أكثر من ذلك. هذا هو المُرجح. والآن فأنت ترى مدى أهمية السرعة في هذه القضية، ولذلك ألححت على أوبنشو الشاب أن يأخذ حذره. حيث أتت الضربة دائمًا مع نهاية الوقت الذي يستغرقه المُرسلون في قطع المسافة. ولكن في هذه المرة، جاء الخطاب من لندن، ولذا لا يمكننا الاعتماد على التأخير.

فصحت: يا إلهي! وماذا يمكن أن يعني ذلك التحذير القاسي؟

– من الواضح أن الأوراق التي حملها أوبنشو ذات أهمية كبيرة للشخص أو الأشخاص في السفينة الشراعية. وأعتقد أنه من الواضح أنهم أكثر من شخص واحد. فليس بمقدور شخص واحد أن ينفّذ جريمتي قتل بهذه الطريقة التي خدعت الطبيب الشرعي. لا بدّ أن كثيرين قد اشتركوا فيها، ولا بدّ أنهم يملكون الموارد والتصميم كذلك. فهم سيصلون إلى الأوراق التي يسعون وراءها أيًّا كان من يحملها. وبهذه الطريقة ترى ك. ك. ك. تتحول من حروف ترمز لاسم شخص، إلى علامة مُميّزة لجماعة معينة.

– ولكن لأي جماعة؟

قال شيرلوك هولمز وهو ينحني للأمام خافضًا صوته: ألم تسمع من قبل بجماعة (**كلو كلوكس كلان**)؟

– لم أسمع بها قط.

قلّب هولمز صفحات الكتاب الموجود على ركبتيه قائلًا: ها هو ذا..

«كلو كلوكس كلان: اسم مشتق من التشابه مع صوت إعداد البندقية للإطلاق. وهو اسم لجماعة سرّية رهيبة أسّسها بعض الجنود الاتحاديين السابقين في الولايات الجنوبية بعد الحرب الأهلية، وسريعًا ما شكّلت فروعًا محلية في مختلف أرجاء البلاد، وقد برزت في تنيسي ولويزيانا وكارولينا الشمالية والجنوبية وجورجيا وفلوريدا. وقد استخدمت قوتها لأغراض سياسية، ولإرهاب الناخبين الزنوج في المقام الأول. كما كانوا يقتلون وينفون كل من يعارض آراءهم من البلاد. وكانت تقوم بتلك الانتهاكات من خلال إرسال تحذير للرجل المطلوب بطريقة غريبة ولكنها مُميزة بوجه عام، وهي عُقد من أوراق البلوط في بعض الأماكن، وبذور البطيخ أو البرتقال في أماكن أخرى. وعند استلامها، فإن الضحية تعلن عن تغيير آرائها السابقة، أو تغادر البلاد. وإذا تحلى بالشجاعة وتحدى الأمر، فإن الموت مصيره بلا شك، وغالبًا يكون بطرق غريبة وغير مُتوقعة. ولقد كانت هذه الجماعة مُنظمة بشكل كبير حتى إنه لا يوجد تسجيل لأي حالة نجحت في تحدّيها دون عقاب، ولم يفلح تعقّب أيٍّ من هذه الانتهاكات في الإرشاد عن الجناة. ولبعض السنوات ازدهرت هذه الجماعة بالرغم من جهود حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، وجهود الطبقات العليا في المجتمع. وفي النهاية، وفي عام 1869 انهارت الحركة فجأة رغم وجود نشاط متقطع من نفس النوع منذ ذلك التاريخ».

قال هولمز وهو يضع المجلّد: لاحِظ أن انهيار الجماعة المفاجئ تزامن مع اختفاء أوبنشو من أمريكا بأوراقهم. قد تكون سببًا ونتيجة. لا عجب إذن أن هناك من يسعى خلف أوبنشو وعائلته بكل إصرار. يمكنك أن تتخيل أن هذا السجل واليوميات قد يورّطان بعض الرجال الأوائل في الجنوب، وأن الكثيرين منهم لا ينامون الليل بسهولة لأجل استرجاعها.

– إذن فإن الصفحة التي رأيناها.

– إنها كما نتوقع أن تكون. على ما أتذكر، فهي تنص على: أُرسِلت البذور إلى (أ) و(ب) و(ج)، ما يعني إرسال تحذير الجماعة إلى هؤلاء الأشخاص. وكذلك هناك تعقيبات لاحقة بأن (أ) و(ب) غادرا البلاد، وأن (ج) قد تمت زيارته. الأمر الذي أخشى أنه يعني نهاية سيئة بالنسبة له. حسنًا يا دكتور، فأنا أعتقد أننا قد سلّطنا بعض الضوء على تلك المنطقة المظلمة، وأعتقد أن الفرصة الوحيدة لدى أوبنشو الشاب في الوقت الحاضر هي تنفيذ ما طلبته منه، ومن ثم ليس لدينا ما نقوله أو نفعله الليلة، لذا فلتناولني الكمان، ولمدة نصف ساعة فلنحاول نسيان هذا الطقس البائس، والأحوال الأكثر بؤسًا لإخواننا في الإنسانية.

أصبح الجو صحوًا في صباح اليوم التالي، تسللت أشعة الشمس عبر حجاب رقيق من الضباب المُحيط بالمدينة العريقة. وقد كان شيرلوك هولمز يتناول إفطاره بالفعل حين دخلت عليه.

فقال عند رؤيتي: ستعذرني على عدم انتظارك. فأمامي -كما أتوقع- يوم حافل بالبحث في قضية أوبنشو الشاب.

فسألته: ما الخطوات التي ستتخذها؟

- سيعتمد ذلك بشكل كبير على نتائج تحقيقاتي الأولية. وقد أضطر إلى الذهاب إلى هورشام في النهاية.

- ألن تذهب إلى هناك أولًا؟

- لا، بل سأبدأ من المدينة. اقرع الجرس فقط، وستأتيك الخادمة بالقهوة.

وبينما كان منتظرًا، رفعت الجريدة المطوية عن الطاولة، وألقيت نظرة سريعة عليها لأتوقف عند عنوان بعث القشعريرة في قلبي، وصحت: هولمز! لقد تأخرت.

فقال وهو يضع فنجاله: آه! لقد كنت أخشى ذلك. كيف تمّ الأمر؟

تحدّثَ بهدوء، لكني استطعت رؤية أنه قد تأثر بشكل عميق.

- لقد التقطت عيناي اسم أوبنشو، ولقد كان العنوان: (**مأساة قرب جسر واترلو**) وفي الخبر:

«بين التاسعة والعاشرة من مساء أمس، كان الشرطي كوك في نوبته بالقرب من جسر واترلو، حين سمع استغاثة وصوت سقوط جسم في الماء. ولأن الليلة كانت مُظلمة وعاصِفة، وبالرغم من مساعدة بعض المارة، فإن الإنقاذ كان مستحيلًا. وقد أُطلِق جرس الإنذار على أية حال، وبمساعدة شرطة المسطّحات المائية، انتُشِلت الجثة في النهاية. وتبيّن أنها لشاب اسمه -كما يظهر في مظروف في جيبه- جون أوبنشو، وسكنه بالقرب من هورشام. من المُتوقع أنه كان يُسرع في محاولة للحاق بآخر قطار من محطة واترلو، وفي خِضم عجلته والظلام الشديد، خرج عن الطريق ومشى على حافة بعض المهابط الصغيرة للمراكب البخارية النهرية. وحيث لم تظهر أي آثار للعنف على الجثة، فإنه لا يوجد شك بأن القتيل كان ضحية حادث مؤسف. ويجب أن يلفت هذا الحادث انتباه السُلطات نحو حالة المهابط الصغيرة على حافة النهر».

جلسنا صامتين لبضع دقائق. كان هولمز مُحبطًا ومتأثرًا كما لم أره من قبل. ثم قال أخيرًا: هذا الأمر يجرح كبريائي يا واتسون. إنه إحساس تافه بلا شك، لكنه يجرح كبريائي. لقد أصبح الأمر شخصيًّا معي الآن. وإذا أعطاني الله القوة، سأقبض على هذه العصابة. لقد جاء إليّ طالبًا المساعدة، وأنا أرسلته ليلقى حتفه!

ثم هبّ من مقعده وأخذ يذرع الغرفة في هياج خارج عن السيطرة، وأصبح خداه الشاحبان محتقنين، وأخذ يقبض يديه النحيلتين الطويلتين ويبسطهما في حركة عصبية ثم قال: لا بد أنهم شياطين

مخادعون. كيف استدرجوه ليذهب إلى هناك؟ المرسى ليس على الطريق المباشر إلى المحطة، فلا بدّ إذن أن الجسر كان مزدحمًا –حتى في ليلة كتلك– ولذلك كان غير مناسب لِما يريدون. حسنًا يا واتسون، سنرى من سيربح في النهاية. سأخرج الآن!

– إلى الشرطة؟

– لا، سأكون أنا الشرطة الخاصة بي. عندما أنسج شبكتي، فلتستلم الشرطة الذباب المُتساقط.. لكن ليس قبلها.

كنت منهمكًا في عملي طوال اليوم، ولم أعد إلى المنزل في شارع بيكر إلا متأخرًا في الليل. لم يكن شيرلوك هولمز قد عاد بعد. لم تكد الساعة تقترب من العاشرة حتى عاد شاحبًا مُرهقًا. توجّه مباشرة إلى الطاولة الجانبية ليأخذ قطعة من الرغيف وأخذ يمضغها بنهم، ويتبعها بجرعة كبيرة من المياه.

فعقّبت: أنت جائع.

– بل أتضور جوعًا. لقد نسيت الأكل تمامًا ولم أتناول شيئًا منذ الإفطار.

– ولا شيء؟

– ولا حتى كسرة خبز. لم يكن عندي وقت لأفكر في ذلك.

– وكيف كان يومك؟

– جيد.

– هل توصلت إلى دليل؟

– إنهم في قبضة يدي. لن يتأخر ثأر الشاب أوبنشو لفترة طويلة. فلنرم بعلامتهم الشيطانية في وجوههم. لقد فكرت في الأمر بشكل كامل!

– ماذا تعني؟

تناول برتقالة من الخزانة، وقطعها نصفين، ثم عصرها ليخرج البذور منها على الطاولة. تناول خمسة منها ووضعها في مظروف، وكتب على الجزء الداخلي منه: «**(ش. هـ) من أجل (ج. أ.)**». ثم أغلق المظروف، وأرسله إلى القبطان جاميس كالهون، سفينة لون ستار، سافانا، جورجيا.

وقال مقهقهًا: ستنتظره هذه الرسالة عندما يصل الميناء، وستحرمه من النوم. وسيجدها نذير شؤم له كما وجدها أوبنشو من قبله.

– ومن يكون كابتن كالهون هذا؟

– زعيم العصابة. سأنال من الآخرين أيضًا، لكن هو أولًا.

– كيف تتبّعته إذن؟

أخرج من جيبه ورقة كبيرة ملأى بالأسماء والعناوين قائلًا: لقد قضيت اليوم كله في السجلات والأوراق القديمة لشركة لويد متتبعًا مسار كل سفينة رست في بوندشيري في يناير وفبراير 1883. كان هناك ست وثلاثون سفينة من السفن ذات الحمولة المعتدلة، والتي ذُكرت في التقارير في تلك الأشهر.

وقد جذبت إحداها انتباهي على الفور، وهي سفينة (**النجمة الوحيدة**)، ورغم كونها قد انطلقت من لندن فإن اسمها هو اسم واحدة من ولايات الاتحاد.

– تكساس على ما أعتقد، لكني عرفت أنها سفينة أمريكية الأصل.

– وماذا بعد؟

– لقد بحثت في سجلات دندي، وعندما وجدت أن سفينة (**النجمة الوحيدة**) كانت هناك في يناير 1885، تحوّل شكّي يقينًا، وعندها استعلمت عن السفن التي رست في لندن مؤخرًا.

– ثم؟

– لقد وصلت سفينة (**النجمة الوحيدة**) إلى هنا في الأسبوع الماضي. ذهبت بعد ذلك إلى ميناء ألبرت، فوجدت أنها قد أبحرت باتجاه النهر مع المدّ صباح باكر في طريقها للعودة إلى سافانا. أرسلت برقية إلى جرافسند، وعلمت أنها قد مرّت من هناك منذ فترة. ولأن الرياح شرقية، فليس لديّ شك بأنها الآن قد عبرت جونوينز، وليست بعيدة عن جزيرة وايت.

– وماذا ستفعل إذن؟

– أوه، إنه في يدي، هو واثنان من أصدقائه كما عرفت، وهم الوحيدون من أصل أمريكي على متن السفينة. البقية فنلنديون، وألمان. وكذلك عرفت أن الثلاثة قد تغيبوا عن السفينة ليلة أمس. لقد عرفت ذلك من عامل الشحن الذي كان يحمّل بضاعتهم. بحلول الوقت الذي تصل فيه السفينة الشراعية إلى سافان، سيكون مركب البريد قد أوصل خطابي هذا، وستكون البرقية قد أخبرت شرطة سافانا بأن هؤلاء الرجال الثلاثة مطلوبون هنا بشدة في جريمة قتل.

هناك خطأ دائمًا حتى في أفضل خطط الإنسان، حيث لم يستلم قتلة جون أوبنشو بذور البرتقال التي تُظهر لهم أن هناك رجلًا في مثل مكرهم وتصميمهم يتتبع أثرهم. لقد دامت العاصفة طويلًا، وكانت عنيفة جدًّا ذلك العام. ولقد انتظرنا طويلًا لسماع أي أخبار عن سفينة (**النجمة الوحيدة**) من سافانا، لكن لم يصلنا شيء. ولكن سمعنا في النهاية أن سارية سفينة قد شوهدت في مكان بعيد في المحيط الأطلسي مُحطمة تؤرجحها الأمواج، وقد نُقِشَ عليها الحرفان: **ن. و.** وهذا كل ما سنعرفه عن مصير (**النجمة الوحيدة**).

قضية هوية

أثناء جلوسنا بجوار المدفأة في غرفته بشارع بيكر، قال شيرلوك هولمز: إن الحياة أغرب كثيرًا من أي شيء يمكن للعقل البشري أن يصل إليه. لا نجرؤ حتى على تخيل الأشياء الموجودة في الواقع. إذا استطعنا الطيران من تلك النافذة مُمسكين بيد بعضنا بعضًا، وحوّمنا فوق هذه المدينة العظيمة، وبلطفٍ أزلنا أسقف المنازل، واختلسنا النظر إلى الأمور الغريبة التي تحدث، والمصادفات المثيرة، والخطط والأهداف المتعارضة، وسلاسل الأحداث الرائعة التي تمتد لأجيال لتصل لأكثر النتائج غرابة، لجعل ذلك كل الروايات الخيالية ونهايتها مبتذلة وساذجة.

فأجبته: لكنني غير مُقتنع بذلك، فالقضايا التي يُسلَّط عليها الضوء في الصحف دائمًا ما تكون واضحة وبسيطة بما يكفي، ونرى الواقعية في تقارير الشرطة وقد وصلت لأقصى حدودها، ومع ذلك فإن النتيجة التي يجب الاعتراف بها أنها غير جذّابة ولا فنية.

علّق هولمز: يجب استخدام قدر مُعين من الاختيار كي يحدث تأثير الواقعية. وهذا مفقود في تقارير الشرطة، حيث يتم التركيز على ملاحظات القاضي البدَهية، بدلًا من التفاصيل التي تحتوي جوهر الأمر كله. صدقني، لن تجد مكانًا أغرب من الأماكن العادية.

ابتسمت وهززت رأسي قائلًا: يمكنني أن أفهم جيدًا سبب تفكيرك بهذا الشكل، فموقعك كمستشار غير رسمي ومساعد لكل شخص محتار في كل مكان من القارات الثلاث؛ جعلكَ تحتكّ بكل أمرٍ غريب وشاذ، لكن هنا -التقطت صحيفة الصباح من على الأرض- فلنُجر تجربة علمية. ها هو أول عنوان وقعت عيناي عليه: **قسوة زوج تجاه زوجته**، ومكتوب تحته نصف عمود، لكني أعرف دون قراءة أن الأمر مألوف بالنسبة لي بشكل كامل. بالطبع هناك امرأة أخرى، وشرب الخمر، والدفع والضرب والكدمات، والأخت أو صاحبة المنزل المتعاطفة. حتى أقل الكتّاب خيالًا لم يكن ليكتب شيئًا أكثر مللًا من هذا.

- في الحقيقة، إن المثال الذي استعنت به ضد ما تحاول إثباته.

هكذا رد هولمز، ثم أخذ الجريدة وتصفح بعينه المكتوب بسرعة قائلًا: هذا انفصال الزوجين دنداس، وقد انخرطت أنت في توضيح بعض النقاط البسيطة المُتعلقة بهما. لم يشرب الزوج الخمر قط، ولم تكن هناك امرأة أخرى، وكان سبب الصدام هو اعتياد الزوج بأن ينهي كل وجبة بخلع طقم أسنانه، وإلقائه على زوجته. هذا الفعل لم يكن ليأتي في مخيلة القاص المتوسط. تنفّس يا دكتور، واعترف أنني تغلبت عليك في مثالك.

ثم مدّ يده بصندوق نشوق مصنوع من ذهب قديم، وعليه حجر جشمت كبير في مركز الغطاء، ظهر جماله أكثر بسبب تناقضه مع أسلوبه المنزلي وحياته البسيطة. لم أستطع أن أمنع نفسي من التعليق عليه. فقال:

- أوه، لقد نسيت أنني لم أقابلك منذ أسابيع. إنه هدية صغيرة من ملك بوهيميا كمقابل لمساعدتي في قضية أوراق آيرين آدلر.

سألته مُشيرًا بعيني إلى جوهرة مميزة وبرّاقة في إصبعه: وماذا عن الخاتم؟

– إنه هدية من العائلة الحاكمة في هولندا. لقد ساعدتهم في أمر سري وحسّاس لن يمكنني أن أبوح به لك، رغم أنك الشخص الذي كان جيدًا بما يكفي ليسجل واحدة أو اثنتين من قضاياي الصغيرة.

فسألته باهتمام: وهل تعمل على أي شيء الآن؟

– عشر أو اثنتا عشرة قضية، لكن لا توجد واحدة فيها تثير الاهتمام. قضايا مهمة كما تعرف، ولكنها ليست مثيرة. وفي الحقيقية اكتشفت أنه عادةً ما تحتوي القضايا غير المهمّة على مجال للملاحظة والتحليل السريع للسبب والنتيجة ما يضيف للتحقيق جاذبية. أمّا الجرائم الكبرى فإنها تميل للبساطة، وكلما كَبُرَت القضية، ازدادت وضوحًا. هذا ينطبق على التخطيط كما ينطبق على الدافع. ومن بين هذه القضايا، قم باستثناء وحيد لقضية تميزت ببعض التعقيد، وصلتي من مرسيليا، ولم يثر اهتمامي سواها. ومن الممكن، بالرغم من ذلك، أن أحصل على شيء أفضل قبل أن تمضي الدقائق التالية، فها قد جاء أحد عملائي إذا لم أكن مُخطئًا.

نهض من مقعده ووقف بين الستائر المفتوحة ناظرًا إلى شوارع لندن الكئيبة. نظرت من فوق كتفه، فرأيت امرأة تقف على الرصيف المقابل، واضعةً شالًا من الفراء حول رقبتها، وريشة حمراء كبيرة ومُجعدة في قبعتها التي مالت على أذنها بطريقة جعلتها تبدو كدوقة من ديفونشير. ومن تحت القبعة اختلست النظر إلى نافذتنا بتوتر وتردد، حائرة بين التقدم والتراجع، تلعبت أصابعها بأزرار قفازها بتوتّر. وفجأة، كسبّاح يقفز في الماء مرة واحدة، اقتحمت الطريق لتعبره بسرعة لنسمع بعد ذلك الرنين الحاد للجرس.

قال هولمز وهو يُشعل سيجارته: لقد رأيت هذه الأعراض من قبل. فالتردد على الرصيف يعني دائمًا أن الأمر يتعلق بالقلب؛ فهي تريد النصيحة، لكنها ليست متأكدة إذا ما كانت قضيتها تقبل الطرح نظرًا لحساسيتها. ومع ذلك يمكننا التمييز. عندما يؤذي رجل امرأة بشدة، فإنها لا تتردد، بل العرض المُعتاد هو قطع في حبل الجرس. يمكننا هنا أن نفهم أنها مشكلة حب، وأن الآنسة ليست غاضبة بقدر ما هي حائرة أو حزينة، وها قد وصلت بنفسها لتحل شكوكنا.

ما إن أنهى كلامه، حتى دخل الخادم ليعلن وصول الآنسة ماري سذرلاند. وقفت السيدة خلف جسده الأسمر الصغير كمركب تجاري بشراعٍ منشور خلف قارب صغير. رحّب بها شيرلوك هولمز بمجاملاته البسيطة المعروف بها، وبعد أن أغلقَ الباب ودعاها إلى مقعد بمسندي ذراع، تفحّصها دون أن يبدي اهتمامًا.

سألها: ألا تجدين صعوبة في الكتابة على الآلة الكاتبة نظرًا لِقصر نظرك؟ فأجابت: كنت أجدها في البداية، أما الآن فإني أحفظ أماكن الحروف دون النظر. ثم استوعبت فجأة ما قاله، فأجفلت وارتسمت نظرة مذهولة على وجهها العريض الودود. ثم قالت باكية: لقد سمعت عني يا سيد هولمز، وإلا كيف عرفت عني كل هذا؟

رد هولمز ضاحكًا: لا عليكِ! إن عملي هو معرفة الأشياء. ربما قد دربت نفسي كي أرى ما يغفل عنه الآخرون. وإن لم أكن كذلك، لماذا قد تأتين لاستشارتي؟

قالت: لقد جئت إليك يا سيدي لأنني سمعت عنك من السيدة إثيريج التي وجدت زوجها بسهولة جدًّا بعد أن تخلت عنه الشرطة والجميع ظانين أنه قد مات. آه يا سيد هولمز أرجو أن تفعل نفس الشيء معي. أنا لست غنية، لكني أجني مئة جنيه في السنة، بالإضافة إلى دخل قليل من الآلة الكاتبة، وأنا مستعدة لأن أتنازل عن كل هذا مقابل أن أعرف ماذا حدث للسيد هوسمر أنجيل.

فسألها شيرلوك هولمز وقد ضم رؤوس أصابعه مُثبتًا نظره على السقف: لماذا أتيتِ لاستشارتي بهذه السرعة؟

ظهرت نظرة وجِلة على وجه السيدة ماري سذرلاند الفارغ من التعبير مُجيبة: نعم لقد خرجت مسرعة من المنزل، وذلك لأن السهولة التي نظر بها السيد ويندبيانك للأمر -وهو أبي- أغضبتني بشكل كبير. لقد رفض الذهاب إلى الشرطة، ورفض المجيء إليك، ولم يقم بأي شيء قائلًا بأنه لم يقع أي أذى. لقد أثار الأمر جنوني، فأخذت أشيائي وجئت إليك فورًا.

رد هولمز: تقصدين بوالدك زوج والدتك بالتأكيد لأن الاسم مختلف.

- نعم، زوج والدتي، وأناديه «أبي» رغم أن الأمر يبدو سخيفًا لأنه يكبرني بخمسة أعوام وشهرين فقط.

- وأمك على قيد الحياة؟

- أوه، نعم، أمي على قيد الحياة وفي صحة جيدة. لم أكن سعيدة عندما تزوجَت مُجددًا بعد وفاة أبي بوقت قصير برجل يصغرها بخمسة عشر عامًا. لقد كان والدي سباكًا وتاجر مواسير في شارع توتنهام كورت، وترك خلفه تجارة جيدة قامت والدتي بإدارتها مع السيد هاردي مشرف العمال، لكن عندما أتى السيد ويندبيانك، جعلها تتخلص من تجارتها التي كانت في نظره أقل من مستواه؛ لأنه يعمل في تسويق النبيذ. ولقد حصلا على 4700 جنيه مقابل بيع الاسم والتجارة، والتي لم تكن لتقترب من السعر الذي قد يحصل عليه أبي إن كان حيًّا.

توقعت أن أرى نفاد صبر شيرلوك هولمز بسبب تلك القصة الطويلة والمُملة التي لا تمت للموضوع بصلة، لكن على العكس وجدته يستمع بتركيز شديد.

سألها: هل يأتي دخلك الخاص القليل من هذه التجارة؟

- أوه، لا يا سيدي. إنه منفصل تمامًا، بل من عمل تركه لي عمي نيد في أوكلاند. إنه استثمار في بورصة نيوزيلاندا، حيث يقدم فائدة بنسبة 4.5 في المئة من أصل المبلغ الذي يبلغ ألفين وخمسمئة جنيه، لكن يمكنني التصرف بالفائدة فقط.

فقال هولمز: إنك تثيرين اهتمامي بشدة. وبما أنكِ تحصلين على مثل هذا المبلغ الكبير، وهو مئة جنيه في العام بالإضافة إلى ما تجنيه من الصفقة، فلا يوجد شك أنكِ تسافرين قليلًا وتدللين نفسك بكل الطرق. فأنا أعتقد أنه يمكن لسيدة بمفردها أن تعيش بشكل جيد جدًّا بدخل يبلغ 60 جنيهًا تقريبًا.

- بل يمكنني أن أعيش بأقل من هذا المبلغ يا سيد هولمز، ولكن كما تعرف ما دمت أعيش معهما في المنزل، لا أحب أن أكون عبئًا عليهما، لذا فقد أعطيتهما حق التصرف في أموالي في الفترة التي أعيش معهما فيها فقط. بالطبع هذا لفترة محدودة. يسحب السيد ويندبيانك الفائدة كل ربع سنة ويعطيها

لأمي، ويمكنني أن أتدبر أموري بشكل جيد جدًّا بما أجنيه من عملي على الآلة الكاتبة، فهو يدرّ عليّ بنسين لكل صفحة، ويمكنني في العادة كتابة من خمس عشرة إلى عشرين صفحة في اليوم.

رد هولمز: لقد أوضحتِ موقفك تمامًا. هذا زميلي د. واتسون، والذي يمكنك التحدث أمامه بنفس الحرية التي تتحدثين بها أمامي. أرجو أن تخبرينا الآن بكل شيء يتعلق بعلاقتك بالسيد هوسمر أنجيل.

تسللت حمرة الخجل إلى وجه الآنسة سذرلاند، وأمسكت بطرفِ سترتها بتوتّر قائلة: لقد قابلته لأول مرة في حفلة عمال الغاز. فقد اعتادوا أن يرسلوا إلى أبي التذاكر عندما كان حيًّا، وبعد وفاته تذكّرونا وأرسلوا التذاكر إلى والدتي. أراد السيد وينديبانك ألّا نذهب، إنه لا يريد ذهابنا إلى أي مكان. ويغضب بجنون إذا أردت حضور حفلة مدرسة الأحد حتى، لكن هذه المرة كنت مُصرّة على الذهاب، فبأي حق يمنعني؟ وقد قال إن هؤلاء الناس لا يليقون بنا على الرغم من وجود كل أصدقاء أبي هناك. وقال إني لا أملك ثوبًا لائقًا لأرتديه في الحفل على الرغم من امتلاكي ثوبًا مخمليًّا بنفسجيًّا لم أخرجه من الدولاب قبل ذلك تقريبًا. وفي النهاية، عندما لم يجد شيئًا آخر ليفعله، سافر إلى فرنسا في عمل يتعلق بالشركة، لكننا ذهبنا أنا وأمي مع السيد هاردي والذي عمل كمشرف عمال سابقًا، وهناك قابلت السيد هوسمر أنجيل.

فرد هولمز: أتوقع أن السيد ويندیبانك انزعج جدًّا عندما عاد من فرنسا وعلم بذهابك إلى الحفل.

– أوه، حسنًا، لقد تعامل مع الأمر بشكل جيد للغاية. لقد ضحك –على ما أذكر– وهزّ كتفيه قائلًا: لا يوجد فائدة من منع امرأة من أي شيء، لأنها ستجد طريقة لتنفيذه على كل حال.

– حسنًا! وهكذا تعرفتِ على رجل محترم اسمه السيد هوسمر أنجيل كما فهمت.

– نعم يا سيدي، قابلته في تلك الليلة، ولقد اتصل في الليلة التالية ليطمئن أننا وصلنا إلى المنزل بسلام، وبعدها قابلناه، أو يمكنك القول «قابلته» وتنزهت معه مرتين، لكن أبي عاد بعدها مرة أخرى، فلم يتمكن السيد هوسمر أنجيل من الحضور إلى المنزل بعد ذلك.

– لماذا؟ سأل هولمز لترد: حسنًا، كما تعلم لم يحب أبي أي شيء من هذا القبيل. ولو كان الأمر بيده، لما سمح لأحد بأن يزورنا على الإطلاق، دومًا يقول إنه على المرأة أن تكون سعيدة في دائرة عائلتها. لكن بعدها –كما اعتدت أن أقول لأمي– تريد المرأة دائرة خاصة بها في البداية، وأنا لم أحظَ بذلك.

– ولكن ماذا عن السيد هوسمر أنجيل؟ هل حاول أن يراكِ؟

– حسنًا، نوى أبي السفر إلى فرنسا مرة أخرى بعد أسبوع، وكتب هوسمر قائلًا إنه سيكون من الأسلم والأفضل ألّا نرى بعضنا بعضًا حتى يسافر. وإنه بإمكاننا التراسل في الوقت الحالي، واعتاد أن يكتب لي رسالة كل يوم، وكنت آخذ الرسائل في الصباح كي لا يعلم أبي.

– هل كنتِ مرتبطة بالسيد في هذا الوقت؟

– أوه، نعم يا سيد هولمز. لقد ارتبطنا بعد أول نزهة قضيناها معًا. فهوسمر، أقصد السيد أينجل، كان صرافًا في مكتب في شارع ليدنهول، و..

– أي مكتب؟

– هذا أسوأ ما في الموضوع يا سيدي، فأنا لا أعرف.

– أين يقيم إذن؟

– لقد نام في سكن مُلحق بمكتبه.

– ولا تعرفين عنوانه؟

– لا أعرف شيئًا سوى أنه في شارع ليدنهول.

– أين كنتِ ترسلين رسائلك إذن؟

– كنت أرسلها إلى مكتب بريد شارع ليدنهول، كي تُترك حتى يتم طلبها. لقد قال إن زملاءه في المكتب كانوا ليسخروا منه إذا وصلته رسائل من سيدة، لذا عرضت أن أكتب رسائلي على الآلة الكاتبة كما يفعل في رسائله، لكنه لم يوافق على ذلك قائلًا إنه عندما كتبت له الرسائل، بدت مني، لكن عند كتابتها على الآلة الكاتبة، أحسَّ بأن الآلة الكاتبة تقف بيننا. يُظهر ذلك مدى غرامه وحبه لي يا سيد هولمز، وكذلك الأشياء البسيطة التي كان يفكر فيها.

فقال هولمز: إن لذلك دلالة كبيرة. فلقد آمنت منذ وقتٍ طويل بأن الأشياء الصغيرة هي الأكثر أهمية. فهل يمكنك تذكّر أي أشياء صغيرة أخرى عن السيد هوسمر أنجيل؟

– لقد كان رجلًا خجولًا للغاية يا سيد هولمز. يفضّل أن يسير معي في المساء عن ضوء النهار؛ لأنه يكره أن يكون لافتًا للانتباه كما أخبرني. كان خجولًا ورقيقًا للغاية، حتى صوته كان رقيقًا، وقد أخبرني بأنه أُصيب وهو طفل بتورم والتهاب في الغدة، ما جعل حنجرته ضعيفة وطريقة حديثه مترددة هامسة، حسن الملبس طوال الوقت، فملابسه أنيقة وبسيطة، لكن نظره كان ضعيفًا مثلي، يرتدي نظارات ملوّنة لتحميه من الإضاءة الباهرة.

– حسنًا، وماذا حدث عندما رجع زوج والدتك من فرنسا؟

– جاء السيد هوسمر أنجيل إلى المنزل مرة أخرى قبل أن يعود أبي، وعرض الزواج علي. تحدث بجدية شديدة، وجعلني أقسم ويدي على الإنجيل بأن أظل مخلصة له مهما يحدث. قالت أمي إن هذا حقٌّ له، وكان ذلك دليلًا على مشاعره. كانت أمي متحيزة له من البداية، وتحبه أكثر مني حتى. وبعدها تحدثنا عن الزواج في خلال أسبوع، وحينها بدأت السؤال عن موقف أبي، فطلب مني ألّا ألقي إليه بالًا، وأننا سنخبره بعد الزواج، وقالت أمي إنها ستقنعه بالأمر. لم يعجبني ذلك يا سيد هولمز. وعلى الرغم من أن طلب إذنه يبدو أمرًا مضحكًا، فهو لا يكبرني سوى ببضع سنوات، فإنني لم أرغب في فعل أي شيء في الخفاء، لذا كتبت رسالة إلى أبي في بوردو حيث مقر شركتنا في فرنسا، لكن الرسالة أُعيدَت إليّ في نفس يوم الزفاف.

– لم تصله إذن؟

– نعم يا سيدي، لأنه كان قد بدأ رحلته إلى إنجلترا قبل أن تصل الرسالة مباشرةً.

– ها! يا للأسف! لقد خُطِّط لأن يتم الزواج يوم الجمعة إذن. هل كان سيُقام في كنيسة؟

– نعم يا سيدي، لكن بهدوء شديد. كان سيُقام في كنيسة سانت سافيور، بالقرب من كينجز كروس، وكنّا سنتناول الإفطار بعدها في فندق بانكرس. جاء هوسمر في عربة صغيرة تتسع لفردين، ولوجود والدتي معي، فقد ترك العربة لنا وركب عربة أجرة أخرى تصادف أن تكون الوحيدة في الشارع في ذلك الوقت. وصلنا للكنيسة أولًا، وعندما وصلت عربة الأجرة، انتظرنا أن يخرج منها، لكنه لم يفعل، وعندما نزل السائق من مقعده وتفقّد العربة، لم يجد أحدًا! قال السائق إنه لا يتخيل ما قد يكون قد حدث؛ لأنه رآه يركب العربة بعينيه. كان ذلك يوم الجمعة الماضية يا سيد هولمز، ولم أرَ أو أسمع عنه أي شيء منذ ذلك اليوم قد يوضّح ماذا حدث له.

فقال هولمز: يبدو لي أنكِ خُدعتِ بطريقة شائنة.

– أوه، لا يا سيدي! إنه أفضل وأطيب من أن يتركني بتلك الطريقة. لقد ظل طوال النهار يطلب مني أن أكون مخلصة له مهما حدث، وإنه يجب عليّ تذكر أننا متعاهدان حتى إن وقع أمر غير مُتوقَّع وفرّق بيننا، وأنه سيعود ويطالبني بالإيفاء بالعهد عاجلًا أو آجلًا. بدا الكلام غريبًا بالنسبة لي صباح يوم الزفاف، لكن ما حدث بعدها فسّر هذا الحديث.

– بالتأكيد فسّره. إذن اعتقادك الشخصي أن كارثة غير متوقعة حدثت له؟

– نعم يا سيدي. أعتقد أنه تنبأ بخطرٍ ما، وإلا لما تحدث بهذه الطريقة. وأعتقد أن ذلك الخطر قد حدث له.

– لكن ليس لديك أي فكرة عمّا قد يكون هذا الخطر؟

– لا فكرة على الإطلاق.

– سؤال آخر. كيف تعاملت أمك مع الأمر؟

– كانت غاضبة، وقالت إنني يجب ألّا أتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى.

– ماذا عن أبيك؟ هل قلتِ له؟

– نعم، ولقد بدا أنه يشاركني الاعتقاد أن شيئًا ما قد حدث، وأن السيد هوسمر سيتواصل معي ثانية. فكما قال: ما الذي يمكن أن يستفيده أي شخص من إحضاري حتى باب الكنيسة، ثم يهجرني؟ فلو اقترض مني مالًا، أو تزوجنا وجعلني أكتب له المال، فمن الممكن وقتها أن يكون هذا سببًا، لكن هوسمر كان مستقلًّا ماديًّا ولم ينظر إلى قرش من مالي مطلقًا. ومع ذلك، ما الذي حدث؟ ولماذا لم يستطع إرسال رسالة؟ أوه، يكاد التفكير بهذه الطريقة يصيبني بالجنون، ولا يغمض لي جفن في الليل.

ثم أخرجت منديلًا من حقيبتها وبدأت في البكاء والنشيج.

قال هولمز وهو ينهض عن كرسيه: سألقي نظرة على هذه القضية من أجلك. وليس لدي أي شك في أننا سنصل إلى نتيجة قريبًا. دعي الأمر كله لي الآن، ولا ترهقي عقلك بالتفكير فيه أكثر من ذلك. والأهم من ذلك، أن تحاولي أن تدَعي السيد هوسمر أنجيل يختفي من ذاكرتك كما اختفى من حياتك.

– إذن فأنت تعتقد أنني لن أراه ثانية؟

– أخشى ذلك.

– ماذا حدث له إذن؟

– ستتركين لي العثور على إجابة هذا السؤال. أريد وصفًا دقيقًا له، وأي رسائل تستطيعين التخلي عنها.

– لقد أعلنت عن فقدانه في صحيفة يوم السبت الماضي. ها هو نص الإعلان، بالإضافة إلى أربع رسائل منه.

– شكرًا لكِ. وما هو عنوانك؟

– رقم 31 شارع ليون بلايس، كامبرويل.

– كما فهمت، فإنك لا تعرفين عنوان السيد أنجيل، فما عنوان شركة أبيكِ؟

– إنه يعمل مندوب مبيعات لشركة استيراد نبيذ كلاريت كبيرة اسمها ويست هاوس وماربانك في شارع فِنتشيرش.

– شكرًا لكِ. لقد عرضتِ قضيتك بوضوح. ستتركين الأوراق هنا، وتذكري النصيحة التي قدمتها لكِ. دعي الحادثة كلها تتحول إلى كتابٍ مُغلق، ولا تدعيها تؤثر على حياتك.

– أنت لطيف جدًّا يا سيد هولمز، لكن لا يمكنني أن أفعل ذلك. يجب أن أبقى مخلصة لهوسمر. يجب أن يجدني في انتظاره عند عودته.

رغم قبعتها الخرقاء، ووجهها الأبله، كان هناك شيء نبيل في إيمان زائرتنا الساذج، والذي أجبرنا على احترامها. وضعت الآنسة حزمة الأوراق الصغيرة على الطاولة، وذهبت في طريقها مع وعد بأن تعود في أي وقت قد نستدعيها فيه.

جلس شيرلوك صامتًا لبضع دقائق، وما زالت رؤوس أصابعه مضمومة، وقد مدّ ساقيه أمامه وهو يحملق في السقف. ثم أخرج من الخزانة غليونه المصنوع من الفخار الزيتي القديم، والذي كان بمنزلة المستشار بالنسبة له، وعندما أشعله مال إلى الخلف في كرسيه، لتخرج منه سحابات دخان أزرق ثقيل وتدور حوله، وارتسمت على وجهه أقصى نظرات التراخي.

ثم قال: إن تلك الآنسة مثيرة للاهتمام. أجدها مثيرة للاهتمام أكثر من قضيتها، والتي تُعد بالمناسبة قضية بسيطة. وإذا راجعت الدليل الخاص بقضاياي لوجدت قضية مشابهة في أدنوفر عام 77، وستجد شيئًا من نفس النوع في لاهاي العام الماضي. وبالرغم من أن الفكرة قديمة، هناك تفصيلة أو تفصيلتان جديدتان بالنسبة لي، لكن الآنسة نفسها هي أكثر ما سأتعلم منه.

فعلقت: يبدو أنك قرأتها بشكل جيد ورأيت أشياء لم أرها.

– ليست أشياء لم ترها، بل لم تلاحظها يا واتسون. لم تعرف أين تنظر، لذا فقد فاتك كل ما هو مهم. ليس بإمكاني أن أجعلك تدرك أهمية الأكمام، أو دلالة ظفر الإبهام، أو الأشياء العظيمة التي تتعلق برباط الحذاء. الآن، ما الذي استنتجته من مظهر السيدة؟ صِفه لي.

– حسنًا، إنها ترتدي قبعة كبيرة مُلونة من القش بحافات عريضة وريشة من اللون الأحمر الطوبي. كانت سترتها سوداء، مرصعة بخرز أسود، وحلية صغيرة من الكهرمان الأسود. ثوبها كان بنيًّا أغمق

من لون القهوة بنسيج مخملي بنفسجي عند الرقبة والأكمام. كان قفازها رماديًّا، باليًا عند نهاية إصبع السبابة. وأمّا عن حذائها، فإنني لم ألحظه، وقد تدلى قرطان ذهبيان صغيران من أذنيها، وأعطت انطباعًا عامًّا بأنها ميسورة الحال، ولكن بطريقة مبتذلة.

صفّق شيرلوك هولمز بيديه تصفيقًا رقيقًا وقال ضاحكًا: أقسم لك يا واتسون بأنك تقدمت بشكل رائع. لقد كنت رائعًا فعلًا. وبالرغم من حقيقة أنه قد فاتك كل ما هو مهم، فإنك وُفِّقت في الأسلوب المُتّبَع، وتلتقط الألوان بسرعة. لا تثق في الانطباعات العامة أبدًا يا صديقي، بل صبّ تركيزك على التفاصيل. أول ما أنظر إليه في المرأة هو كمّها، أما الرجل فربما يكون من الأفضل أن أبدأ بركبة سرواله. وكما لاحظت، فإن كمّي هذه السيدة من المخمل، والذي يُعتبر من أفضل المواد في إظهار الآثار. شرح الخط المزدوج الموجود أعلى من معصمها بقليل، وهو المكان الذي يستند به كاتب الآلة الكاتبة على الطاولة، وظيفتها بشكل رائع. تترك آلات الخياطة اليدوية أثرًا متشابهًا لكنه يكون في الذراع اليسرى، وعلى الجانب الأبعد من الإبهام بدلًا من أن يمتد بطول الجزء الأعرض من الكم كما في حالتنا هذه. ألقيت بعد ذلك نظرة على وجهها، فلاحظت تجعيدتين على جانبي أنفها من النظارة، فغامرت بإلقاء ملاحظتي عن قِصر نظرها والكتابة على الآلة الكاتبة، ما أصابها بالدهشة.

– لقد أدهشني أنا أيضًا.

– لكن الأمر كان واضحًا بكل تأكيد. ثم تفاجأت وزاد اهتمامي عندما نظرت إلى الأسفل ولاحظت أن فردتي الحذاء غير متطابقتين، حيث احتوت واحدة منهما على غطاء مُزخرف للإصبع الأكبر، بينما كان الغطاء في الأخرى غير مُزخرف. وأحكمت زرّين من الأزرار الخمسة في واحدة، بينما أحكمت الأول والثالث والخامس في الأخرى. وهكذا عندما ترى أن سيدة شابة ترتدي ملابس أنيقة بوجه عام قد خرجت من المنزل بحذاء غير متطابق وغير مُحكم، فمن البدَهي أن تستنتج أنها خرجت مُسرعة.

أثار تحليل صديقي الثاقب اهتمامي كالمعتاد، فسألته: وماذا أيضًا؟

– لاحظت بنظرة عابرة أنها قد كتبت رسالة قبل ارتدائها الملابس بشكل كامل. لقد لاحظت أن قفازها الأيمن مقطوع عند السبابة، لكن من الواضح أنك لم ترَ أن طرف القفاز والإصبع كانا مُلطخين بالحبر البنفسجي. لقد كانت تكتب على عَجل، وغمست القلم في الحبر أعمق مما يجب. لا بد أن ذلك حدث هذا الصباح، وإلا لبهتت البقعة الموجودة على إصبعها. كل ذلك مُسلٍّ رغم كونه بدهيًّا، لكن يجب أن أعود إلى العمل يا واتسون. هل يمكنك قراءة وصف السيد هوسمر أنجيل من الإعلان بعد إذنك؟

قرّبتُ الورقة الصغيرة المطبوعة من الضوء، وقد كُتِبَ فيها:

«فُقِدَ في صباح الرابع عشر السيد المحترم هوسمر أنجيل. طوله خمس أقدام وسبع بوصات، قوي البنية، شاحب البشرة، بشعرٍ أسود مائل للصلع من الوسط، شارب كثيف أسود يمتد إلى جانبي فمه، يرتدي نظارات مُلونة، يتحدث بطريقة ضعيفة بعض الشيء. ارتدى في آخر مرة شوهد فيها معطفًا أسود بطبقة من الحرير في المقدمة، ومعطفًا أسود للخصر، وسلسلة ذهبية للساعة،

وسروالًا رماديًّا بأقدام بنية على حذاء مطاطي. يُعرف أنه يعمل في مكتب في شارع ليدنهول. أي شخص يحضر....»

قال هولمز: هذا يكفي. ثم تناول الخطابات وقال وهو ينظر إليها بسرعة: أما عن الخطابات، فإنها عادية جدًّا، ولا تحتوي على أي دليل يشير إلى السيد أنجيل، لكن هناك نقطة مُميزة، والتي ستذهلك بلا شك.

قلت: إنها مكتوبة على الآلة الكاتبة.

– ليس هذا فقط، بل التوقيع مكتوب على الآلة الكاتبة كذلك. انظر إلى «هوسمر أنجيل» المكتوب بخط صغير ودقيق بالأسفل. وكما ترى هناك تاريخ، لكن لا يوجد عنوان سوى شارع ليدنهول، والذي يُعد غامضًا إلى حدٍّ كبير. إن نقطة التوقيع لها دلالة كبيرة، في الحقيقة يمكننا القول بأنها حاسمة.

– على ماذا؟

– هل يُعقل أنك لا ترى علاقة التوقيع القوية بالقضية يا رفيقي العزيز؟

– لا يمكنني القول بأنني أراها إلا إذا كان ينوي إنكار توقيعه لو أقيمت دعوى خرق للعهد.

– لا، هذه ليست النقطة، ومع ذلك سأكتب خطابين سيتكفلان بتسوية الموضوع. واحد إلى الشركة في المدينة، والآخر للسيد وينديبانك، زوج والدة السيدة الشابة، لأسأله إذا كان بإمكانه أن يقابلنا هنا الساعة السادسة مساء الغد. فمن الجيد كذلك أن نعمل مع الأقرباء الذكور. والآن يا دكتور، لا يوجد ما نفعله حتى يصلنا الرد على الخطابين، لذا يمكننا أن نضع قضيتنا الصغيرة على الرف في الوقت الحالي.

لأسباب كثيرة جدًّا كنت أثق في قدرات صديقي في التحليل المنطقي ونشاطه غير العادي، والتي جعلتني أشعر بأن لا بد له من أساس قوي جعله يتعامل بذلك التأكيد والتساهل مع اللغز الكبير الذي طُلب منه حله. رأيته يفشل مرة واحدة في قضية (ملك بوهيميا) وصور آيرين آدلر، لكن عندما تذكرت قضية (توقيع الأربعة) الغريبة، والظروف غير العادية التي ارتبطت بقضية (دراسة في القرمزي)، شعرت بأنه من الغريب أنه لم يتمكن من كشف ذلك اللغز.

تركته بعدها وهو لا يزال ينفخ غليونه الفخاري الأسود وأنا على يقين تام أنني عند عودتي في النهار التالي، سأجده مُمسكًا بكل الأدلة التي ستقود إلى هوية عريس الآنسة ماري سذرلاند المختفي.

في ذلك الوقت شغلتني حالة طبية شديدة الخطورة، وقضيت نهار اليوم التالي كله بجوار المريض. لم تكد تقترب الساعة من السادسة حتى وجدت نفسي حرًّا ويمكنني الإسراع في عربة صغيرة إلى شارع بيكر متخوفًا من أن أكون قد تأخرت عن المساعدة في خاتمة هذا اللغز الصغير. وصلت لأجد شيرلوك هولمز وحيدًا يغالب النوم، ويتكوم جسده النحيل الطويل في كرسيه ذي المسندين. ومن الزجاجات وأنابيب الاختبار الكثيرة، ومن رائحة حمض الهيدروكلوريك اللاذعة، استنتجت أنه قد قضى يومه في العمل الكيميائي الذي يحبه.

سألته عندما دخلت: حسنًا، هل قمت بحله؟

– نعم، لقد كان ثاني كبريتات أوكسيد الباريوم.

فصرخت: لا، لا، أقصد اللغز!

– أوه، تقصد هذا! لقد ظننتك تسأل عن الملح الذي أعمل عليه. لا يوجد أي لغز في القضية، رغم أنني قلت بالأمس إن هناك بعض التفاصيل المثيرة للاهتمام، لكن المشكلة الوحيدة التي أخشاها أنه لا يوجد قانون بإمكانه أن يمسّ هذا النذل.

– من كان إذن؟ وما غرضه من هجر الآنسة سذرلاند؟

لم يكد يخرج السؤال من فمي، وقبل حتى أن يفتح هولمز شفتيه ليجيب، حتى سمعنا صوت خطوات ثقيلة في الممر وطرقًا على الباب.

فقال هولمز: هذا زوج والدة الفتاة السيد جاميس ويندييانك. لقد أرسل لي خطابًا ليخبرني أنه سيكون هنا في السادسة. ادخل!

فدخل رجل قوي البنية، متوسط الحجم، يبلغ نحو ثلاثين عامًا، وجهه نظيف وحليق وبشرته داكنة، لبق، عيناه رمادية ثاقبة وحادة. ألقى نظرة متسائلة على كلٍّ منّا، ثم وضع قبعته اللامعة على الطاولة الجانبية، وبحركة خفيفة جلس على أقرب كرسي.

قال هولمز: مساء الخير يا سيد جايمس ويندييانك. أظن أن الخطاب المكتوب على الآلة الكاتبة والذي حددت فيه موعدًا معي في الساعة السادسة كان منك؟

– نعم يا سيدي. أخشى أنني قد تأخرت قليلًا، لكن كما تعرف وقتي ليس ملكي. أعتذر عن إزعاج الآنسة سذرلاند لك بهذه المشكلة البسيطة، فبالنسبة لي، أعتقد أنه يجب ألّا تُنشر مثل هذه الأمور الخاصة والمُحرجة على الناس. لقد عارضت مجيئها لك بشدة، لكنها فتاة انفعالية ومتهورة جدًّا كما لاحظت على الأرجح، وليس من السهل السيطرة عليها عندما تصمم على شيء ما. بالطبع لم أعارض قدومها إليك بشدة، وذلك لأنك غير متصل بالشرطة الرسمية، لكن إثارة الضجيج حول حادثة أسرية مؤسفة كهذه لهو أمرٌ غير سار. بالإضافة إلى أنها تكلفة بلا فائدة، فكيف ستتمكن من العثور على هوسمر أنجيل؟

فقال هولمز بهدوء: بالعكس، لدي أسباب قوية تدفعني إلى الاعتقاد بأنني سأنجح في اكتشاف السيد هوسمر أنجيل.

توتّر السيد ويندييانك بعنف، وأسقط قفازيه قائلًا: يسعدني سماع ذلك.

فعقّب هولمز: إنه شيء غريب أن يكون للآلة الكاتبة خصائص متفردة كالموجودة في خط كل شخص. ما لم تكن الآلتان جديدتين تمامًا، فإنه لا يمكن أن تتشابه آلتي كتابة معًا. حيث تبلى بعض الحروف أكثر من غيرها، وبعضها يبلى من جانب واحد. والآن ستلاحظ في رسالتك يا سيد ويندييانك أن هناك لطخة حبر على حرف ‘e’ في كل مرة. وكذلك هناك عيب في حرف ‘r’. هناك أربع عشرة علامة مُميزة أخرى، لكن هاتين العلامتين هما الأكثر وضوحًا.

فأجاب زائرنا وهو ينظر بحدة بعينيه الصغيرتين اللامعتين إلى هولمز: إننا نستخدم هذه الآلة في كتابة كل مراسلاتنا في المكتب، ولا بد أن تكون حروفها بالية بعض الشيء.

فاستأنف هولمز: والآن سأعرض عليك شيئًا شيقًا للغاية يا سيد وينديبانك. فأنا أفكر في كتابة بحث في يوم من الأيام عن الآلة الكاتبة، وعلاقتها بالجريمة. إنه موضوع كرّست له بعض اهتمامي. لدي هنا أربعة خطابات من المُفترض أن مصدرها هو الرجل المفقود. وقد كُتبت كلها على الآلة الكاتبة. وفي كل مرة، لن تلاحظ أن حرف 'e' مُلطخ، وحرف 'r' منقوص فقط، بل ستلاحظ -إذا استخدمت عدستي المُكبرة- أن كل الخصائص المُميزة الأربع عشرة الأخرى التي سبق أن أشرت إليها موجودة كذلك.

هبّ السيد ويندیبانك، والتقط قبعته قائلًا: لا يمكنني أن أضيع وقتي في هذا الحديث الخيالي يا سيد هولمز. إذا كان بإمكانك أن تقبض على الرجل، فلتقبض عليه، وأعلمني عندما تفعل.

قال هولمز: بالتأكيد..

ثم ذهب إلى الباب وأدار المُفتاح في الباب ليستطرد: إذن فإنني أعلمك أنني قد قبضت عليه بالفعل.

تحوّل وجه السيد ويندیبانك إلى الأبيض، وأخذ يتلفت حوله كالفأر صارخًا: ماذا؟ أين؟

فقال هولمز برقّة: أوه، لن يجدي ذلك نفعًا! لن يجدي بالتأكيد. لا توجد فرصة لتهرب من ذلك يا سيد ويندیبانك. إن الأمر بسيط للغاية، ولم يكن من اللطيف أبدًا أن تقول إن من المستحيل عليّ أن أحل قضية بهذه البساطة. هذا صحيح، فلتجلس ولنناقش هذا الأمر.

انهار زائرنا على الكرسي وقد شحب وجهه، ولمعت قطرات العرق على حاجبيه مُغمغمًا: لا يمك.. لا يمكن إقامة دعوى قضائية.

- أخشى أن ذلك صحيح، لكن بيني وبينك يا ويندیبانك، إنها خدعة دنيئة من أقسى الخدع التي مرت عليّ وأكثرها أنانية. الآن، دعني أتتبع مسار الأحداث، وستعارضني إذا كنت مخطئًا.

تكوّر الرجل في مقعده وقد سقطت رأسه على صدره وبدا كشخص مُحطَّم. مدّ هولمز قدميه على زاوية المدفأة، ومال إلى الخلف واضعًا يديه في جيبه، وبدأ في التحدث. وقد بدا أنه يُحدّث نفسه أكثر مما يُحدّثنا.

- تزوج رجل من امرأة تكبره كثيرًا لأجل مالها، واستمتع بصرف أموال ابنتها كذلك ما دام عاشت معهما. المبلغ كان كبيرًا بالنسبة لمن في وضعهما، وخسارته كانت ستحدث تغييرًا خطيرًا. لقد استحق الأمر بذل جهد للحفاظ عليه. ولم تكن الفتاة ذات ملامح جميلة فقط، وإنما كانت رقيقة القلب كذلك، لذا كان من الحتمي وبمميزاتها تلك ودخلها المُناسب، كان من الحتمي ألّا تبقى عزباء لفترة طويلة. والآن سيعني زواجها بالتأكيد خسارة المئة جنيه كل عام، لذا ماذا يفعل زوج أمها كي يمنع ذلك؟ لقد اتّبع الطريقة البدَهية بأن يبقيها في المنزل ويمنعها من الذهاب إلى الشركة والاختلاط بأناسٍ في مثل سنها، ولكنه اكتشف بعدها بقليل أن هذا الأمر لن يستمر إلى الأبد. فلقد أصابها الضجر، وبدأت تصرّ على حقوقها، وفي النهاية أعلنت نيتها المؤكدة عن الذهاب إلى حفلة بعينها. فماذا يفعل زوج أمها الماكر إذن؟ لقد تبنى فكرة اتّبع فيها عقله دون قلبه. وبموافقة ومساعدة زوجته قام بالتنكر حيث أخفى هاتين العينين الثاقبتين تحت نظارة ملوّنة، وأخفى وجهه بشارب كثيف يمتد إلى جانبي فمه، وخفض صوته ليصبح همسًا غير مُميز، مُعتمدًا في ذلك على قِصر نظر الفتاة، ليظهر بشخصية السيد هوسمر أنجيل، وأبعد باقي المُحبين بجعلها تحبه.

تأوه زائرنا قائلًا: لقد كانت مزحة في البداية، ولم نعتقد أنها ستتعلق بهذا الشكل.

– هذا صحيح على الأرجح، ولكن بالرغم من ذلك فقد تعلقت السيدة الصغيرة بهذا الأمر للغاية، ولأنها تعتقد بأن زوج أمها كان في فرنسا، فلم تمر فكرة الخيانة ببالها ولو للحظة. لقد شعرت بالإطراء لأنها جذبت انتباه السيد المُحترم، زاد هذا التأثير عندما عبّرت أمها عن إعجابها به. بعدها بدأ السيد أنجيل بزيارتها، لأن من البدَهي أنه يجب المضيّ بهذا الأمر إلى أقصى مدى إذا أراد الوصول لتأثير حقيقي. وجرت مقابلات، وتمت الخِطبة التي كانت ستضمن عدم تحول مشاعر الفتاة ناحية أي شخص آخر، لكن لا يمكن أن تستمر تلك الخدعة إلى الأبد. فلقد بات ادعاء السفر إلى فرنسا مُرهقًا. وأصبح من الواضح أنه يجب إنهاء هذا الأمر بشكل درامي، والذي سيترك أثرًا دائمًا على عقل السيدة الصغيرة، ويمنعها من التطلع لأي شخص مناسب آخر لبعض الوقت. لذا فرض عليها عهود الإخلاص، وكذلك تلميحات احتمال حدوث شيء في صباح يوم الزفاف بالذات. فلقد أراد جاميس ويندييانك أن تتعلق الآنسة سذرلاند بهوسمر أنجيل، وتبقى جاهلة بمصيره حتى لا تفكر في رجل آخر مهما كانت الظروف، ربما لعشر سنوات. فلقد أحضرها حتى باب الكنيسة، ولأنه لا يمكنه المضي أكثر من ذلك، اختفى مُستخدمًا الخدعة القديمة حيث دخل العربة ذات العجلات الأربع من باب، وخرج من الباب الآخر. أعتقد أن هذه هي سلسلة الأحداث يا سيد ويندييانك!

استعاد زائرنا بعضًا من ثقته أثناء تحدث هولمز، ونهض من كرسيه وقد ارتسمت سخرية باردة على وجهه الشاحب ثم قال: قد يكون ذلك صحيحًا، وقد لا يكون يا سيد هولمز، لكن إذا كنت ذا عقل حاد بهذه الدرجة، فإنك بالذكاء الكافي كي تعرف أنك من يخترق القانون الآن، وليس أنا. فأنا لم أفعل أمرًا يوجب العقاب من الأساس، ولكن ما دام تبقي على هذا الباب مُغلقًا، فإنك تعرض نفسك لدعوى اعتداء وحبس غير قانوني.

ففتح هولمز الباب على مصراعيه قائلًا: لا يمكن للقانون أن يمسّك كما تقول، لكن لا يوجد شخص يستحق العقاب أكثر منك. فلو كان للسيدة الصغيرة أخ أو صديق، لوجب عليه أن يضربك بالسوط من قدميك حتى كتفيك بحق الإله!

وبدا عليه الانفعال أمام نظرة السخرية المرّة على وجه الرجل قائلًا: إنه ليس جزءًا من واجباتي تجاه عميلتي، لكن ها هو سوط الصيد في متناول يدي، وأظن أنني سأكافئ نفسي بأن..

وقطع كلامه وقد خطا خطوتين سريعتين باتجاه السوط، ولكن قبل أن يمسكه، كان هناك ضجيج خطوات على السلالم، ثم صوت إغلاق باب القاعة بعنف، ومن النافذة، استطعنا رؤية السيد ويندييانك يجري بأقصى سرعته في الشارع.

ضحك هولمز وألقى بنفسه على المقعد مرة أخرى قائلًا: يا له من نذل عديم الشفقة! سيترقى زميلنا هذا من جريمة إلى جريمة أكبر حتى يرتكب جرمًا شنيعًا، فينتهي به الأمر في السجن. ولم تخلُ القضية في بعض نقاطها من الأمور المُثيرة للاهتمام.

فعقّبت: لم أستطع حتى الآن رؤية كل خطوات تحليلك.

– حسنًا، لقد كان واضحًا جدًّا من البداية أن لا بد للسيد هوسمر أنجيل من دافع قوي يبرر تصرفه المُثير للفضول، كما كان واضحًا بنفس الدرجة أن الرجل الوحيد المُستفيد فعلًا من هذه الحادثة –على حد علمنا– هو زوج أمها. وكان لحقيقة أن الرجلين لم يظهرا في نفس الوقت قط، بل يظهر أحدهما عندما يختفي الآخر دلالة كذلك. وقد لّمحت النظارة المُلونة والصوت المُثير للفضول إلى التنكر، وأكّد ذلك الشارب الكث المُمتد إلى جانبي الفم. وقد تأكدت كل شكوكي بسبب تصرفه الغريب بطباعة توقيعه، والذي أشار بالطبع إلى أن خط يده كان مألوفًا لها للغاية، لدرجة أنها كانت ستتعرف عليه من أصغر عينة تراها. عندما تنظر لكل هذه الحقائق المنفصلة معًا، بالإضافة إلى العديد من الحقائق البسيطة الأخرى، ستجدها تشير كلها إلى نفس الاتجاه.

– وكيف تحققت؟

– أصبح من السهل أن أتحقق بعدما حددت الشخص المنشود. إنني أعرف الشركة التي يعمل بها هذا الرجل. وقد أخذت الوصف المطبوع، وحذفت منه كل شيء يمكن أن يستخدمه للتنكر –الشارب، والنظارات، والصوت– وأرسلته إلى الشركة، وطلبت منهم إخطاري إذا كانت هذه المواصفات تنطبق على أي من مندوبي المبيعات العاملين لديهم. وكنت قد لاحظت العلامات المُميزة في الآلة الكاتبة بالفعل، فراسلت الرجل نفسه إلى عنوان عمله طالبًا منه الحضور إلى هنا، وكما توقعت كان رده بالآلة الكاتبة، وقد ظهرت نفس العيوب المُميزة للحروف. وفي نفس صندوق البريد كان هناك رسالة من شركة ويست هاوس وماربانك من شارع فينتشيرش مُقرًّا بأن المواصفات تنطبق تمامًا على موظفهم جاميس وينديبانك. وهذا كل شيء!

– والآنسة سذرلاند؟

– إذا أخبرتها، فلن تصدقني. قد تتذكر المثل الفارسي القديم الذي يقول: (إن خطر اختطاف شبل النمر يساوي خطر سلب امرأة وهمًا تعيشه) إن حكم حافظ[1] العظيمة تتساوى مع حكم هوراس[2]، ولدى كل منهما معرفة العالم كله.

الخواجة شمس الدين محمد حافظ السراجي: اشتهر باسم حافظ، ويُعد من أشهر الشعراء الفارسيين.

كوينتس هوراتيوس فلاكس: اشتهر باسم هوراس، ويُعد من أشهر الشعراء الرومانيين.

مغامرة إبهام المهندس

من بين كل القضايا التي قُدِّمت لصديقي شيرلوك هولمز خلال سنوات صداقتنا، كان هناك قضيتان كنت أنا من قدمهما له؛ قضية إبهام السيد هاثرلي، وقضية جنون الكولونيل بارتون. الثانية كانت قضية جيدة للمُلاحظ الطبيعي، أما الأولى فقد كانت غريبة جدًّا، وتفاصيلها في غاية الغرابة، ما يجعلها أحق بالتسجيل رغم أنها أتاحت لصديقي منافذ أقل لاستخدام طرقه المميزة في الاستنتاج. ولقد طُرحت هذه القصة -كما أعتقد- أكثر من مرة في الصحف، لكن مثل باقي القصص، فإن تأثيرها عندما تُكتب كاملة في نصف عمود يكون أقل بكثير من تطور الحقائق ببطء أمام عينيك، وتَكشُّف اللغز أمامك بالتدريج، حيث يمهد كل اكتشاف جديد لخطوة تقود إلى الحقيقة الكاملة. كان لتلك الملابسات تأثير عميق عليَّ، وبالكاد خفّف مرور عامين بعدها من ذلك التأثير.

جرت هذه الأحداث التي أهمّ بتلخيصها في عام 1889 بعد زواجي بفترة قصيرة. بعدما عدت إلى الممارسة المدنية، وتركت هولمز في غرفة شارع بيكر، ظللت أزوره باستمرار، وأقنعته في بعض المناسبات أن يتخلى عن عاداته البوهيمية ويزورنا. ازدهرت عيادتي بالتدريج، ونظرًا لإقامتي بالقرب من محطة بادنجتون فقد تصادف أن كان من بين مرضاي بعض مسؤولي المحطة. واحد منهم -كنت أعالجه من مرض مزمن- أخذ يعلن عن مميزاتي كطبيب، ويرسل كل من يعاني مرضًا من معارفه إلى عيادتي.

وذات صباح قبل السابعة بقليل، أيقظتني طرقات الخادمة على الباب، لتعلن عن مجيء رجلين من محطة بادنجتون، ينتظران في غرفة الاستشارة. ارتديت ملابسي بسرعة لأنني علمت من خبرتي أن حالات المحطة دومًا لا تكون بسيطة، فأسرعت في النزول من الغرفة.

وبينما أهبط الدرج خرج المريض مسؤول المحطة الذي ذكرته سابقًا من الغرفة، وأغلق الباب خلفه بإحكام، ثم همس وهو يهزّ بإبهامه فوق كتفه: لقد أحضرته إليك، إنه بخير.

ولأن أسلوبه أوحى إليّ أنه قد قبض على مخلوق غريب في غرفتي سألته: ما الأمر إذن؟

فهمس: إنه مريض جديد، وفكرت في إحضاره بنفسي حتى لا يهرب، وها هو هنا سليم ومُعافى. يجب أن أنصرف الآن يا دكتور، فعندي واجبات مثلك تمامًا.

غادر هذا المشجّع الوفي فورًا قبل أن يدعني أشكره حتى. دخلت غرفة الاستشارة فوجدت رجلًا محترمًا يجلس بالقرب من الطاولة. ملابسه محافظة، يرتدي بزّة من الجوخ المنقّط، وقبعة من القماش الناعم، والتي خلعها ووضعها على كتبي، وإحدى يديه ملفوفة بمنديل مبقَّع بالدماء، يبدو شابًّا لا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين، له وجه خشن الملامح، ولكنه شاحب للغاية، ما أعطاني انطباعًا بأنه يعاني من اضطراب شديد يحتاج إلى كل تركيزه ليستطيع التحكم فيه.

قال: أنا آسف يا دكتور لأنني قرعت بابك في مثل هذا الوقت المبكر، لكن وقعت لي حادثة خطيرة جدًّا في الليل، فجئت بالقطار هذا الصباح، وسألت في محطة بادنجتون عن طبيب، ولقد تكرّم شخص طيب ورافقني إلى هنا. لقد أعطيت الخادمة بطاقتي، لكنني أرى أنها قد وضعتها على الطاولة الجانبية.

لتقطت البطاقة ونظرت فيها: **السيد فيكتور هاثرلي، مهندس هيدروليكي، 16 أي شارع فيكتوريا (الطابق الثالث).**

فقلت وأنا أجلس على كرسي المكتب: أعتذر لأنك انتظرت بعض الوقت. فالرحلات الليلية رتيبة في العادة.

فقال: أوه، لا يمكن القول بأن ليلتي كانت رتيبة.

ثم ضحك بقوة وصوت رنان، ومال إلى الخلف في كرسيه وهزّ جانبيه، فثارت غريزتي الطبية أمام كل هذا الضحك وصحت: توقف! تمالك نفسك!

ثم صببت له بعض الماء من الإبريق، لكن بلا فائدة، فلقد انطلق في واحدة من تلك الانفجارات الهستيرية التي تصيب الشخصيات القوية بعد مرورها بأزمة هائلة، ثم عاد إلى الشخصية الشاحبة المُتعَبة مرة أخرى قائلًا: لقد جعلت نفسي أبدو كشخص أحمق.

صببت بعض البراندي في المياه، وناولته الكوب: على الإطلاق، اشرب هذا.

بدأت الدموية تعود إلى وجهه الشاحب وقال: هذا أفضل. والآن يا دكتور قد تتكرّم وتهتم بإبهامي، أو بالأحرى المكان الذي كان فيه إبهامي.

ثم فكّ المنديل ورفع يده التي صدمتني، فقد رأيت أربع أصابع، ومكان أحمر إسفنجي بشع في موضع إبهامه. لقد قُطع أو تم اقتلاعه من جذوره.

صِحت قائلًا: يا إلهي! إنها إصابة رهيبة، لا بد أنك نزفت كثيرًا.

– نعم بالفعل، لقد فقدت الوعي عندما حدث ذلك، وأعتقد أنني ظللت كذلك لمدة طويلة. وعندما أفقت وجدت أنه لا يزال ينزف، لذا ربطت أحد أطراف منديلي حول رسغي بقوة، وثبتّه بغصن شجرة.

– ممتاز! كان من المفترض أن تكون جرّاحًا.

– إنها مسألة حركة سوائل كما ترى، وهذا يدخل ضمن اختصاصاتي.

قلت وأنا أفحص الجرح: لقد حدث ذلك بواسطة أداة حادة وثقيلة للغاية.

فقال: شيء مثل الساطور.

– أفترض أنها حادثة، أليس كذلك؟

– على الإطلاق.

– ماذا! هجوم قاتل؟

– قاتل للغاية بالفعل.

– إنك تخيفني.

مسحت الجرح ونظفته وضمدته، وأخيرًا غطيته بقطعة من القطن وضمادات مُعقمة. استلقى دون حراك إلا من عضّة على شفتيه من حين إلى آخر. ثم سألته عندما انتهيت: ما رأيك؟

– ممتاز! بين البراندي والضمادة الطبية، أشعر وكأنني رجل جديد. كنت أشعر بضعفٍ شديد، مررت بالكثير من المعاناة.

– ربما من الأفضل ألا تتحدث عن الأمر، فمن الواضح أن هذا سيجهد أعصابك.

– أوه، لا! ليس الآن. يجب أن أقص حكايتي على الشرطة. بيني وبينك، لولا هذا الجرح الذي يُعد دليلًا

دامغًا، ما كنت لأُفاجأ إذا لم يصدقوني، فهي قصة غريبة للغاية، وليس لدي أي دليل آخر يجعلهم يصدقونني، والأدلة التي أستطيع تقديمها مُبهمة للغاية، ومن ثم أشك في أن العدالة ستأخذ مجراها.

فصحت: ها! إذا كانت معضلة تحتاج إلى حل، فإنني أرشح لك بقوة صديقي السيد شيرلوك هولمز قبل أن تذهب إلى الشرطة.

فأجابني زائري: أوه، لقد سمعت عن هذا الرجل، وسيسرني أن يتولى هذه القضية بنفسه. هل يمكن أن تعطيني بطاقته؟

– سأفعل ما هو أفضل من ذلك، سآخذك إليه بنفسي.

– سأكون ممتنًّا لك للغاية.

– سنطلب عربة ونذهب معًا، وبهذا سنصل في الوقت المناسب لتناول إفطار بسيط معه. هل تشعر أنك قادر على ذلك؟

– نعم، فأنا لن أشعر بالراحة حتى أقصّ قصتي.

– إذن سيطلب خادمي عربة، وسأكون معك بعد لحظة.

أسرعت إلى الطابق العلوي وشرحت الأمر لزوجتي باختصار، وخلال خمس دقائق كنت في العربة متجهًا إلى شارع بيكر مع زميلي الجديد.

كما توقعت كان شيرلوك هولمز مسترخيًا في غرفة الجلوس في ردائه المنزلي، منهمكًا في قراءة صفحة الإعلانات الشخصية في جريدة التايمز يدخن غليون ما قبل الإفطار الخاص به. استقبلنا بطريقته الهادئة اللطيفة المعتادة، وطلب لنا بيضًا وشرائح لحم طازجة وانضم إلينا في وجبتنا المُشبعة. وعندما انتهينا، طلب من زميلنا الجديد أن يجلس على الأريكة، ووضع وسادة تحت رأسه، وكوبًا من الماء والبراندي في متناول يده، ثم قال: من السهل رؤية أن تجربتك لم تكن عادية يا سيد هاثرلي. أرجو أن ترقد على الأريكة وترتاح كما لو كنت في بيتك تمامًا. أخبرنا بما تستطيع، وتوقف عندما تشعر بالتعب، وحافظ على قوتك بذلك المُنبه.

فقال مريضي: شكرًا لك، لكنني أشعر بأنني رجل مختلف بالفعل منذ أن ضمدني الدكتور، وأظن أن إفطارك قد أكمل العلاج. سآخذ من وقتك الثمين أقل ما يمكن، لذا سأبدأ بقص تجربتي الغريبة على الفور.

جلس هولمز في مقعده المريح متكاسلًا وعيناه نصف مغلقتين تخفيان وراءهما طبيعته اليقظة المتحمّسة، وجلست أنا في المقعد المقابل له، نستمع بصمت إلى القصة الغريبة التي قام زائرنا بقصّ تفاصيلها علينا.

فقال: لا بد أن تعرفا أنني يتيم وأعزب، أعيش وحيدًا في مسكن في لندن. أعمل مهندسًا هيدروليكيًّا، وقد حصلت على خبرة كبيرة خلال السنوات السبع التي تدربت فيها في الشركة المعروفة فينر وماثسون في جرينتش. وقد أتممت فترة التدريب منذ عامين، توفّر لدي مبلغ جيد من المال بعد وفاة والدي المسكين، فقررت بدء عمل خاص لنفسي، واخترت موقعًا لمشروعي في شارع فكتوريا.

أفترض أن الجميع يجدون في بدايات أعمالهم المستقلة تجربة كئيبة، وبالنسبة لي كان الأمر كذلك بشكل كبير. فخلال عامين لم أحصل سوى على ثلاث استشارات وتوظيف لعمل واحد صغير، هذا كل ما جلبه لي عملي. بلغ دخلي الإجمالي سبعة وعشرين جنيهًا وعشرة قروش. كنت أنتظر كل يوم في مقر عملي الصغير من التاسعة صباحًا إلى الرابعة عصرًا، حتى بدأت في الاكتئاب، وبدأت أخيرًا في الاقتناع بأنه لم يكن من المفترض أن أفتتح عملي الخاص على الإطلاق.

ومع ذلك، بالأمس بينما كنت أهمّ بمغادرة المكتب، دخل موظفي ليخبرني بأن هناك رجلًا محترمًا يريد رؤيتي بخصوص عمل ينتظرني، وأحضر بطاقة تعريف مطبوعًا عليها **كولونيل ليساندر ستارك**. وفي أعقابه دخل الكولونيل بنفسه، كان رجلًا يزيد حجمه على المتوسط ولكنه نحيف للغاية. لا أظن أنني رأيت رجلًا بمثل هذه النحافة من قبل، وكأن وجهه قد اختُزِل في أنف وذقن حادَّين، بينما بدا جلد خديه مشدودًا للغاية فوق عظامه الناتئة، ومع ذلك فقد بدا واضحًا أن هذا الهُزال هو طبيعة جسده وليس بسبب مرض. فلقد كانت عيناه لامعتين وبدت خطواته ثابتة وتصرفاته واثقة، ملابسه بسيطة لكنها مُهندمة، وفي تقديري سنه أقرب للأربعين منه إلى الثلاثين.

تحدث بلكنة ألمانية خفيفة: سيد هارتلي؟ لقد تم ترشيحك إليَّ يا سيد هارتلي، ليس لكونك ماهرًا في مهنتك فحسب، بل لأنك رجل أمين وتستطيع حفظ الأسرار.

انحنيت شاعرًا بالزّهو كأي شاب يُخاطب بمثل هذه الطريقة قائلًا: هل يمكنني أن أسأل من الذي وصفني في ترشيحه بمثل هذا الوصف الجيد؟

– حسنًا من الأفضل، ألا أخبرك الآن، لكنني عرفت من نفس المصدر أنك يتيم وأعزب وتعيش في لندن وحدك.

فأجبت: هذا صحيح تمامًا، لكن اعذرني إذا قلت إنني لا أستطيع فهم كيف تدعم هذه التفاصيل الشخصية مؤهلاتي المهنية؟ وقد فهمت أنك تريد التحدث معي بشأن مسألة عمل!

– بلا شك، وستكتشف أن كل ما أقوله في صميم الموضوع. لدي عمل لك، لكن السرية المطلقة شرط أساسي فيه.. السرية المطلقة، كما تفهم والتي بالطبع نتوقعها من رجل وحيد أكثر مما نتوقعها من شخص يعيش في أحضان عائلته.

فقلت: إذا وعدتك بالسرّية، فيمكنك التأكد بأنني سأحفظ ذلك السر بالتأكيد.

نظر إليّ نظرة شديدة بينما كنت أتحدث، وقد بدا لي أنني لم أقابل شخصًا يمتلك مثل هذه النظرة المتشككة الفاحصة، وقال أخيرًا: أتعدني بذلك؟

– نعم أعدك.

– كتمان مطلق وكامل قبل وأثناء وبعد العمل؟ وألا تشير للموضوع على الإطلاق سواء شفهيًّا أو كتابيًّا؟

– لقد سبق وأعطيتك كلمتي.

– جيد جدًّا.

ثم هبّ واقفًا فجأة، وانطلق بسرعة البرق ليفتح الباب، وكان الرواق خاليًا، ثم قال وهو يعود إلى مكانه: كل شيء بخير. أعلم أن الموظفين قد ينتابهم الفضول لمعرفة ما يخص مديريهم. الآن يمكننا أن نتحدث بأمان.

سحب كرسيه ووضعه قريبًا مني للغاية، ثم عاد للتحديق إليّ مرة أخرى بنفس النظرة المتشككة المتسائلة. انتابني شعور بالنفور، وبدأ شيء يشبه الخوف يتملكني بسبب التصرفات الغريبة للرجل النحيف. ولم يمنعني خوفي من فقدان عميل حتى من إظهار نفاد صبري، فقلت لزائري وليغفر الله هذه الكذبة: أرجو أن تخبرني بالعمل يا سيدي، فوقتي ثمين.

فسألني: أيناسبك خمسون جنيهًا مقابل ليلة عمل؟

– يناسبني للغاية.

– أقول ليلة عمل، وإن كان أقرب إلى ساعة عمل في الحقيقة. فأنا ببساطة أريد رأيك في مكبس هيدروليكي فيه مشكلة، وإذا أرشدتنا إلى سبب العطل، فسوف نصلحه بأنفسنا. ما رأيك بهذا العمل؟

– يبدو أن العمل خفيف والأجر سخي.

– بالضبط. نريدك أن تأتي الليلة في آخر قطار.

– إلى أين؟

– إلى أيفورد في بيركشاير. إنها مكان صغير بالقرب من حدود أوكسفوردشاير، وتبعد عن ريدنج أقل من سبعة أميال. هناك قطار في بادنجتون سيصل بك هناك في الحادية عشرة والربع تقريبًا.

– جيد جدًّا.

– وسأحضر في عربة لاستقبالك.

– هناك مسافة نقطعها بالعربة إذن؟

– نعم، فمسكننا الصغير في الريف المفتوح بعض الشيء. ويبعد سبعة أميال من محطة أيفورد.

– إذن فنحن قد نصل بالكاد في منتصف الليل. إذن لن يكون هناك فرصة لقطار العودة، وسأكون مضطرًّا إذن لقضاء الليلة هناك.

– نعم، ويمكننا تدبير مكان لنومك بسهولة.

– هذا محرج للغاية. ألا يمكن أن آتي في وقت أكثر ملاءمة؟

– لقد رأينا أنه من الأفضل أن تأتي في وقت متأخر. ولتعويضك عن أي إزعاج، فإننا ندفع لك وأنت شاب غير معروف ما قد ندفعه مقابل رأي أكبر الخبراء في مهنتك. وبالرغم من ذلك يمكنك بالطبع الانسحاب من هذا العمل، وهناك الكثير من الوقت لتفعل ذلك.

فكرت في الخمسين جنيهًا وكم ستكون مفيدة لي، فقلت: على الإطلاق، سيسعدني أن أتكيف مع ما تريد، لكن أرجو أن أفهم ما تريدني أن أفعل بشكل أوضح.

– بالطبع، ومن الطبيعي تمامًا أن يثير التعهد بالسرية الذي أخذناه عليك فضولك. ليس لديّ أي نية في إلزامك بأي شيء دون أن تعرف كل التفاصيل. أفترض أننا في أمان كامل من المتنصّتين؟

- بالكامل.

- إذن فالوضع كالتالي: من المُرجح أنك تعرف أن تراب القَصر[3] هو منتج ثمين ولا يوجد سوى في مكان أو اثنين في إنجلترا، أليس كذلك؟

- لقد سمعت ذلك.

- منذ فترة قصيرة اشتريت مكانًا صغيرًا -مكانًا صغيرًا جدًّا - على بُعد عشرة أميال من ريدنج. وكنت محظوظًا بما يكفي كي أكتشف أن هنا ترسّبات لتراب القَصر في أحد حقولي. وعند فحصه، اكتشفت أن هذه البقعة صغيرة نسبيًّا مقارنة بالحقلين الأكبر بكثير على يمين ويسار بقعتي، لكنّ كليهما يقع في أرض جيراني. وقد كان هؤلاء الأناس الطيبون غافلين تمامًا عن احتواء أرضهم على شيء يساوي منجم ذهب، وبالتالي أصبح هدفي شراء أراضيهم قبل أن يعرفوا قيمتها الحقيقية، لكن للأسف ليس لديّ المال الكافي لفعل ذلك، فاستشرت بعض الأصدقاء في السر، واقترحوا أن نستخرج مخزوننا الصغير ونبيعه في سرية وهدوء، وبهذا نكسب ما يمكّننا من شراء الحقلين المجاورين. وهذا ما كنا نفعله منذ بعض الوقت. ولمساعدتنا في مهمتنا، قمنا بالاستعانة بمكبس هيدروليكي. وهذا المكبس -كما شرحت مُسبقًا- قد تعطل، ونريد استشارتك بخصوص الموضوع. وبالرغم من أننا نحافظ على سرّنا بحرص شديد، فإنه إذا عرف الناس بمجيء مهندسي هيدروليك لمنزلنا الصغير، فقد يثير ذلك التساؤلات، وإذا ظهرت الحقيقة بعدها، فسيعني ذلك ضياع أي فرصة لشراء هذه الحقول وتنفيذ مخططنا.

لهذا جعلتك تعدني بأنك لن تخبر أي مخلوق بأنك ستذهب إلى أيفورد الليلة. أتمنى أن يكون كل شيء واضحًا. فقلت: أفهمك تمامًا، لكن النقطة الوحيدة التي لا أفهمها هي دور المكبس الهيدروليكي في استخراج تراب القَصر، فاستخراجه يتم بالحفر كما يُستخرج الحصى من الحفر.

فقال بلامبالاة: آه! إن لدينا طريقتنا الخاصة، فنحن نضغط التراب ليتحجّر، كي ننقله دون أن ننكشف، لكن هذه مجرد تفاصيل. لقد وثقت بك تمامًا يا سيد هاثرلي وأظهرت لك مدى ثقتي بك.

ثم نهض قائلًا: سأنتظرك إذن في أيفورد في الحادية عشرة والربع.

- سأكون هناك بالتأكيد.

فنظر إليّ نظرة متشككة أخيرة قائلًا: ولا تنطق بأي كلمة لأي شخص.

ثم شدّ على يدي بقبضة باردة رطبة وخرج مسرعًا من الغرفة.

حسنًا، عندما أفكر في الأمر وأنا هادئ الآن، أجد أنني كنت مندهشًا بهذه المهمة المفاجئة -كما قد تعتقدان- والتي كُلِّفت بها. فمن ناحية بالطبع كنت سعيدًا بالأجر الذي يبلغ عشرة أضعاف ما كنت سأطلبه مقابل هذه الخدمة، بالإضافة إلى أنه كان من الممكن أن تتبع تلك المهمة مهمات أخرى في المستقبل. ومن ناحية أخرى ترك لديّ وجه عميلي وأسلوبه انطباعًا سيئًا، ولم أستطع أن أقتنع بأن تبريره الخاص بتراب القَصر كان كافيًا لضرورة أن آتي في الليل، إضافةً إلى قلقه الشديد بأن أخبر أي شخص بمهمتي. ومع ذلك، فقد ألقيت بكل مخاوفي، وركبت إلى بادنجتون وانطلقت بالقطار، وقد التزمت بالعهد وأمسكت لساني.

وفي ريدنج قمت بتغيير القطار، ومع ذلك فقد وصلت في الوقت المناسب لآخر قطار يتوجّه إلى أيفورد، ووصلت إلى المحطة المعتمة الصغيرة بعد الحادية عشرة. كنت الراكب الوحيد الذي نزل هناك، ولم يكن هناك أي شخص على الرصيف سوى حمّال وحيد ناعس يحمل مصباحًا.

عندما عبرت البوابة الصغيرة، وجدت الشخص الذي زارني في الصباح ينتظرني في الظل في الجانب الآخر، ومن دون كلمة جذب ذراعي وأسرع بي إلى العربة، ثم أغلق نوافذها من الجانبين، ثم طرق على الجزء الخشبي لينطلق الحصان بأسرع ما يمكنه أن..».

قاطعه هولمز: حصان واحد؟

– نعم، واحد فقط.

– هل لاحظت لونه؟

– نعم، لقد رأيته على ضوء المصابيح الجانبية وأنا أركب العربة، كان لونه كستنائيًّا.

– وهل بدا عليه التعب أم النشاط؟

– أوه، لقد كان نشيطًا ولامعًا.

– أشكرك وأعتذر عن مقاطعتك! أرجو أن تستأنف روايتك المثيرة للاهتمام.

– انطلقنا بعيدًا، وقد استغرقنا ساعة على الأقل. وبالرغم من أن الكولونيل ليساندر ستارك قد قال إن المسافة حوالي سبعة أميال، فإنني أعتقد حسب السرعة التي كنّا ننطلق بها والوقت الذي استغرقناه أنها تقترب من اثني عشر ميلًا. جلس بجانبي صامتًا طوال الوقت، وأحسست أكثر من مرة عندما نظرت إليه بأنه يرمقني بحدة شديدة.

بدت الطرق الريفية في ذلك المكان سيئة للغاية، فلقد أخذنا نتمايل ونتخبط، وحاولت أن أنظر من النوافذ لرؤية أين كنّا، لكنها كانت من الزجاج المُصنفَر ولم أستطع رؤية أي شيء سوى اللمعان الضبابي لبعض الأنوار العابرة من وقت لآخر. جازفت من حين لآخر بأن ألقي بعض الملاحظات لكسر رتابة الرحلة، إلا أن الكولونيل كان يرد بجمل مقتضبة ما أنهى المحادثات سريعًا.

بعد ذلك أخيرًا تبدّل الطريق الوعر بطريق ناعم مفروش بالحصى، ثم توقفت العربة. هبَّ الكولونيل ليساندر ستارك خارجًا منها، وعندما اتبعته، سحبني بسرعة إلى مدخل مسقوف أمامنا، فدخلنا مباشرة لأن العربة كانت أمامه بالضبط.

وهكذا وجدت نفسي في الصالة دون أن أنجح في إلقاء ولو نظرة على شكل المنزل. وبمجرد اجتيازي عتبة الباب، صُفق خلفي بقوة، وسمعت قرقعة عجلات العربة تبتعد.

كان الظلام دامسًا في المنزل، وأخذ الكولونيل يتخبط بحثًا عن ثقاب متمتمًا ببعض الكلمات، وفجأة فُتح باب في نهاية الممر واندفع شعاع من الضوء الذهبي باتجاهنا، ثم اتسعت مساحة الضوء تدريجيًّا لتظهر أمامنا امرأة تحمل مصباحًا ترفعه فوق رأسها. مدّت رأسها للأمام مُحدقة إلينا. كان يمكنني تمييز أنها جميلة، ومن اللمعان الذي عكسه الضوء على ثوبها الأسود، عرفت أنه من خامة غالية.

تحدثَت المرأة بعض الكلمات بلغة أجنبية وبلهجة توحي بأنها تسأل، وعندما أجاب رفيقي بطريقة جافة، جفلت حتى كاد المصباح يسقط من يدها. اقترب منها الكولونيل ستارك، ثم همس لها ببعض كلمات في أذنها، ودفعها إلى الغرفة التي ظهرت منها، ثم سار هو تجاهي بالمصباح قائلًا وهو يفتح بابًا آخر: أرجو أن تتكرم وتنتظرني في هذه الغرفة لدقائق.

كانت غرفة هادئة صغيرة بسيطة الأثاث، بها طاولة مستديرة في وسطها، مُبعثر عليها كتب ألمانية مختلفة. وضع الكولونيل المصباح فوق آلة أرغن بجوار الباب، ثم قال: لن أتركك تنتظر لأكثر من لحظة.

ثم اختفى في الظلام. نظرت إلى الكتب المُبعثرة على الطاولة، وبالرغم من جهلي بالألمانية فإنني استطعت أن أستنتج أن اثنين منهما كانا عن أبحاث علمية، والبقية كتب شعر. تمشيت ناحية النافذة آملًا في رؤية المناظر الريفية الجميلة، إلا أنني وجدتها مُغلقة بإحكام بخشب البلوط ومزلاج قوي. كان منزلًا هادئًا بشكل مذهل، ولولا الدقّات العالية من ساعة قديمة في مكان ما في الممر، لغرق المنزل في سكون قاتل.

بدأ شعور غامض بعدم الراحة يتسلل إلى نفسي. مَن هؤلاء الألمان؟ ولماذا يعيشون في هذا المكان الغريب المعزول؟ وأين كان ذلك المكان؟ كنت على بُعد نحو عشرة أميال من أيفورد، لكن لم أعرف في أي اتجاه سواء كان الشمال أم الجنوب أم الشرق أم الغرب.. لم يكن لديّ أي فكرة. وبما أن ريدنج والعديد من المدن الأخرى تقع في هذا المحيط، فمن الممكن ألّا يكون المكان منعزلًا للغاية، لكن ذلك الصمت المطبق أكَّد أنه يقع في قلب الريف بلا شك.

أخذت أذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا مُدندنًا بنغمة خافتة للحفاظ على معنوياتي، شاعرًا بأنني أستحق الخمسين جنيهًا. وفجأة، وبلا أي صوت تمهيدي، فُتح باب غرفتي ببطء، ووقفت المرأة في فتحة الباب والظلام يغلفها إلا من الضوء الأصفر المنعكس على وجهها القلِق الجميل. وتمكنت من نظرة واحدة من إدراك أنها كانت شديدة الخوف، بعث مظهرها القشعريرة في قلبي. رفَعَت إصبعًا مرتعشة لتحذّرني كي أصمت، وهمست ببعض الكلمات بإنجليزية ركيكة وعيناها تنظران إلى الخلف كحصان خائف، قائلة وهي تحاول بأقصى ما تستطيع الحفاظ على هدوئها: لو كنت مكانك لغادرت.. لغادرت. لم أكن لأنتظر هنا. من الأفضل لك ألّا تبقى.

فقلت: لكن يا سيدتي أنا لم أقم بالمهمة التي جئت من أجلها بعد. لا يمكنني أن أغادر ببساطة دون رؤية الآلة.

فاستمرت قائلة: إن الأمر لا يستحق الانتظار. يمكنك الخروج من الباب ولن يمنعك أحد.

وعندما رأتني ابتسم وأهزّ رأسي رافضًا، ألقت بكل تحفظها جانبًا فجأة وخطت تجاهي وضمت يديها هامسةً: اخرج من هنا بالله عليك! اهرب قبل فوات الأوان!

لكنني عنيد بطبيعتي، وتزداد رغبتي في القيام بالشيء إذا وجدت أن هناك عوائق في الطريق. فكرت في الجنيهات الخمسين، وفي الرحلة المُرهقة، وفي الليلة غير السارة التي تنتظرني، فهل سيذهب كل ذلك بلا مقابل؟ لماذا قد أهرب قبل القيام بمهمتي ودون أن أستلم أجري؟ وما أدراني، فقد تكون هذه المرأة

مجنونة في النهاية. ولذلك ورغم أن طريقتها قد هزّتني أكثر مما وددت أن أعترف، فإنني اتخذت موقفًا شجاعًا وهززت رأسي معلنًا نيتي على البقاء في مكاني. كانت على وشك تجديد توسّلاتها حين صُفق باب في الأعلى وسمعنا صوت خطوات على الدرج. أرهفت السمع للحظة، وحركت يديها في الهواء في إشارة يائسة، ثم اختفت فجأة بلا ضجيج كما ظهرت.

كان الوافدون هم الكولونيل ليساندر ستارك ورجل قصير سمين ذو لحية كثّة تكسو ثنايا ذقنه، تم تقديمه إليّ باسم السيد فيرجسون. قال الكولونيل: هذا مساعدي ومدير أعمالي. بالمناسبة، كنت أظن أنني قد تركت هذا الباب مغلقًا منذ لحظة. آمل أنني لم أجعلك تشعر بالبرد.

فقلت: بالعكس، لقد تركته مغلقًا لكنني فتحته لأنني أحسست أن الغرفة مكتومة بعض الشيء.

فرمقني بإحدى نظراته المتشككة قائلًا: لعل من الأفضل أن نبدأ العمل إذن. سنصطحبك أنا والسيد فيرجسون إلى الآلة.

– إذن فمن الأفضل أن أعتمر قبعتي كما أفترض.

– أوه، لا، إنها في المنزل.

– ماذا! هل تستخرج تراب القَصر داخل المنزل؟

– لا، لا. هذا هو المكان الذي نكبسه فيه، لكن لا تشغل بالك بذلك. كل ما نريدك أن تفعله هو أن تفحص الآلة وتخبرنا بالمشكلة.

صعدنا الدرج معًا؛ الكولونيل في البداية ومعه المصباح، والمدير السمين يتبعه، وأنا خلفهما. كان المنزل القديم يشبه المتاهة بأروقته وممراته ودرجه الدائري الضيق وأبوابه المنخفضة ذات العتبات المتآكلة بتأثير الأجيال العديدة التي مرّت عليها. ليس هناك سجاد أو إشارة لأي أثاث في أي مكان بالطابق العلوي، وقد تساقط الطلاء وتسربت الرطوبة مكونةً بقعًا خضراء غير صحية.

حاولت أن أبدي لامبالاتي قدر الإمكان، وإن لم أستطع نسيان تحذيرات المرأة برغم تجاهلي لها، ولذلك أخذت حذري من رفيقيّ. بدا فيرجسون رجلًا كئيبًا صامتًا، إلا أنني استنتجت من القليل الذي قاله إنه على الأقل من الريف الإنجليزي.

توقف الكولونيل ليساندر ستارك في النهاية أمام باب منخفض غير مُغلق، لغرفة مربعة صغيرة لم تكن تتسع لثلاثتنا معًا. انتظر فيرجسون بالخارج، بينما رافقني الكولونيل إلى الداخل، وقال: نحن الآن داخل المكبس، ولن يكون أمرًا لطيفًا إذا قام أحدٌ بتشغيله، فسقف هذه الغرفة الصغيرة هو في الواقع الجزء الهابط من المكبس، ويهبط بقوة عدة أطنان على هذه الأرض المعدنية. هناك أعمدة مياه خارجية تستقبل القوة وتنقلها وتضاعفها بالطريقة التي تعرفها. تبدأ الآلة في العمل بسهولة، لكن فيها بعض التيبس، كما فقدت جزءًا كبيرًا من قوتها. ربما تتكرم وتلقي نظرة عليها لتخبرنا بطريقة حل المشكلة.

أخذت منه المصباح وفحصت الآلة بدقة. كانت آلة بالغة الضخامة بالفعل، تستطيع توليد ضغط هائل. وعندما خرجت وأنزلت الروافع التي تتحكم بها، علمت على الفور أن بها تسربًا بسيطًا يسمح للماء بالاندفاع إلى إحدى الأسطوانات الجانبية. وأوضح الفحص أن أحد الأربطة المطاطية حول نهاية عمود الدفع قد تقلص بحيث لم يعد يسدّ التجويف الذي يوضع عليه بالكامل، وكان من الواضح أن

ذلك سبب فقدان القوة. ولقد أوضحت ذلك لمرافقيّ اللذين أنصتا إلى ملاحظاتي بحرص شديد وسألا بعض الأسئلة العلمية عن كيفية إصلاح الآلة، وعندما أوضحتها لهما، عدت إلى غرفة الآلة وألقيت نظرة لأشبع فضولي الشخصي. كان من الواضح من النظرة الأولى أن قصة تراب القَصر مختلقة بالكامل، فمن السخف أن نفترض أنه تم تصميم مثل هذا المحرك الضخم لذلك الغرض البسيط. جدران الغرفة كانت خشبية، لكن الأرضية كانت من الحديد، وعندما تفحصتها، استطعت رؤية أنها مُغطاة بقشرة من الرواسب المعدنية في كل مكان. انحنيت وحاولت أن أكشطها لأعرف ما هو المعدن بالضبط، لكنني سمعت صيحة تعجب بالألمانية، ورأيت الكولونيل ينظر إليّ بوجه شاحب سائلًا: ماذا تفعل عندك؟

شعرت بالغضب لأنني خُدعت بتلك القصة المُتقنة التي قصّها عليّ، فقلت: كنت أتأمل تراب القَصر الخاص بك. أظن أن بإمكاني أن أقدم لك نصيحة أفضل بشأن آلتك إذا عرفت الغرض الحقيقي الذي تُستخدم لأجله.

وفي اللحظة التي أنهيت فيها كلامي كنت قد شعرت بالندم بالفعل. فقد قست ملامح وجهه وقدحت عيناه الرمادية شرًّا قائلًا: حسنًا، ستعرف كل شيء عن هذه الآلة.

ثم خطا خطوة إلى الخلف وصفق الباب الصغير وأدار المفتاح في القفل. أسرعت إلى الباب وأخذت أجذب المقبض، إلا أنه كان مُغلقًا بإحكام ولم يتهاوَ تحت طرقاتي وركلاتي، فصرخت: أيها الكولونيل! أيها الكولونيل أخرجني من هنا!

وفجأة في الظلام سمعت صوتا جعل قلبي يسقط في قدمي، لقد كان صوت صلصلة الروافع وأزيز الأسطوانة المثقوبة، لقد قام بتشغيل المحرك. كان المصباح ما زال في مكانه على الأرض حين تركته عندما انحنيت لفحص المعدن، فرأيت على ضوئه السقف الأسود وهو يهبط باتجاهي ببطء وبحركة مُتقطعة لكن بقوة -لا يعرف شخص أكثر مني- أنها قادرة على أن تسحقني وتحوّلني إلى عجينة بلا ملامح. ألقيت بنفسي على الباب وأنا أصرخ وأشد القفل بأظافري. توسّلت إلى الكولونيل ليخرجني، لكن صلصلة الروافع العالية غطت على صرخاتي، وصار السقف على بُعد قدم أو اثنين من رأسي، وعند رفع يدي كنت أستطيع أن أشعر بصلابة وخشونة سطحه.

ثم ومضت في ذهني فكرة أوحت إليّ بأن الألم الذي سأعانيه عند موتي يعتمد بشكل كبير على الوضع الذي سأكون فيه؛ فلو استلقيت على بطني، فسوف يهبط الثقل على عمودي الفقري، فاقشعر بدني حين فكرت في الصوت المخيف الذي سينتج عن ذلك. قد يكون الوضع أسهل إن نمت على ظهري، لكن هل لديّ الشجاعة الكافية التي تجعلني أنظر وأرى هذا الظل الأسود القاتل وهو يهبط تجاهي؟ كان السقف قد دنا مني بالفعل، فلم أستطع الوقوف منتصبًا عندما لمحت عيناي شيئًا بعث الأمل في قلبي.

لقد قلت مُسبقًا أن الأرضية والسقف كانا من الحديد، إلا أن الجدران كانت من الخشب. وبينما كنت ألقي آخر نظرة متلهفة حولي، رأيت خيطًا رفيعًا من الضوء الأصفر بين لوحين، والذي اتسع عندما دُفع أحد الألواح إلى الخلف، وللحظة لم أكد أصدق أن هناك منفذًا بالفعل للنجاة من الموت. في اللحظة التالية ألقيت نفسي من الفتحة، راقدًا على الأرض في الناحية الأخرى وأنا شبه فاقد للوعي. تم إغلاق اللوح

خلفي، لكن صوت تحطم المصباح وبعده بلحظات صوت قرقعة اللوحين المعدنيين جعلني أدرك أنني هربت في آخر لحظة.

أعادتني بعدها إلى رشدي شدة قوية لمعصمي، ووجدت نفسي راقدًا على الأرض الصخرية للممرّ الضيق، بينما انحنت فوقي امرأة وهي تشدّني بيدها اليسرى وتمسك شمعة بيدها اليمنى. لقد كانت نفس الصديقة الطيبة التي رفضتُ -لحماقتي- الاستماع إلى نصيحتها.

صاحت بأنفاس متقطعة: تعال! تعال! سيعودان خلال لحظة. سيكتشفان أنك لست بالداخل. أوه، لا تضيع هذا الوقت الثمين.. تعال!

في هذه المرة على الأقل لم أستهن بنصيحتها، وقفت على قدمي وجريت بجانبها عبر الرواق، وهبطنا الدرج الدائري الذي قادنا إلى ممرّ عريض، وما كدنا نصل إليه حتى سمعنا صوت أقدام تجري وصوت شخصين يصرخان؛ أحدهما من الطابق الذي كنّا فيه، والثاني من الطابق الذي تحته، فتوقفت مرشدتي، وأخذت تتلفّت حولها كمن غُلب على أمره، ثم فتحت بابًا يقود إلى غرفة نوم، سطع فيها ضوء القمر بوضوح من النافذة وقالت: إنها فرصتك الوحيدة. إنها عالية، لكنك تستطيع أن تقفز.

وبينما كانت تتحدث، ومض ضوء في نهاية الممر، ورأيت هيئة الكولونيل ليساندر ستارك تسرع ناحيتنا بمصباح في يد، وبشيء يشبه ساطور الجزّار في اليد الأخرى، فأسرعت إلى غرفة النوم لأفتح النافذة ونظرت إلى الخارج، وكم بدت الحديقة هادئة وجميلة ومسالمة تحت ضوء القمر، لم تكن المسافة أبعد من عشرة أمتار تقريبًا. تسلقت عتبة النافذة بصعوبة، لكنني تردّدت في القفز حتى أسمع ما سيدور بين منقذتي ومطاردي، فإذا أساء معاملتها، كنت سأعود لمساعدتها مهما كان الثمن. ولم تكد الفكرة تخطر على بالي حتى كان هو عند الباب يحاول أن يتجاوزها لكنها ألقت بذراعيها حوله محاولةً منعه صارخة بالإنجليزية: فريتز! فريتز! تذكّر وعدك بعد آخر مرة. لقد قلت إن هذا لن يحدث مرة أخرى. سوف يصمت! أوه، لن يخبر أحدًا!

فصرخ وهو يحاول التملص منها: إنكِ مجنونة يا آليس. ستجلبين الدمار علينا. لقد رأى الكثير. أقول لكِ دعيني أمرّ!

دفعها جانبًا وأسرع إلى النافذة وضربني بسلاحه الثقيل. كنت قد تدليت من النافذة وما زالت يدي مُمسكة بها عندما أصابتني ضربته. شعرت بألم فظيع، وارتخت قبضتي، وسقطت على أرض الحديقة في الأسفل.

آلمتني السقطة، لكنها لم تعُقني، استجمعت قوتي لأقف بين الأشجار وأجري بأقصى طاقتي؛ لأنني علمت أن الخطر لا يزال قائمًا، لكن فجأة وأنا أجري شعرت بالدّوار والإعياء، ونظرت إلى يدي التي كانت تنبض بالألم، وعندها رأيت لأول مرة أن إبهامي قد قُطع وأن الدم ينسكب منه. حاولت ربط منديلي حوله، لكنني شعرت بطنين مفاجئ في أذني، وفي اللحظة التالية كنت قد سقطت فاقدًا الوعي بين شجيرات الورد.

لم أعرف كم مضى عليّ من وقت وأنا فاقد للوعي، لكن لا بدّ أنه كان وقتًا طويلًا جدًّا، فعندما استعدت وعيي كان القمر قد غاب وبدأ ضوء الفجر في الظهور. وكانت ملابسي مُبللة بالكامل من الندى، بينما

أكمام معطفي مُشبعة بالدماء التي انسابت من جرح إبهامي المقطوع. ساعدني الألم القوي على تذكّر تفاصيل مغامرة الأمس، فقفزت واقفًا، كنت بالكاد في مأمن ممن يسعون خلفي، لكنني دُهشت حين بدأت أنظر حولي فلم أستطع رؤية المنزل ولا الحديقة، بل كنت أرقد في زاوية سياج قريب من الطريق الرئيس، وأسفل مني بمسافة قريبة رأيت مبنى علمت حين اقترابي منه أنه مبنى محطة القطار التي وصلت إليها مساء الليلة السابقة. لولا الجرح البشع في يدي لظننت أن كل ما حدث في تلك الساعات المروّعة كان كابوسًا بغيضًا.

ذهبت إلى المحطة وأنا أشعر بالدوّار وسألت عن قطار الصباح، فعرفت أن واحدًا سيتحرك إلى ريدنج في أقل من ربع ساعة، ووجدت نفس الحمّال الذي كان موجودًا عندما وصلت. سألته إذا ما كان سمع عن الكولونيل ليساندر ستارك، لكن الاسم كان غريبًا عليه. سألته هل لاحظ عربة تنتظرني في الليلة السابقة؟ قال لا لم يلاحظ. هل يوجد قسم شرطة في أي مكان؟ هناك واحد على بُعد ثلاثة أميال.

كانت مسافة طويلة للغاية وأنا بمثل هذه الدرجة من الضعف. قررت الانتظار حتى أعود إلى المدينة قبل أن أروي قصتي على الشرطة. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة بقليل عندما وصلت، وهكذا ذهبت أولًا لأضمّد جرحي، وعندها كان الدكتور واتسون طيبًا بما يكفي كي يحضرني إلى هنا. وها أنا أضع القضية بين يديك، وسأفعل كل ما تنصحني به.

جلسنا جميعًا صامتين بعد أن استمعنا إلى هذه القصة الغريبة. سحبَ شيرلوك هولمز أحد الكتب الضخمة المميزة، حيث يحتفظ بداخلها بقصاصات الورق، وقال: هذا إعلان قد يهمك، وقد نُشِرَ في كل الصحف منذ سنة تقريبًا، اسمع الآتي:

> **«مفقود، في التاسع من الشهر الحالي، السيد جيرمي هايلنج، يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا، مهندس هيدروليكي. ترك منزله في العاشرة مساءً، ولم تُعرف عنه أي أخبار من وقتها. كان يرتدي..»**.

واستطرد هولمز: إلخ، إلخ.. ها! أظن أن هذا يوضح ما حدث في المرّة السابقة التي أراد فيها الكولونيل فحص آلته.

صاح مريضي: يا إلهي! هذا يوضّح ما قالته الفتاة.

– بلا شك. من الواضح أن الكولونيل رجل يائس، وهو مصمم على ألّا يترك شيئًا يقف في طريق لعبته الصغيرة، مثل القراصنة الذين لا يتركون أي ناجين على السفن التي يستولون عليها. حسنًا، كل لحظة تمرّ الآن ثمينة، لذا إذا كنت تشعر بالقوة، فإننا سنذهب إلى شرطة سكوتلاند يارد كخطوة تمهيدية للذهاب إلى أيفورد.

وبعد ثلاث ساعات تقريبًا، كنا جميعًا في قطار معًا من ريدنج متجهين نحو قرية بيركشاير الصغيرة. شيرلوك هولمز، والمهندس الهيدروليكي، والمفتش برادستريت من شرطة سكوتلاند يارد، ورجل بملابس بسيطة بالإضافة إليّ. كان برادستريت قد بسط إحدى الخرائط المساحية التفصيلية للريف على المقعد أمامه، وانشغل برسم دائرة مستخدمًا البوصلة بحيث تكون أيفورد هي مركزها، وقال: ها هي

ذي، الدائرة مرسومة بقطر عشرة أميال من القرية. المكان الذي نريده لا بد أنه بالقرب من هذا الخط. لقد قلت عشرة أميال، أليس كذلك يا سيدي؟

– لقد استغرقت الرحلة ساعة بعربة تتحرك بسرعة جيدة.

– وتظن أنهم قد أعادوك كل هذا الطريق وأنت فاقد الوعي؟

– لا بد أن هذا ما فعلوه، فأنا أذكر بشكل مُشوّش كذلك أنني قد حُملت ونُقلت إلى مكان ما.

فقلت: الأمر الذي لا أفهمه هو لماذا أبقوا عليك بعد أن وجدوك فاقدًا للوعي في الحديقة. هل رقَّ قلب الشرير لتوسلات المرأة؟

– لا أعتقد ذلك، فأنا لم أرَ وجهًا بمثل قسوته في حياتي.

قال برادستريت: أوه، سيتضح كل شيء سريعًا. حسنًا، لقد رسمت دائرتي، والمتبقي فقط أن نعرف في أي نقطة يقع من نبحث عنهم.

قال هولمز بهدوء: أظن أن بإمكاني الإشارة إلى ذلك المكان.

فصاح المفتش مندهشًا: حقًّا؟ الآن! هل كوّنت رأيك؟ أخبرنا به إذن، لنرَ من سيتفق معك في الرأي. أنا أقول إنه في الجنوب لأن الريف أكثر عزلة هناك.

فقال مريضي: وأنا أقول إنه في الشرق.

فقال الرجل ذو الملابس البسيطة: وأنا أقول إنه في الغرب، فهناك عدة قرى هادئة هناك.

أما أنا فقلت: وأنا مع الشمال لأنه لا يوجد تلال هناك، وصديقنا هنا قال إنه لم يلاحظ صعود العربة على أي منحدر.

فصاح المفتش ضاحكًا: هيا، لقد اختلفنا جميعًا في الرأي. لقد جمعنا اتجاهات البوصلة الأربعة فيما بيننا، فمن سترجّح رأيه؟

– كلكم مخطئون.

– لا يمكن أن نكون جميعًا مخطئين.

– أوه، نعم، يمكن ذلك. هذه هي نقطتي. هذا هو المكان الذي سنجدهم فيه.

قالها وهو يضع إصبعه على مركز الدائرة. فصاح هاثرلي مصدومًا: لكن ماذا عن الاثني عشر ميلًا؟

– ستة أميال ذهابًا، وستة أميال إيابًا بمنتهى البساطة. لقد قلت بنفسك إن الحصان كان منتعشًا ولامعًا عندما وصلت. كيف يمكن أن يكون هذا مظهره لو قطع لتوّه اثني عشر ميلًا على طرق وعرة؟

علّق المفتش برادستريت مستغرقًا في تفكيره: إنها خدعة محتملة بالفعل، ونشاط هذه العصابة مفهوم تمامًا.

فقال هولمز: بالطبع، إنهم مجرمون على نطاق واسع، وقد استخدموا الملغم[4] ليستبدلوا به الفضة.

فقال المفتش: لقد عرفنا بأمر هذه العصابة الماهرة منذ فترة، وتتبعناهم حتى ريدنج، لكننا لم نستطع أن نتعمق أكثر من ذلك، فلقد أخفوا آثارهم بشكل يوحي بأنهم خبراء في هذا المجال، لكن الآن وبفضل هذه الفرصة، أعتقد أننا تمكنّا منهم.

ولكن المفتش كان مخطئًا، فهؤلاء المجرمون لم يكن مُقدرًا لهم أن يسقطوا في أيدي العدالة. فعندما وصلنا إلى محطة قطار أيفورد، رأينا عمودًا ضخمًا من الدخان يتصاعد خلف مجموعة من الأشجار في المنطقة، ويقف مُعلقًا في الهواء كريشة طائر عملاق، فسأل برادستريت رئيس المحطة والقطار يتحرك مرة أخرى في طريقه: منزل محترق؟

فأجاب رئيس المحطة: نعم يا سيدي!

- متى اندلع الحريق؟

- سمعت أنه اندلع في الليل يا سيدي لكنه انتشر حتى التهم المكان بأكمله.

- ولمن هذا المنزل؟

- إنه ملك دكتور بيتشر.

فتدخل المهندس: أخبرني، هل دكتور بيتشر ألماني نحيف للغاية بأنف مدببة؟

فضحك رئيس المحطة بحرارة قائلًا: لا يا سيدي، دكتور بيتشر رجل إنجليزي، ولا يوجد في القرية من هو أسمن منه، لكن هناك مريض أجنبي يقيم عنده كما فهمت، ويبدو أن بعض لحم بيركشاير لن يضرّه.

لم يكد رئيس المحطة ينهي كلمته حتى اندفعنا مسرعين باتجاه الحريق. كان المبنى على تل منخفض، وعندما اقتربنا وجدنا مبنى أبيض كبيرًا جدًّا أمامنا، تشتعل النار في كل نافذة وشق فيه، بينما في الحديقة الأمامية كافح ثلاثة رجال إطفاء عبثًا في محاولة إخماد الحريق.

صاح هاثرلي بانفعال شديد: هذا هو! ها هو الطريق المفروش بالحصى، وها هي شجيرات الورود التي رقدت تحتها، وها هي النافذة الثانية التي قفزت منها.

قال هولمز: حسنًا، على الأقل لقد حصلت على ثأرك منهم. فلا شك أن مصباح الزيت الخاص بك والذي تحطم في المكبس أشعل النيران في الجدران الخشبية، ولا شك أنهم كذلك كانوا منفعلين خلال مطاردتهم لك، ولم يلحظوا ذلك في الوقت المناسب. والآن افتح عينيك وابحث عن أصدقاء الليلة السابقة وسط الحشد رغم أنني أخشى أنهم أصبحوا على بُعد مئات الأميال الآن.

ولقد تحققت مخاوف هولمز، فمنذ ذلك اليوم لم يسمع أحد عن تلك المرأة الجميلة أو الألماني الشرير أو الإنجليزي الكئيب. ففي الصباح الباكر قابل الفلاحون عربة فيها أشخاص وصناديق ضخمة تسرع باتجاه ريدنج، وهناك اختفت آثار الهاربين بشكل كامل، وحتى براعة هولمز فشلت في اكتشاف أي دليل على مكانهم.

احتار رجال الإطفاء أمام الترتيبات الغريبة التي وجدوها في المنزل، وزادت حيرتهم عندما اكتشفوا إبهامًا بشريًّا قُطع حديثًا على نافذة الطابق الثاني. وعند الغروب تقريبًا تكلل مجهودهم بالنجاح عندما استطاعوا إخماد النيران، لكن ليس قبل أن يسقط السقف ويدمر المكان بالكامل، إلّا من بعض الأسطوانات الملتوية والأنابيب الحديدية، ولم يتبقَ أي أثر من الآلة التي كلّفت رفيقنا التعِس الكثير. وتم

العثور على كميات كبيرة من النيكل والقصدير مُخزّنة في ملحق خارجي وإن لم يجدوا أي عملات معدنية، وهو الأمر الذي يوضّح مهمة الصناديق الضخمة التي تمّت الإشارة إليها من قبل.

وكانت لتظل الطريقة التي نُقل بها المهندس من مكانه إلى البقعة التي استعاد فيها وعيه لغزًا للأبد، لولا التراب الناعم الرطب الذي أخبرنا بقصته في منتهى البساطة. فقد حمله شخصان بالتأكيد، أحدهما كان بقدمين صغيرتين للغاية، والآخر بقدمين شديدتي الضخامة. فمن المُرجح أن الرجل الإنجليزي الصامت أقل شجاعة أو إجرامًا من رفيقه، وقد ساعد المرأة على نقل الرجل الغائب عن الوعي بعيدًا عن الخطر.

قال المهندس ونحن جالسون في مقاعدنا عائدين مرة أخرى إلى لندن: حسنًا، لقد كانت وظيفة رائعة للغاية! فقدت إبهامي وخسرت أجرًا يبلغ خمسين جنيهًا، وماذا استفدت؟

فقال هولمز ضاحكًا: الخبرة.. قد يكون لها قيمة غير مباشرة كما تعلم. ما عليك سوى أن تقصّ حكايتك لتكتسب سمعة تدوم طول حياتك بأن مرافقتك مُسلية.

تراب القَصر: هو نوع من الطين مُتعدد الاستخدام، حيث يُستخدم في معالجة وتنقية المواد البترولية، أو تنقية الزيوت النباتية والحيوانية؛ نظرًا لقدرته العالية على الامتصاص.

الملغم: هي سبيكة تتكون من الزئبق والفضة والقصدير والنحاس وبعض المعادن بنسب بسيطة، وتُستخدم في حشوات طب الأسنان منذ خمسمئة عام تقريبًا.

مغامرة العصابة الرقطاء

حين ألقيت نظرة خاطفة على السبعين قضية الغريبة، والتي من خلالها وعلى مدى ثماني سنوات مضت، قمت بدراسة أساليب صديقي شيرلوك هولمز، وجدتُ الكثير منها مأساويًّا، بعضها كوميدي، والعديد منها غريب أيضًا، لكن لم يكن من بينها قضية عادية. ونظرًا لأنه قام بما أنجزه حبًّا في العمل لا جمعًا للثروات، فلم يقبل العمل في أي تحقيق لا يتسم بالغرابة والعجب. ورغم كل هذه القضايا المتنوعة، لا يمكنني أن أتذكر قضية فيها من السمات الفريدة أكثر من قضية عائلة رويلوت الشهيرة من ستوك موران بمقاطعة سري.

وقعت أحداث هذه القصة في بداية تعرُّفي بهولمز، عندما كنا نعيش كعازبين في نفس المنزل في شارع بيكر. كان بإمكاني تدوينها في حينها لولا قسم قطعناه بإبقاء الأمر سرًّا حينئذ، ولم أتحرر منه إلا في الشهر الماضي عند الوفاة المفاجئة للسيدة التي قطعنا لها وعدنا. ربما من الأفضل أن أكشف الحقائق الآن، حيث نما إلى علمي انتشار شائعات بخصوص وفاة دكتور جريميسبي رويلوت تُبدي الأمور أسوأ من حقيقتها.

بدأ الموضوع في شهر أبريل عام 1883، حيث استيقظت ذات صباح لأجد هولمز واقفًا إلى جوار سريري وقد ارتدى ملابسه بكاملها، وكان قد اعتاد الاستيقاظ متأخرًا ويعتبر هذه العادة إحدى قواعده، فنظرت إلى الساعة الموضوعة فوق رف الموقد ووجدت أنها لم تتعدَّ السابعة والربع صباحًا، فنظرت إلية بدهشة وربما بشيء من الاستياء، إذ إنني كنت أيضًا منتظمًا في عاداتي.

قال لي: «أعتذر منك يا واتسون؛ لأنني أيقظتك، لكنه حظنا المشترك هذا الصباح، فقد استيقظت السيدة هادسون وهرعت إليّ، لذا هرعت إليك».

– ما الأمر إذًا؟ حريق؟

– لا، بل عميل. يبدو أن سيدة شابة قد وصلت في حالة من الإثارة الشديدة وتُصر على مقابلتي، وهي الآن في غرفة الجلوس تنتظر. وعندما تسير سيدة شابة في العاصمة في هذه الساعة من الصباح وتوقظ أناسًا نائمين، فأتصوّر أن أمرًا مُلِحًّا ما دعاها إلى الإبلاغ عنه، لذا فأنا متأكد أن الأمر مثير للاهتمام، وأنك سترغب في متابعته من بدايته، وظننت أن من واجبي على أية حال أن أمنحك هذه الفرصة.

– ما كنت لأفوت فرصة كهذه يا صديقي العزيز.

لم أجد ما يسعدني أكثر من متابعة تحقيقات هولمز وإعجابي باستنتاجاته السريعة التي تخرج بسرعة الأفكار البدهية، برغم كونها مبنية دائمًا على أساس منطقي يستخدمه في حل المشكلات التي توكل إليه. ارتديت ملابسي سريعًا وكنت مستعدًّا في غضون دقائق لاصطحاب صديقي لغرفة الجلوس بالأسفل. قامت لاستقبالنا سيدة متشحة بالسواد تغطي وجهها تمامًا، كانت تجلس بجوار النافذة عندما دخلنا.

قال هولمز بمرح: «صباح الخير سيدتي، اسمي شيرلوك هولمز وهذا صديقي العزيز وزميلي الدكتور واتسون، بإمكانك الحديث أمامه بحرية مثلما تتحدثين إلي. ها، يسعدني أن السيدة هادسون لديها حس جيد فأشعلت النار. من فضلك اقتربي منها وسأجلب لك كوبًا من القهوة الساخنة، إذ أراك ترتجفين».

قالت السيدة وهي تبدِّل مقعدها كما طلب منها هولمز: «ليس البرد ما يجعلني أرتجف».

– مم ترتجفين إذًا؟

فقالت: «إنه الخوف يا سيد هولمز، إنه الرعب!» قالت ذلك وهي تكشف وجهها فرأينا أنها بالفعل في حالة يرثى لها، وجهها شاحب والخوف بادٍ في عينيها كما يبدو في عين فريسة مطاردة. كانت ملامحها وهيئتها تخبران بأنها في نحو الثلاثين من عمرها، لكن شعرها يتخلله الشيب والتعب والإرهاق باديان عليها. تفحصها هولمز بنظراته السريعة الشاملة، وقال وهو يربت على ساعدها لكي يُطمئنها: «لا تخافي، فأنا على يقين من أننا سنعيد الأمور لمسارها الصحيح قريبًا. لقد أتيتِ بالقطار هذا الصباح كما أرى».

– أنت تعرفني إذًا!

– لا، لكنني لاحظت نصف تذكرة عودة في راحة قفازك الأيسر. يبدو أنك انطلقت باكرًا، كما أنك قطعت مسافة بعربة تجرها الكلاب في طرق وعرة قبل وصولك محطة القطار.

انتفضت السيدة ونظرت إليه بذهول. فقال هولمز مبتسمًا: «الأمر ليس لغزًا يا سيدتي الفاضلة. فالذراع اليسرى لمعطفك ملطخة في سبعة مواضع على الأقل. البقع حديثة جدًّا، ولا توجد مركبة تبعثر الوحل على هذا النحو سوى عربة تجرها الكلاب، وهذا لا يحدث إلا لو جلست على يسار قائد العربة».

– أيًّا كانت أسبابك فأنت على صواب تمامًا، فقد بدأت رحلتي من المنزل قبل السادسة وذهبت إلى ليذرهيد في السادسة والثلث، ووصلت إلى هنا في أول قطار متجه إلى ووترلو. سيدي أنا لا أطيق الأمر أكثر من ذلك، سأجن إن استمر على هذا النحو، وليس لدي أحد ألجأ إليه سوى صديق مسكين لا يقدر على تقديم الكثير. سمعت عنك يا سيد هولمز من السيدة فارينتوش التي ساعدتَها عندما كانت في أمس الحاجة للمساعدة، فأخذت عنوانك منها. يا سيدي، أتظن أن بإمكانك مساعدتي أيضًا؟ على الأقل لو تُلقي بعض الضوء في الظلام المحيط بي؟ لا أستطيع مكافأتك حاليًّا نظير خدماتك، لكنني سأتزوج خلال شهر أو ستة أشهر، وسيكون لي دخلي الخاص. عندها لن تجدني أنكر معروفك».

استدار هولمز وفتح مكتبه وأخرج منه مذكرة القضايا التي عمل عليها، وقال: «آه فارينتوش، نعم تذكرت القضية، كانت تتعلق بتاج من العقيق. أعتقد أنها كانت قبل معرفتي بك يا واتسون، لا يسعني أن أقول لكِ يا سيدتي سوى أنني سأكون سعيدًا باهتمامي بقضيتك بقدر قضية صديقتك. أما بخصوص المكافأة فعملي نفسه هو المكافأة. لكن لك الحرية في دفع أية نفقات ألتزم بها في الوقت الذي يناسبك. والآن رجاءً أن تخبرينا بكل شيء يساعدنا في تكوين رأي في المسألة».

ردت الضيفة قائلة: «للأسف، المعضلة التي تواجهني الآن هي كون مخاوفي مبهمة تمامًا، وشكوكي مبنية بالكامل على نقاط صغيرة متفرقة، وقد تبدو تافهة لشخص آخر، حتى إن الشخص الوحيد الذي استطعتُ اللجوء إليه لمساعدتي ونصحي ظن أنها مجرد أوهام امرأة متوترة. لم يقل هذا، لكنني استنبطتُ ذلك من إجاباته الهادئة وعينيه اللتين أشاح بهما عني. ولكني سمعتُ يا سيد هولمز أنك تستطيع رؤية الشر المستتر في سريرة الناس. ربما تستطيع نصحي كيف أسير وسط الأخطار المحدقة بي».

قال هولمز: «كلي آذان مصغية يا سيدتي».

فقالت السيدة: «اسمي هيلين ستونر، أعيش مع زوج أمي، وهو آخر الناجين من إحدى أقدم العائلات الساكسونية في إنجلترا، عائلة رويلوتس من مقاطعة ستوك موران على الحدود الغربية لمدينة سري».

أومأ هولمز برأسه قائلًا: «الاسم مألوف لي».

قالت: «كانت هذه العائلة إحدى أغنى عائلات إنجلترا ذات يوم، وامتدت مقاطعاتها عبر الحدود وصولًا إلى بيركشاير في الشمال، وهامبشاير في الغرب. تعاقب في العائلة أربعة ورثة كانت لديهم نزعة المجون والتبذير، وانهارت الأسرة تمامًا على يد مقامر في عهد الوصاية على العرش. لم يبقَ سوى بضعة أفدنة من الأراضي ومنزل عمره مئتا عام، مرهون بمبلغ كبير، حيث قضى آخر إقطاعي حياته فيه بمرارة أرستقراطي فقير. لكن ولده الوحيد، وهو زوج أمي كما أسلفت، أدرك أنه عليه أن يتكيف مع الظروف، فحصل على دعم من أحد أقاربه استطاع به الحصول على درجة علمية في الطب، وذهب إلى كاليكوتا حيث استطاع بمهاراته المهنية وقوة شخصيته أن يؤسس عيادة هناك. وفي إحدى نوبات غضبه التي حدثت بسبب سرقات تعرض لها في منزله، اعتدى على كبير الخدم الهندي بالضرب حتى تسبب في وفاته، وبالكاد أفلت من عقوبة الإعدام، لكنه قضى مدة عقوبة طويلة في السجن وعاد إلى إنجلترا مكتئبًا ومحبطًا. وأثناء وجوده في الهند، تزوج الدكتور رويلوت من والدتي، السيدة ستونر، الأرملة الشابة للواء ستونر قائد المدفعية البنجالية. كنا أنا وأختي جوليا توأمتين، وكنا في سن سنتَين حين تزوجت أمي الدكتور رويلوت. كان لديها دخل جيد لا يقل عن ألف جنيه إسترليني في العام، وضعته بالكامل تحت تصرف الدكتور رويلوت حين أقمنا معه، شريطة أن تحصل كل منا على مبلغ سنوي عند زواجنا. توفيت والدتي بعد عودتنا لإنجلترا بوقت قصير، وكانت قد ماتت في حادث قطار قرب مدينة كرو قبل ثمانية أعوام. حينها توقف الدكتور رويلوت عن محاولاته إثبات نفسه في عمله بلندن، وأخذنا أنا وأختي للإقامة معه في منزل أجداده القديم في مدينة ستوك موران. كان المال الذي تركته أمي كافيًا لسد كافة احتياجاتنا، وبدا أن طريق السعادة سيمضي بنا دون عوائق. لكن طرأ تغير سيئ على زوج أمنا، فبدلًا من تكوين الصداقات وتبادل الزيارات مع جيراننا، الذين بدوا في بداية الأمر سعداء لرؤية فرد من عائلة رويلوت في مكانهم القديم في مدينة ستوك موران، انكفأ على نفسه داخل المنزل ولم يخرج إلا نادرًا لينخرط فقط في مشاجرات مع أي شخص يعترض طريقه. فالعنف الدائم الذي يصل لحد الجنون طبع وراثي في رجال عائلته، وفي حالة زوج أمي على وجه التحديد، تفاقم الأمر بسبب إقامته في مناطق استوائية. حدثت عدة مشاجرات مخزية، انتهت مشاجرتان منها في قسم الشرطة، حتى صار في النهاية مصدر رعب للقرية يفر الناس كلما اقترب منهم، فقد كان ذا قوة هائلة ولا يتحكم أبدًا في أعصابه. وخلال الأسبوع الماضي، دفع حداد القرية من أعلى حافة فسقط في مجرى مائي، ولم أتمكن من منع فضيحة أخرى إلا بدفع كل ما استطعت الحصول عليه من المال لإنهاء المسألة. لم يكن لديه أصدقاء إلا جمعًا من الغجر المتشردين سمح لهم بالتخييم في الأفدنة القليلة التي تمتلكها العائلة مقابل استضافتهم له في خيامهم والترحال بصحبتهم في بعض الأحيان لمدة أسابيع. كما أن لديه شغفًا بالحيوانات الهندية التي يرسلها له شخص يراسله. ولديه الآن فهد وقرد بابون يتجولان بحرية في أراضيه، ويخاف منهما الأهالي كما يخافون من مالكهما. بإمكانك أن تتخيل كيف لم نحظَ أنا وأختي

المسكينة بأقل قدر من السعادة في حياتنا. لا يقبل خادم بالمكوث معنا لوقت كبير، لذا قمت أنا وهي بجميع الأعمال المنزلية. ولم تكن قد جاوزت الثلاثين حين وافتها المنية وقد شاب شعرها مثلي تمامًا».

– إذًا توفيت أختك؟

– توفيت منذ عامين، وبسبب وفاتها أردت التحدث إليك. يمكنك أن تفهم أن الحياة التي وصفتُها لك منعتنا من التعرف إلى أشخاص في نفس عمرنا ومكانتنا، غير أن لنا خالةً غير متزوجة، اسمها الآنسة أونوريا ويستفيل، تعيش بالقرب من مدينة هارو، وكان مسموحًا لنا بزيارات قصيرة لمنزلها من حين لآخر. ذهبت جوليا إلى هناك في عيد الميلاد منذ عامين. والتقت هناك برائد في البحرية يتقاضى نصف أجر وتمت خطبتها إليه. علم زوج أمي بأمر الخطبة عند عودة أختي ولم يُبدِ أي اعتراض على الزواج. لكن قبل اليوم المحدد للزفاف بأسبوعين، وقعت الحادثة المريعة التي حرمتني من رفيقتي الوحيدة.

أسند هولمز ظهره على كرسيه وأغلق عينيه، فغاصت رأسه في مسند الرأس وانفرجت شفتاه قليلًا، وأمعن النظر في ضيفته قائلًا: «من فضلك كوني دقيقة في سرد التفاصيل».

قالت: «يسهل علي ذلك، إذ إن كل حدث في هذا الوقت المرير محفور في ذاكرتي. إن المنزل كما أخبرتكما قديم جدًّا وغير مسكون عدا جناح واحد. تقع غرف النوم في هذا الجناح بالدور الأرضي، بينما توجد غرف الجلوس في منتصف المبنى. أول الغرف هي غرفة الدكتور رويلوت، والثانية لأختي، والثالثة لي، ولا يوجد رابط بينها ولكنها تطل جميعًا على الممر نفسه، هل سردي واضح؟»

– واضح جدًّا.

– نوافذ الغرف الثلاث تطل على الحديقة. وفي تلك الليلة المشؤومة ذهب الدكتور رويلوت لغرفته مبكرًا عن المعتاد، وعرفنا بأنه لم يذهب إليها بغرض النوم، فقد كانت أختي تنزعج من رائحة السيجار الهندي الذي يدخنه. لذلك تركت غرفتها وجاءت لغرفتي وجلسَت لبعض الوقت تحدثني عن زفافها المزمع قريبًا. وفي الحادية عشرة نهضَت لكي تغادر غرفتي، لكنها وقفت عند الباب والتفتت إليّ وقالت: «أخبريني يا هيلين، هل سمعتِ صوت أحد يصفر في الليل الحالك؟ فأجبتها: «لا أبدًا»، فقالت: «أعتقد أنه لا يمكنك الصفير أثناء نومك».

فقلت: «بالطبع لا، لكن لماذا؟»

قالت: «لأنني في الأيام القليلة المنصرمة وفي تمام الثالثة بعد منتصف الليل، أسمع صوت صفير هادئ وواضح، ولأن نومي خفيف كان الصوت يوقظني دون أن أعرف مصدره، ربما يصدر من الغرفة المجاورة، أو من الحديقة، ففكرت أن أسألك إن كنتِ قد سمعتِه».

فقلت: «لا، لم أسمعه. لا بد أنه صادر من الغجر البائسين في الحقول».

قالت: «احتمال كبير، لكن إن كان صادرًا من الحديقة فلماذا لم تسمعيه أيضًا؟»

قلت: «لأن نومي أعمق من نومك».

قالت: «حسنًا، على أية حال فالأمر ليست له عواقب وخيمة».

وابتسمت لي وأغلقت الباب ومضت، لكن بعدها بدقائق سمعتها تغلق الباب بالمفتاح».

قال هولمز: «بالطبع. هل اعتدتما قفل الباب بالمفاتيح أثناء الليل؟»

– نعم دائمًا.

– لماذا؟

– أظن أنني ذكرت لك أن الدكتور يحتفظ بفهد وقرد بابون. لم نكن نشعر بالأمان إلا إذا أوصدنا الأبواب.

– الأمر كذلك إذًا، من فضلك تابعي حديثك.

– جافاني النوم هذه الليلة. انتابني شعور غامض بالتشاؤم. وكما تعلم فثمة روابط تجمع روحين بهذه الصلة الوثيقة. كانت ليلة موحشة، فالرياح كانت تعصف بالخارج والأمطار تضرب النوافذ. وفجأة، وسط كل هذا الصخب، انطلقت صرخة مدوية لامرأة مذعورة. علمت أنه صوت أختي، فانتفضت من سريري والتحفت برداء واندفعت نحو الطرقة. وعندما فتحت باب غرفتي سمعت صوت صفير خافت كالذي وصفته أختي، وبعد دقائق سمعنا صوت رنين كأنه لقطعة معدنية تسقط على الأرض. وحين ركضت إلى نهاية الممر وجدت باب غرفة أختي مفتوحًا ويتأرجح ببطء، فنظرت والخوف يعتريني ولا أدري ما الذي أنتظر أن يخرج منه. وفي نور مصباح الطرقة رأيت أختي من فتحة الباب، على وجهها سيماء الهلع، ويداها تمتدان طلبًا للعون وجسدها يترنح كما السكارى. هرعت إليها وأحطتها بذراعيّ، لكن يبدو أنها في نفس اللحظة لم تعد تتحمل الوقوف، فسقطت وصارت تتلوى كمَن يعاني من ألم رهيب، كما تشنجت أطرافها بطريقة مرعبة. في البداية ظننتها لم تعرفني، لكن حين انحنيتُ تجاهها صرخَت بصوت لا أستطيع نسيانه، وقالت: «يا إلهي يا هيلين، إنها العصابة، عصابة الرقطاء!» كان ثمة شيء آخر أرادت أن تقوله وأشارت بإصبعها ناحية غرفة دكتور رويلوت، لكنها اختنقت ولم تستطِع الحديث. اندفعتُ إلى الخارج لكي أنادي زوج أمي فقابلته وهو يخرج مسرعًا من غرفته مرتديًا ملابس النوم، وحين وصل لغرفة أختي كانت قد فقدت الوعي، وبرغم سكبه لبعض الخمر بداخل حلقها وإرساله في طلب المساعدة الطبية من القرية، فإن ذلك كله ذهب دون جدوى، فقد تدهورت حالتها ببطء وماتت دون استعادة وعيها. كانت هذه هي النهاية المروعة لأختي الحبيبة.

قال هولمز: «لحظة واحدة، هل أنت متأكدة بخصوص صوت الصفير وصوت ارتطام المعدن؟ هل كنتِ لتقسمين على ذلك؟»

فقالت: «هذا ما سألني عنه محقق الوفيات في المقاطعة أثناء التحقيق، وإن لدي يقينًا ثابتًا بأنني سمعته بالفعل، لكنني أعاود الظن بأنني ربما تعرضت للخداع وسط هبوب الريح وصرير أبواب المنزل القديم».

– هل كانت أختك تلبس ملابس الخروج؟

– لا، كانت بملابس النوم. كان في يدها اليمنى عود ثقاب محترق وفي يسراها علبة ثقاب.

– هذا يشير لكونها قد أشعلت الضوء ونظرت حولها حين وقع ما أرعبها. إنه أمر مهم. وما النتائج التي توصل إليها المحقق؟

– لقد حقق في القضية بعناية بالغة، نظرًا لأن سلوك الدكتور رويلوت ملحوظ في المقاطعة منذ فترة، لكنه لم يصل لسبب مقنع للوفاة. أفادت شهادتي بأن باب الغرفة كان موصدًا من الداخل، وأن النوافذ مزودة بمصاريع قديمة وقضبان حديدية عريضة، وكانت تُقفل كل ليلة. خضعت الجدران للفحص وتبين أنها متينة من جميع النواحي، كما قاموا بفحص الأرضيات فكانت النتيجة نفسها. مدخنة المدفأة واسعة، لكنها مغلقة بأربعة أوتاد كبيرة. وبذلك تم التأكد من أن أختي كانت بمفردها بداخل الغرفة حين لقيت حتفها. كما أنه لم يكن بها أي آثار للعنف.

– هل كان ثمة أثر للسم؟

– فحصها الأطباء لأجل هذا السبب ولم يجدوا شيئًا.

– في رأيك، ماذا قد يكون سبب وفاة هذه الشابة المسكينة إذًا؟

– أعتقد أنها ماتت نتيجة الخوف الشديد والصدمة العصبية، رغم عدم معرفتي بما سبب لها هذا القدر من الخوف.

– أكان هناك غجر في الحديقة آنذاك؟

– نعم، فدائمًا يكون البعض منهم هناك.

– آه، وماذا فهمتِ من الإشارة إلى العصابة، عصابة الرقطاء؟

– أحيانًا أقول إنه مجرد هذيان، وأحيانًا أقول إنها قد تكون جماعة ما، ربما أولئك الغجر في الحقول. لا أعلم إذا ما كانت عصابات الرأس المرقطة التي يرتديها العديد من الغجر هي ما أوحى إليها باستخدام هذا الوصف الغريب.

هز هولمز رأسه كمن لم يصل لقناعة بعد، وقال: «هذه أمور شائكة جدًّا. من فضلك تابعي حديثك».

فقالت: «مر عامان على الحادث، وصارت حياتي تغوص في وحدة لم أعهدها من قبل حتى وقت قريب. فقبل شهر شرفني صديق عزيز أعرفه منذ سنوات عديدة بطلب يدي للزواج. اسمه أرميتاج – بيرسي أرميتاج– الابن الثاني للسيد أرميتاج من مدينة كرين ووتر بالقرب من ريدينج. لم يبد زوج أمي أي اعتراض على الزواج، واتفقنا على عقد القران في الربيع. ومنذ يومين بدأت أعمال الصيانة للجناح الغربي من المبنى، وحدث ثقب في جدار غرفتي، لذلك اضطررت إلى الانتقال للغرفة التي لاقت أختي فيها حتفها والنوم على سريرها. تخيل مقدار الخوف الذي اجتاحني في الليلة الماضية، حيث كنت مستلقية أفكر في مصيرها البشع، وفجأة سمعت في صمت الليل صوت الصفير الهادئ الذي كان نذير موتها. انتفضت وأشعلت المصباح، لكن لم يكن هناك شيء في الغرفة. ورغم ذلك منعني الخوف من النوم، لذلك ارتديت ملابسي، ومع بزوغ أول ضوء للفجر تسللت إلى الخارج وأخذت عربة تجرها الكلاب من نُزل كراون قبالة المنزل، وانطلقت إلى ليذرهيد. ومن هناك أتيت هذا الصباح لغرض واحد هو رؤيتك وطلب نصيحتك».

فقال صديقي: «خيرًا فعلتِ. لكن، هل أخبرتني بكل شيء؟»

– نعم، كل شيء.

– لا يا آنسة رويلوت لم تفعلي، فأنت تتسترين على زوج أمك.

– لماذا؟ ماذا تقصد؟

ولكي يجيب هولمز، أزاح حافة الكم المزخرفة بالدانتيل الأسود المحيط بمعصم الزائرة المسنود على ركبتها، فظهرت خمس علامات زرقاء صغيرة، آثار أربعة أصابع وإبهام مطبوعة على رسغها الأبيض.

قال هولمز: «لقد تعرضت لعنف بالغ».

تغير لونها تمامًا وغطت ساعدها المصاب وقالت: «إنه رجل فظ، وبالكاد يدرك مدى قوته».

سادت أجواء طويلة من الصمت أسند خلالها هولمز رأسه إلى يديه، وحدق طويلًا في النار المشتعلة، وأخيرًا قال: «إنه أمر في غاية الخطورة، وهناك ألف تفصيلة ينبغي عليّ معرفتها قبل تحديد ما يمكن أن نفعله. لكن ليس لدينا وقت لكي نضيعه. إذا استطعنا الوصول إلى ستوك موران اليوم، فهل يمكننا تفقد هذه الغرف دون معرفة زوج أمك؟»

– لقد تحدث بالصدفة عن مجيئه إلى المدينة اليوم للقيام ببعض الأعمال بالغة الأهمية، ومن المحتمل أن يبقى غائبًا عن المنزل طوال اليوم، وبذلك لن يكون هناك ما يزعجك. ولدينا الآن مدبرة منزل، لكنها عجوز وحمقاء، وبإمكاني إزاحتها بسهولة عن الطريق.

– عظيم، أنت لا تمانع في الذهاب لهذه الرحلة يا واتسون؟

– على الإطلاق.

– إذًا كلانا سيأتي، وماذا ستفعلين أنتِ؟

– هناك أمر أو اثنان أود القيام بهما طالما أني في المدينة. لكني سأعود في قطار الساعة الثانية عشرة حتى أكون هناك قبل ميعاد وصولكما.

– توقعي قدومنا مبكرًا بعد الظهر، فأنا أيضًا لدي بعض الأمور التي عليّ إنجازها، ألن تنتظري الفطور؟

– لا، عليّ أن أذهب، فقلبي تملَّكه الأمل بعدما أسررت إليك بمأساتي. أتطلع إلى رؤيتكما بعد الظهيرة.

غطت وجهها بالخمار الأسود السميك وخرجت بهدوء من الغرفة.

سألني هولمز وهو مستلق على كرسيه: «ما استنتاجاتك مما سمعت يا واتسون؟»

– يبدو لي أنه عمل مظلم ومشؤوم.

– مظلم ومشؤوم جدًّا. ومع ذلك فلو صدقت السيدة في قولها إن الأرضيات والجدران سليمة، وأن الباب والنافذة والمدخنة لا يمكن المرور من خلالها، فإن أختها كانت وحدها دون شك حين لاقت نهايتها الغامضة.

– وماذا عن تلك الصافرات الليلية إذًا، والكلمات الفريدة التي قالتها المرأة المحتضرة؟

– لا فكرة لدي. عندما تربط موضوع الصفير أثناء الليل مع وجود حفنة من الغجر على علاقة بالطبيب العجوز، وحقيقة أن للطبيب كل الأسباب والمصلحة في منع زواج ابنة زوجته الراحلة، وهذيان ما قبل الموت عن عصابة ما، وأخيرًا حقيقة سماع السيدة هيلين ستونر جلجلة معدن ما، والتي من

الممكن أن تكون نتيجة لإعادة أحد القضبان المعدنية التي تغلق المصاريع إلى مكانه. أعتقد أن لدينا دافعًا جيدًا للاعتقاد بأن حل هذا اللغز يأتي من هذه الخيوط.

– لكن ماذا إذًا؟ أتعني أن الغجر قد فعلوها؟

– لا يسعني التخيل.

– لدي الكثير من الاعتراضات على أي نظرية من هذا النوع.

– وكذلك أنا، ولهذا السبب بالتحديد سنذهب إلى ستوك موران اليوم. أود أن أعرف إذا ما كانت الاعتراضات صحيحة أو يمكن استبعادها. لكن ما هذا بحق الشيطان؟!

صدر هذا الصياح من صديقي عندما دفع شخص ما باب غرفتنا فجأة بعنف شديد، وظهر أمامنا رجل ضخم أمام عتبة الباب. كانت ملابسه مزيجًا بين ملابس المهنيين والمزارعين، ويعتمر قبعة عالية سوداء، ويرتدي معطفًا طويلًا مشقوق الذيل وزوجًا من الأحذية ذات الرقبة العالية، ويتدلى من يده سوط طويل. كان طويلًا جدًّا حتى إن قبعته ارتطمت بعارضة باب الغرفة، وبدا أنه قد سدَّ فراغ الباب بأكمله. كما كان وجهه ضخمًا ومليئًا بآلاف التجاعيد، وتغلب عليه الصفرة من كثرة التعرض للشمس، وعليه سيماء الشر بكاملها دون نقصان. كان يقلب وجهه بيني وبين صديقي، وقد جعلته عيناه الغائرتان الصفراوان، وأنفه النحيل وذقنه البارز، يبدو كطائر جارح عجوز.

سأل هذا الشبح: «أي منكما هولمز؟»

فقال صديقي بهدوء: «أنا، وقد حان دورك الآن حتى تُعرفنا بك».

– أنا الدكتور جريميسبي رويلوت من ستوك موران.

فقال هولمز بلطف: «بالفعل دكتور، اجلس من فضلك».

– لا لن أفعل، فابنة زوجتي كانت هنا، لقد تتبعتها. ما الذي كانت تخبرك إياه؟

قال هولمز: «الجو بارد في هذا الوقت من السنة».

صرخ العجوز بعنف: «ماذا قالت لك؟»

واصل صديقي حديثه بنفس الهدوء وقال: «لكنني سمعت أن الزعفران ينمو جيدًا».

تقدم زائرنا الجديد خطوة إلى الأمام ملوحًا بسوطه، وقال: «ها، أنت تراوغني أنا؟ أنا أعرفك أيها الوغد، فقد سمعت عنك من قبل. أنت هولمز المتطفل».

ابتسم صديقي وقال: «هولمز الفضولي»، ثم اتسعت ابتسامته واستطرد: «هولمز محقق سكوتلاند يارد».

انفجر هولمز ضاحكًا واستمر يقول: «حديثك ممتع جدًّا، عندما تخرج أغلق الباب وراءك فثمة تيار هواء شديد يدخل منه».

– سأذهب حين أقول ما عندي، إياك أن تجرؤ على التدخل في شؤوني الخاصة. أعرف أن الآنسة ستونر كانت هنا. وأقول لك إنني رجل خطير جدًّا حالما أغضب. انظر!

ثم تقدم بسرعة إلى الأمام واستلَّ قضيب المدفأة وثناه بيديه البنيتين الكبيرتين، وقال بضراوة: «أبقِ نفسك بعيدًا عن قبضتي»، وألقى بالقضيب المثنيّ بداخل المدفأة وأسرع خارجًا من الغرفة.

ضحك هولمز وقال: «يبدو شخصًا ودودًا للغاية، أنا لست ضخمًا مثله، لكنه لو بقي قليلًا لربما أريتُه أن قبضتي ليست أضعف بكثير من قبضته». وبينما كان يتحدث التقط القضيب وفرده مجددًا بقوة غير متوقعة.

– تخيل أن وقاحته مكَّنته من وصفي بالمحقق الرسمي. هذه الواقعة تضفي حماسًا على تحقيقنا، رغم ذلك أتمنى ألا تعاني صديقتنا الصغيرة من حماقتها وسماحها لهذا الهمجي بتعقبها. والآن يا واتسون سنطلب الفطور، ومن ثم نذهب لمجمَّع الأطباء حيث أتمنى الحصول على بعض البيانات التي تخص هذه المسألة.

كانت الساعة تقارب الواحدة ظهرًا، حين عاد شيرلوك هولمز من جولته حاملًا في يده ورقة زرقاء مليئة بالملاحظات والأرقام.

قال هولمز: «لقد اطَّلعت على وصية الزوجة المتوفاة، ولتحديد معناها الدقيق اضطررت إلى تقدير الأسعار الحالية للاستثمارات المرتبطة بها. الدخل الذي كان مقدَّرًا عند وفاة الزوجة لا يتخطى 1100 جنيه إسترليني، وقد صار الآن نتيجة انخفاض أسعار المحاصيل الزراعية لا يتجاوز 750 جنيهًا. لكل ابنة الحق في 250 جنيهًا حال عقد قرانها. ومن الواضح أنه حال تزوجت كلتا الابنتين، فإن هذا الضخم الوسيم لن يحصل إلا على قدر ضئيل من الثروة، حتى إن زواج واحدة منهما فقط قد يسبب له خسارة فادحة. لم يكن عملي هذا الصباح هباءً فقد أثبتُّ أنه لديه أقوى الدوافع لإعاقة أي تصرف من هذا النوع. والآن يا واتسون، هذا أمر أخطر من أن نتباطأ فيه، خصوصًا أن العجوز يعلم باهتمامنا بشؤونه، لذلك لو كنت مستعدًّا الآن فلنستقل عربة أجرة إلى ووترلو. سأكون ممتنًّا للغاية إذا جلبت مسدسك في جيبك، فمسدس أيلي رقم 2 أفضل وسيلة لمجادلة رجل بإمكانه ثني قضيب حديدي وتحويله لعُقدة. أعتقد أن المسدس وفرشاة الأسنان هما كل ما نحتاجه».

حالفنا الحظ في ووترلو أن لحقنا بالقطار المتوجه إلى ليذرهيد، حيث استأجرنا عربة من نُزل المحطة وقطعنا بها قرابة أربعة أو خمسة أميال عبر طرق (سري) الرائعة. كان يومًا مميزًا بشمسه الساطعة وسحبه القليلة، وكانت الأشجار وأسيجة النباتات في طور نموها الجديد، والهواء يحمل عبق الأرض الرطبة. شعرت من ناحيتي على الأقل بتناقض غريب بين أمل الربيع الجميل وهذه القضية الملعونة التي نعمل عليها. جلس صديقي في الأمام عاقدًا يديه وساحبًا قبعته على عينيه، مميلًا ذقنه نحو صدره ومستغرقًا في أعمق أفكاره، وانتبه فجأة وربت على كتفي مشيرًا نحو المروج، وقال: «انظر هناك».

فرأيت حديقة من الأشجار تمتد فوق منحدر هين تبدو كبستان فوق القمة، وظهر من بين أفرع الأشجار سقف رمادي عتيق ومحدَّب لقصر في غاية القِدم.

قال هولمز: «هل هذه ستوك موران؟»، فأجابه السائق: «نعم يا سيدي، هذا منزل الدكتور جريميسبي رويلوت».

فقال هولمز: «يبدو أن ثمة أعمال بناء، هذه وجهتنا».

قال السائق بينما يشير إلى مجموعة من الأسطح على اليسار بمسافة قليلة: «هذه هي القرية، لكن لو أردتم الذهاب إلى المنزل فإن أقصر طريق هو أن تعبرا المنحدر ثم تعبران الممشى بين الحقول. هناك حيث تسير السيدة».

قال هولمز وهو يحجب الشمس عن عينيه: «وهذه السيدة كما أعتقد هي الآنسة ستونر، حسنًا أعتقد أنه من الأفضل أن نفعل كما اقترحت».

نزلنا ودفعنا الأجرة، وعادت العربة في طريقها إلى ليذرهيد، وقال هولمز فيما نصعد المنحدر: «لقد فكرت في الأمر مليًّا، وأظن أن رفيقنا هذا يتصوّر الآن أننا موجودون هنا بصفتنا مهندسَين معماريَّين، أو للقيام بعمل بعينه، لذا لن يثرثر كثيرًا بشأننا.. عمتِ مساء آنسة ستونر، كما ترين فإننا نلتزم بما نقول».

سارعت عميلتنا إلينا وعلى وجهها ملامح السعادة للقائنا وقالت: «لقد انتظرتكما بلهفة شديدة»، وبكت فيما تصافحنا بحرارة، «كل شيء سار بخير. دكتور رويلوت ذهب إلى المدينة ومن المستبعد أن يعود قبل المساء».

قال هولمز: «لقد حظينا بشرف لقاء الدكتور»، وبإيجاز حكى ما حدث منه. شحب وجه الآنسة ستونر بما سمعته وقالت: «يا إلهي، لقد تعقبني إذًا!»

– يبدو كذلك.

– إنه شديد المكر، ولا أدري متى سأكون في مأمن منه، ماذا سيقول عندما يعود؟

– يجب أن يحمي نفسه، لأنه قد يجد من هو أمكر منه ليعترض طريقه. يجب أن توصدي الباب على نفسك الليلة. وإذا تصرف بعنف فسنأخذك لمنزل خالتك بهارو. والآن علينا تحقيق أقصى استفادة من وقتنا الثمين، لذا وجهينا إلى الغرف التي نريد فحصها.

كان المبنى من الحجارة الرمادية التي تكسوها الطحالب بجزء مركزي مرتفع وجناحين مقوسين كمخلبَي سرطان بحر على الجانبين. كان ثمة شباك مكسور في أحد الجناحين، مُقفل بألواح خشبية، بينما كان السقف منهارًا جزئيًّا على هيئة أطلال. فيما كان الجزء المركزي في حالة أفضل، أما الجزء الأيمن فبدا حديثًا لحد ما، كما أن مصاريع الشبابيك والدخان الأزرق المتصاعد من المداخن شهدت بأن ثمة مَسكنًا للعائلة.

وبجانب الحائط الأخير شُيِّد عدد من السقالات، كما أُحدِثَت فجوة في وسطه، لكن لم يكن هناك أثر لبنائين لحظة حضورنا. سار هولمز ببطء على طول المرج غير المشذب، وتفحص بتركيز بالغ النواحي الخارجية للنوافذ قائلًا: «أعتقد أن هذه نافذة غرفتكِ، وفي المنتصف غرفة أختك، والأخرى بجانب المبنى الرئيس هي غرفة دكتور رويلوت».

– بالضبط، لكنني الآن أنام في الغرفة الوسطى.

– حتى انتهاء التعديلات كما فهمت، لا يبدو أن الحاجة ملحة لعمل إصلاحات في الجدار الأخير.

– لم يكن هناك حاجة، أظن أنها كانت حجة لنقلي من غرفتي.

– هذا مثير للاهتمام. الآن على الجهة الأخرى من هذا الجناح الضيق الممتد إلى الممر، الذي يطل على الغرف الثلاث، ثمة نوافذ بالطبع أليس كذلك؟

– نعم، لكنها نوافذ صغيرة جدًّا لا تسمح بمرور أحد عبرها.

– بما أنكما أغلقتما الباب في تلك الليلة، فإن الوصول لغرفتكما كان مستحيلًا من هذه الناحية، والآن هل تكرمتِ بدخول غرفتك وإغلاق نوافذها بالمصاريع الحديدية؟

فعلت الآنسة ستونر ما طُلِب منها، وحاول هولمز بكل الطرق الممكنة، بعدما فحص النافذة المفتوحة بعناية. حاول فتح المصاريع باستخدام القوة، لكن بلا طائل. لم يكن ثمة فُرجة لتمرير سكين من خلالها ورفع القضيب. فحص أيضًا المفاصل بعدسته، لكنها كانت من الحديد الصلب ومثبتة بقوة في المبنى الهائل. حك هولمز ذقنه في حيرة وقال: «حتمًا إن نظريتي تواجه بعض الصعوبات. لا يمكن أن يدخل شخص ما دامت المصاريع مقفلة، حسنًا، سنرى إن كانت الغرفة من الداخل تقودنا إلى دليل في هذه المسألة».

قادنا باب جانبي صغير إلى الممر المطلي باللون الأبيض، الذي تطل عليه الغرف الثلاث. رفض هولمز معاينة الغرفة الثالثة، فدخلنا مباشرة إلى الثانية حيث تنام الآن الآنسة ستونر، وحيث لاقت أختها مصرعها. كانت غرفة صغيرة وبسيطة، سقفها خفيض وبها مدفأة كبيرة على غرار الطراز القديم للمنزل. كان هناك صندوق بني به أدراج في أحد الأركان، وسرير أبيض صغير في ركن آخر، وطاولة على يسار النافذة بجوارها كرسيان صغيران؛ كانت هذه جميع محتويات الغرفة من الأثاث، وبقي فيها مساحة خالية في المنتصف شغلَتها سجادة مربعة من طراز ويلتون. كانت الجدران مكسوة بألواح مصنوعة من خشب البلوط بني اللون، منخورة وبالغة القدم بحيث بدت في قِدم المبنى نفسه. سحب هولمز كرسيًّا لأحد الأركان، وجلس في صمت بينما جالت عيناه كل الأنحاء ملاحظةً كافة التفاصيل.

أشار إلى حبل جرس سميك يتدلى بجوار السرير، بحيث يلامس الوسادة، وسألها قائلًا: «أين يرن هذا الجرس؟»

– في غرفة مدبرة المنزل.

– يبدو أحدث من بقية الأشياء؟

– نعم فقد تم وضعه منذ عامين فقط.

– أختك هي من طلبت وضعه كما أظن؟

– لا أظن، لم أسمعها قط تستخدمه، فقد اعتدنا القيام بأنفسنا بكل ما نريد.

– بالطبع، يبدو أنه من غير الضروري وضع حبل جرس لطيف هنا. اسمحي لي بلحظات أفحص خلالها الأرضية.

انبطح هولمز ممسكًا بعدسته المكبرة وزحف بسرعة للخلف والأمام متفحصًا بدقة كل الشقوق الموجودة بين الألواح، وكذا فعل مع ألواح الخشب التي تكسو الجدران. ثم دنا من السرير وقضى وقتًا طويلًا يحدق إلى. وأخيرًا أمسك بحبل الجرس وجذبه بشدة وقال: «لماذا وُضِع هنا؟ إنه مزيف!»

– ألا يرن؟

– لا، حتى إنه ليس موصولًا بأي سلك. إنه أمر مثير للاهتمام. يمكنك من هنا ملاحظة أن الحبل مربوط بخطاف في فتحة التهوية الصغيرة مباشرةً.

– يا له من سخف. لم أنتبه لها قبل الآن.

قال هولمز فيما يشد الحبل: «غريب جدًّا، ثمة شيء أو اثنان غريبان في هذه الغرفة. على سبيل المثال، أي بنّاء أحمق يختار أن يفتح فتحة تهوية تتصل بغرفة أخرى، بينما وبنفس الكُلفة يستطيع توصيلها بالهواء الخارجي مباشرةً!»

فقالت السيدة: «إنها أيضًا حديثة نسبيًّا»

فعلق هولمز: «هل تم فتحها وقت ربط الحبل؟»

– نعم، فهناك بعض التغييرات البسيطة التي تمت في هذا التوقيت.

– تبدو ذات طابع عجيب للغاية، فهناك حبل جرس مزيف وفتحة تهوية لا تصلح للتهوية. بعد إذنك آنسة ستونر، علينا الآن أن نفتش الغرفة الداخلية.

كانت غرفة الدكتور جريميسبي رويلوت أكبر من غرفة ابنة زوجته، غير أن أثاثها أكثر بساطة؛ سرير تخييم، ورف خشبي صغير مشغول تمامًا بالكتب، أغلبها ذات طابع تقني، وكرسي بجوار السرير، وكرسي آخر قبالة الحائط، وطاولة مستديرة. ما لفت انتباهنا في الأساس كان خزانة معدنية كبيرة. تحرك هولمز ببطء وفحص كل شيء بعناية تامة، ثم سأل وهو ينقر على الخزانة: «ماذا يوجد هنا؟»

– أوراق عمل زوج أمي.

– آه، إذًا فقد رأيتِ ما بداخلها.

– مرة واحدة، منذ عدة أعوام. كانت مليئة بالأوراق.

– ألم تجدي بها قطًّا على سبيل المثال؟

– لا! يا لها من فكرة غريبة.

– حسنًا، انظري إلى هذا.

وأنزل من فوق الخزانة وعاءً صغيرًا كان فيه كمية من الحليب.

– لا، ليس لدينا قطة. لكن لدينا فهدًا وقرد بابون.

– نعم بالطبع! حسنًا، الفهد في الواقع قطة كبيرة، لكن وعاء اللبن لن يلبي حاجته فيما أعتقد. ثمة شيء أريد التأكد منه.

جثا على ركبتيه أمام الكرسي الخشبي وتفحص مقعده بانتباه بالغ.

ثم وقف مرة أخرى واضعًا عدسته داخل جيبه، وقال: «أشكرك، وجدتُ كل ما أريد. ويا للعجب، هناك شيء مريب!

كان ما لفت انتباهه مِقوَد صغير للكلاب، معلق فوق أحد أركان السرير، إلا أن المِقوَد كان معقودًا حول نفسه ومربوطًا على هيئة عقدة.

– ماذا تستنتج من هذا يا واتسون؟

– إنه مِقوَد كلاب عادي جدًّا، لكن لماذا تم ربطه؟

– هذا ليس عاديًّا أليس كذلك؟ رباه، إنه عالم شرير، وعندما يقوم رجل ماهر بتحويل تفكيره إلى الإجرام فإنه يُخرِج أسوأ ما فيه. أعتقد أنني رأيت ما فيه الكفاية الآن يا آنسة ستونر، وبعد إذنك سنخرج حالًا إلى المرج.

لم أرَ صديقي قط متجهمًا وجبهته مكفهرة على هذا النحو، وذلك حالما عدنا من موقع التحقيق. مشينا رواحًا وجيئة في ممرات المرج، ولم أشأ أنا ولا الآنسة ستونر أن نقطع حبل أفكاره، حتى انتبه إلينا من استغراقه وقال: «من الضروري أن تنفذي نصيحتي يا آنسة ستونر بدقة تامة».

– بالطبع سأقوم بذلك.

– المسألة في غاية الخطورة ولا تحتمل أي تردد، فربما تتوقف حياتك على مدى التزامك بالتعليمات.

– أؤكد لك أنني طوع أمرك.

– في البداية نحتاج لأن نقضي أنا وصديقي واتسون هذه الليلة بداخل غرفتك.

نظرنا له أنا والآنسة ستونر بدهشة تامة، فقال: «نعم، هذا ما يجب أن يكون. دعوني أوضح لكما الغرض، أعتقد أن هذا هو النُّزُل الموجود هنا في القرية؟»

– نعم، هذا نُزُل كراون.

– جيد جدًّا، نوافذك يمكن رؤيتها من هناك؟

– بالطبع.

– يجب أن تلزمي غرفتك عند عودة زوج والدتك، بحجة أنكِ مصابة بالصداع، وحالما تسمعينه متوجهًا لغرفة نومه، ستفتحين مصاريع نافذتك وتُضيئين المصباح كإشارة لنا على دخوله الغرفة، ثم تذهبين بكل ما تحتاجينه للمكوث في غرفتك هذه الليلة، فلا شك أن برغم هذه الإصلاحات الجارية في المنزل سيُمكنك قضاء ليلة هناك.

– أجل، بسهولة.

– سنقوم نحن ببقية الأمر.

– ولكن ماذا ستفعل؟

– سنقضي الليلة في الغرفة، وسنحقق في مصدر الضوضاء الذي يُزعجك.

وضعت الآنسة ستونر يدها على ذراع صديقي، وقالت: «أنا متأكدة من أنك فهِمت ما وراء ذلك.

– ربما فعلت.

– إذًا أستحلفك أن تخبرني بسبب وفاة أختي.

– أُفضّل أن أحصل على أدلة أوضح قبل أن أفصح بما لدي.

– يمكنك أن تخبرني على الأقل ما إذا كانت توقعاتي صحيحة، هل توفيت جراء ذعر مفاجئ؟

– لا، لا أظن ذلك. أعتقد أن ثمة سببًا ماديًّا آخر. والآن، آنسة ستونر، عليكِ الذهاب لأن الدكتور رويلوت لو عاد ورآنا معًا سيذهب مجهودنا سدى. إلى اللقاء، كوني شجاعة، لأنك إذا فعلت ما أوضحته لك، فأظن أن بإمكانكِ أن تطمئني تمام الاطمئنان في أننا سنتخلص من الخطر الذي يتهددك.

لم نجد أنا وهولمز صعوبة في الحصول على غرفة نوم وغرفة جلوس في نُزُل كراون. كانتا في الطابق العلوي، ومن خلال نافذتها أمكَننا مراقبة البوابة المطلة على الطريق، والجناح المأهول في منزل ستوك موران. رأينا وقت الغسق دكتور جريميسبي رويلوت يستقل عربة، وقد تجسَّمت هيئته الضخمة بجانب الشخص الضئيل الذي يقود تلك العربة. عانى الولد قدرًا من الصعوبة عند فتحه البوابة الحديدية، وسمعنا صوت الدكتور الأجش، ورأينا قدر الغضب الذي به حرك قبضته القوية تجاه الفتى. وأكملت العربة طريقها، وبعد دقائق رأينا ضوءًا مفاجئًا يصدر من بين الأشجار، وذلك حين أضيء مصباح في إحدى غرف الجلوس.

قال هولمز بينما نجلس في الظلام الدامس: «أتدري يا واتسون، أنا متردد حقًّا بشأن اصطحابك معي هذه الليلة، فهناك خطر حقيقي يحدق بنا».

– أيمكنني مساعدتك؟

– وجودك لا يقدر بثمن.

– إذًا حتمًا سأكون معك.

– هذا لطف كبير منك.

– أما وقد تحدثت عن خطر مُحدِق، فلا بد أنك رأيت في الغرفة أكثر مما بدا لي.

– ليس هذا، لكن أعتقد أنني ربما استنتجت أكثر قليلًا. أظن أنك رأيتَ جميع ما رأيتُه هناك.

– لم أر شيئًا ملحوظًا إلا حبل الجرس، أما الغرض منه فلم أستطِع الوصول إليه.

– ورأيت فتحة التهوية أيضًا؟

– نعم، لكني لا أعتقد أنه شيء شديد الغرابة أن تُفتَح فتحةُ تهوية ما بين غرفتين. إنها صغيرة جدًّا، حتى إن فأرًا لن يستطيع المرور منها.

– لقد توقّعتُ وجود فتحة التهوية حتى قبل مجيئنا إلى ستوك موران.

– عزيزي هولمز!

– بالطبع، فلا بد أنك تتذكر أنها قالت في معرض حديثها إن أختها كانت تشم رائحة سيجار الدكتور رويلوت بداخل الغرفة. هذا يشير لحتمية وجود منفذ بين الغرفتين، ولا يمكن إلا أن تكون صغيرة وإلا لكانت ذُكِرت في مذكرة التحقيق. لذا استنتجتُ وجود فتحة تهوية.

– لكن ما الضرر الذي يمكن أن يحدثه ذلك؟

– حسنًا، على الأقل هناك صدفة محيرة تتعلق بالتواريخ. تم عمل فتحة تهوية، وتعليق حبل جرس، ثم تموت الأخت التي تنام على السرير. ألا تجد الأمر مريبًا؟

– لا أرى الصلة حتى الآن.

– هل لاحظت شيئًا غريبًا في السرير؟

– لا.

– لقد كان مثبتًا في الأرض، هل رأيت سريرًا مثبتًا هكذا قط؟

– لا يسعني أن أقول ذلك.

– السيدة لم تستطع تحريك سريرها. يجب أن يبقى دائمًا في نفس الموضع، على نفس المسافة من فتحة التهوية والحبل المعلّق، هكذا علينا أن نسميه ما دام لم يكن مقصودًا به أن يُستخدم كحبل جرس.

– هولمز، يبدو أنني أرى بصعوبة ما تذهب إليه. نحن هنا في الوقت المناسب لمنع جريمة مريعة وماكرة.

– ماكرة جدًّا، ومريعة جدًّا. عندما ينجرف طبيب إلى الخطأ، يكون عادةً أسوأ المجرمين على الإطلاق، فلديه الجرأة والمعرفة. كان بالمر وهيتشر من أعلام مهنتهما. هذا الرجل أمكر منهما، لكني أعتقد يا عزيزي واتسون أننا أشد مكرًا منه، لكننا سنواجه أهوالًا كفاية قبل انقضاء الليلة؛ لذا دعنا ندخن القليل من الغليون ونفكر لبضع ساعات في شيء أكثر بهجة.

عند التاسعة مساء، اختفى الضوء الذي كان يسطع من خلال الأشجار. أحاط الظلام بالمنزل من كل جانب، ومضت ساعتان ببطء واضح، حتى ظهر شعاع ضوء أمامنا بصورة مفاجئة عند تمام الحادية عشرة.

انتفض هولمز وقال: «هذه إشارتنا، قادمة من النافذة التي بالمنتصف».

أثناء خروجنا تبادل هولمز الحديث مع مالك النُّزُل، وأوضح له أننا في زيارة متأخرة لأحد معارفنا وربما نقضي الليلة هناك. بعد قليل كنا على الطريق المظلم، والهواء يصفع وجهَينا وشعاع الضوء الذي يسطع أمامنا في الظلام يرشدنا للوجهة القاتمة التي تنتظرنا.

لم تواجهنا أية صعوبة في دخول المكان، فقد دلفنا عبر فجوة في جدار الحديقة القديم، وسرنا بين الأشجار وصولًا إلى المرج، ثم مررنا من خلاله وصرنا على وشك الدخول عبر النافذة، عندما اندفع من بين الشجيرات ما بدا أشبه بطفل قبيح مُشوَّه، فألقى بنفسه فوق العشب ثانيًا أطرافه المرنة ومُنطلقًا عبر المرج غائصًا في الظلام.

همست قائلًا: «يا إلهي، أرأيت هذا؟»

أصيب هولمز بالهلع مثلي لوهلة قصيرة. وأحكم الإمساك بي وضحك بصوت خفيض، ثم همس في أذني قائلًا: «إنه منزل لطيف بالفعل، هذا قرد البابون».

كنت قد نسيت الحيوانات الغريبة التي يستأنسها الطبيب. هناك أيضًا الفهد، وربما نجده فوق أكتافنا في أية لحظة. أقر أنني شعرت براحة ذهنية بعد أن حذوت حذو هولمز، فخلعت حذائي ووجدت نفسي بداخل الغرفة. أغلق رفيقي المصاريع دون جلبة تُذكر، ووضع المصباح على الطاولة ونظر في أنحاء الغرفة. كان كل شيء كما رأيناه أثناء النهار. اقترب مني ببطء ووضع يده على فمه، وهمس في

أذني مرة أخرى حتى إنني صرتُ أحد من تركيزي حتى أميز الكلمات، قال: «أقل صوت سيدمر خطتنا».

أومأت له حتى يتأكد أنني سمعته.

– يجب أن نطفئ النور، يمكنه رؤيته عبر فتحة التهوية.

أومأت مجددًا.

– لا تنَم، ربما تتوقف حياتك على ذلك. جهز مسدسك حال احتجنا إليه. سأجلس عند طرف السرير، واجلس أنت على الكرسي.

سحبت مسدسي ووضعته على جانب المنضدة. وأحضر هولمز عصا طويلة وسميكة، ووضعها بجانبه على السرير، وبجوارها علبة ثقاب وشمعة. ثم أطفأ النور وجلسنا في الظلام.

كيف أنسى هذه اليقظة المرعبة؟ لم أتمكن من سماع أي صوت، ولا حتى صوت أنفاسه، لكنني كنت أعرف أن رفيقي يجلس مستيقظًا على بُعد أقدام مني، في نفس حالة التوتر التي أمر بها. حجبت المصاريع أشعة الضوء تمامًا فبقينا في ظلام دامس.

من وقت لآخر، كانت تأتي صيحة طائر ليلي من الخارج. وفجأة، سمعنا أنين قطة بالقرب من النافذة، ما جعلنا ندرك أن الفهد طليق. ومن بعيد صرنا نسمع صوت دقات ساعة الإبراشية العميقة الذي يدوّي كل ربع ساعة. كم بدت هذه الأرباع طويلة. دقت الساعة الثانية عشرة، الواحدة، والثانية، والثالثة، فيما ظللنا ننتظر ما يمكن حدوثه.

ثم سطع ضوء خافت من خلال فتحة التهوية، وسرعان ما اختفى. وتبعته رائحة زيت مشتعل ومعدن ساخن. أضاء شخص ما في الغرفة المجاورة مصباحًا. سمعت بعدها صوت حركة طفيفة، ثم ساد الصمت مرة أخرى برغم تفاقُم الرائحة. لنصف ساعة جلست مُصيخًا سمعي بانتباه شديد، حتى صدر صوت مفاجئ آخر؛ صوت هادئ وناعم، كصوت دفقات من البخار تخرج متلاحقة من جوف غلاية. ما إن سمعنا الصوت حتى أشعل هولمز عود ثقاب وأخذ يضرب حبل الجرس بعصاه بعنف ويقول: «أتراه يا واتسون؟ أتراه؟»

لم أكن قد رأيتُ شيئًا. لكن حين أشعل هولمز الضوء سمعتُ صوت صفير هادئ وواضح، لكن الضوء المفاجئ الذي ضرب عيني المتعبتين جعلني لا أقدر على تمييز الشيء الذي راغ هولمز عليه ضربًا مبرحًا. إلا أنني استطعت رؤية وجهه الشاحب الذي يعلوه الرعب والامتعاض. توقف هولمز عن الضرب وصار ينظر لفتحة التهوية حين باغتتنا أكثر صرخات العالم رعبًا مخترقةً سكون الليل، وراحت تعلو أكثر فأكثر، صراخ مدو بالرعب والألم والغضب، جميعها في آن واحد. يقال إن كل من في القرية استيقظ على صوت الصرخة حتى بيت القس البعيد. تسرب الرعب إلينا ووقفنا أنا وهولمز يحدق أحدنا إلى وجه الآخر، حتى تلاشى آخر صدى للصيحة في صمت الليل الذي انبثق منه.

سألته لاهثًا: «ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟»

أجابني هولمز: «يعني أن كل شيء انتهى الآن. ربما للأفضل. أخرِج مسدسك، سندخل غرفة دكتور رويلوت».

أضاء المصباح بوجه متجهم وانطلق في اتجاه الممر. دق الباب مرتين دون أن نسمع ردًّا من الداخل. ثم أدار المقبض ودخل وأنا في إثره تمامًا حاملًا مسدسي وجاهزًا لإطلاق النار.

كان مشهدًا فريدًا ما لاقته أعيننا؛ على المنضدة مصباح بباب موارب، يُلقي الضوء على خزانة حديدية مفتوحة بشكل جزئي، وإلى جانبها طاولة وكرسي خشبي يجلس عليه الدكتور جريميسبي رويلوت مرتديًا رداء نوم رمادي طويلًا، مربوطًا فيه سوط طويل كنا قد رأيناه أثناء النهار. كان ذقنه مرفوعًا لأعلى، وعيناه محدقتين برعب إلى زاوية السقف، وعلى رأسه عصابة مميزة مرقطة باللون البني بدت ملفوفة بإحكام حول جبهته. ولم يبد صوتًا ولا حركة أثناء دخولنا.

همس هولمز: «العصابة، العصابة المرقطة».

خطوت خطوة إلى الأمام، وخلال لحظة رأيتُ غطاء رأسه الغريب يتحرك ببطء ويبرز منه رأس صغير لأفعى صغيرة تعافها النفس.

صاح هولمز: «إنها أفعى المستنقع، الأكثر فتكًا في الهند! لقد توفي بعد عشر ثوان من لدغتها. يرتد العنف أخيرًا على صاحبه. دعنا نعيد هذا المخلوق لجحره، ولا بد أن ننقل الآنسة ستونر إلى مكان آمن حتى نبلغ شرطة المقاطعة بما حدث».

وبينما كان يتحدث، قام بسحب سوط الكلب سريعًا من أعلى فخذ الجثة المتوفاة، ووضع العقدة على رقبة هذا الزاحف وسحبه بحركة خاطفة، ثم حمله على طول ذراعه وألقاه بداخل الخزانة الحديدية وأغلقها عليه.

كانت هذه هي الوقائع الحقيقية لوفاة الدكتور جريميسبي رويلوت من ستوك موران. وليس من الضروري أن أطيل القصة التي طالت حتى هذه اللحظة، بسرد تفاصيل نقل الخبر الحزين لتلك الشابة المذعورة، وكيف نقلناها في الصباح عن طريق القطار إلى عناية خالتها الطيبة في مدينة هارو، وكيف انتهت التحقيقات البطيئة لإثبات كون الدكتور رويلوت توفي جراء لعبه الأحمق مع مخلوق خطير. أما التفاصيل التي لم أعرفها فقد أخبرني بها شيرلوك هولمز في طريق عودتنا صباح اليوم التالي.

قال: «لقد توصلت يا عزيزي واتسون إلى استنتاج خاطئ تمامًا، ما يؤكد مدى الخطر الناتج عن الاستنتاجات المبنية على المعلومات غير الكافية. فوجود الغجر، مع استخدام الفتاة المسكينة لكلمة (عصابة) حتى تصف الشكل الذي لمحته لمحة خاطفة على ضوء عود ثقاب، كانا كافيين لدفعي لذلك الاستنتاج الخاطئ. ومع هذا، فإن دفاعي الوحيد هو كوني قد أعدت النظر في موقفي حين اتضح خطؤه، فأيًّا كان الخطر الذي يهدد قاطنة الغرفة فلا يسعه الدخول عبر النافذة أو من خلال الباب، لذلك انتبهت بسرعة كما أخبرتك بالفعل لفتحة التهوية، ولحبل الجرس المتدلي منها نحو السرير. وقد أدى اكتشافي لكون الحبل زائفًا والسرير مثبتًا في أرضية الغرفة إلى إثارة شكوكي في ذلك الحبل بالتحديد، فما هو إلا قنطرة لعبور شيء ما آتٍ من ناحية فتحة التهوية قاصدًا السرير. راودتني فكرة وجود ثعبان على الفور، وعندما ربطت الأمر بمعرفتي بأن الدكتور مهووس باقتناء حيوانات من الهند، أدركتُ أنني أسير في الاتجاه الصحيح. إن فكرة استخدام سُم لا يمكن كشفه عن طريق الفحوصات الكيميائية، لا تراود إلا رجلًا ماهرًا وقاسيًا تلقى تدريبًا شرقيًّا ناجعًا، فسرعة تأثير السم من وجهة

نظره كانت الميزة الناجزة. وحده محقق ذو نظرة ثاقبة هو من يستطيع تمييز علامتَي لدغة نابَين مسمومَين. ثم فكرت في صوت الصفير؛ لقد كان يستدعي الثعبان قبل أن يكشفه ضوء المصباح للضحية. في الأغلب، كان قد دربه باستخدام الحليب الذي رأيناه حتى يعود عند استدعائه. فكان يضعه في فتحة التهوية في الساعة التي يظنها الأفضل، على يقين من أنه سيزحف على الحبل وصولًا للسرير. وقد تُلدغ قاطنة الغرفة أو لا تُلدغ، ربما تُفلت كل ليلة طوال الأسبوع، لكنها ستقع عاجلًا أو آجلًا. لقد توصلت إلى هذه الاستنتاجات قبل دخولي غرفته. فبفحص كرسيه عرفت أنه اعتاد الوقوف عليه، وهذا ضروري لكي يصل لفتحة التهوية. كما أن منظر الخزانة مع صحن الحليب والسوط المعقود كان كفيلًا بدحض باقي الشكوك. ومن الواضح أن صوت المعدن المرتطم الذي سمعَته الآنسة ستونر كان نتيجة إغلاق زوج والدتها باب الخزانة وراء هذا المخلوق المقيت. وما إن توصلت لهذه الحقائق حتى اتخذت الخطوات التي شاهدتها معي لأُثبت الواقعة. وبمجرد أن سمعت حفيف هذا المخلوق، ولا شك أنك سمعته أيضًا، أشعلت الضوء وهاجمته، فدفعته إلى العودة من خلال فتحة التهوية والانقلاب على سيده، حيث إن بعض ضربات عصاي كانت من الدقة أن حفّزت غريزته الثعبانية، فانقض على أول شخص رآه. وبذلك أكون دون شك مسؤولًا على نحو غير مباشر عن وفاة دكتور جريميسبي رويلوت. ولا يسعني القول إني أشعر بأدنى درجة من تأنيب الضمير».

مغامرة العقيق الأزرق

بعد يومين من عيد الميلاد، قررت زيارة شيرلوك هولمز. أردت أن أهنئه بالعيد. عند وصولي إلى شارع بيكر، وجدت صديقي مستلقيًا على الأريكة، وبجانبه قبعة متسخة قديمة ومهترئة على ظهر أحد الكراسي. ورأيت عدسة مكبرة على مائدة بالقرب منه.

سألته: «أظن أن هذه القبعة لها علاقة بجريمة ما؟»

فأجابني هولمز: «لا يا عزيزي واتسون. إنها ليست جريمة، بل واحدة من تلك الحوادث البسيطة والغريبة التي تحدث في مدينة كبيرة كلندن. لقد حصلت على هذه القبعة صباح عيد الميلاد من ضابط شرطة يدعى بيترسون. قال لي إنه كان يسير عائدًا إلى المنزل ليلة عيد الميلاد عندما رأى رجلًا يرتدي هذه القبعة ويحمل إوزة على كتفه».

قلت له: «لعشاء عيد الميلاد بالتأكيد».

رد هولمز: «بالتأكيد يا واتسون. أوضح بيترسون بعد ذلك أن مجموعة من قاطعي الطرق ظهروا وبدؤوا في مضايقة الرجل، ثم دفعوه وأسقطوا قبعته. حاول الرجل الدفاع عن نفسه ملوحًا بعصاه، فكسر نافذة أحد المتاجر بطريق الخطأ. حينها جرى بيترسون لمساعدة الغريب المسكين. وعندما رأت العصابة بيترسون يتقدم نحوهم، لاذوا بالفرار. لكن ضحيتهم فرّ أيضًا. ظن العجوز بالتأكيد أن بيترسون سيقبض عليه لكسره النافذة. وهكذا، أصبح الضابط وحده مع القبعة والإوزة. كانت هناك ورقة مربوطة في الطائر، مكتوب عليها: (إلى السيدة هنري بيكر) وتحمل القبعة الأحرف الأولى من الاسم: (هـ ، ب). لكن هناك بالتأكيد المئات ممن يحملون هذا الاسم في لندن، وسيكون من المستحيل العثور على هنري بيكر المراد وإعادة القبعة والإوزة إليه».

قال هولمز: «بيترسون يعلم أنني أهتم بأبسط القضايا، فأحضر إليّ هذه المتعلقات. ونظرًا لأنني لن أتمكن من الاحتفاظ بالإوزة إلى الأبد، عاد بيترسون وأخذها ليعدها على العشاء الليلة. وفي هذه الأثناء، كنت أتقصّى بشأن الرجل المجهول عن طريق فحص هذه القبعة».

صحت مندهشًا: «لكن ما الذي يمكنك معرفته من فحص قبعة؟»

أجاب هولمز: «أنت تعلم كيف أعمل يا واتسون. إليك عدستي المكبرة، أخبرني ما الذي يمكنك استكشافه عن الغريب الذي نتحدث عنه؟»

أخذت القبعة وفحصتها. كانت قبعة سوداء عادية، لكنها بليت مع الزمن. لون البطانة الحريرية الحمراء أصبح باهتًا. لاحظت الحرفين الأولين من الاسم (هـ ب) بداخلها. كانت هناك ثقوب في الحافة حيث يستخدم رباط مرن لإحكام القبعة على الرأس، لكن الرباط ليس موجودًا. قبعة مشققة ومغبرة ومليئة بالبقع المهترئة التي استخدم أحدهم الحبر لإخفائها.

قلت لصديقي وأنا أعطيه القبعة: «لا يمكنني رؤية أي شيء».

– على العكس يا واتسون، أنت ترى كل شيء، لكنك لا تفهم ما تراه.

فسألته: «إذن ما الذي يمكنك إخباري به بشأن صاحب القبعة؟»

قال هولمز موضحًا: «منذ ثلاثة أعوام، كان صاحب القبعة رجلًا ثريًّا إلى حد ما. لكنه افتقر بعدها. وكان شخصًا دقيقًا، لكنه لم يعد كذلك. شيء ما تسبب في هذه التغييرات، ربما المقامرة. وربما يكون هذا هو السبب في أن زوجته لم تعد تحبه. بالرغم من كل ذلك، لا يزال هذا الغريب يهتم بمظهره، لكنه لا يخرج كثيرًا. وهو شخص في منتصف العمر، لا يتمتع بصحة جيدة. شعره رمادي اللون يدهنه صاحبه، وقد قصه خلال الأيام القليلة الفائتة. وعلى الأرجح أنه يستخدم الشموع لإنارة منزله».

قلت له: «من المؤكد أنك تمزح يا هولمز».

– على الإطلاق يا عزيزي واتسون. كانت هذه القبعة تمثل أحدث خطوط الموضة منذ ثلاثة أعوام، كما أنها غالية الثمن، ما يعني أن الغريب كان لديه بالتأكيد ما يكفي من المال لشرائها حينئذ. وقد علمت أنه لم يعد ثريًّا كما كان من قبل؛ لأنه لا يمكنه تحمل تكاليف شراء واحدة جديدة الآن، رغم أن قبعته أصبحت قديمة وبالية. كما أنني علمت أنه كان دقيقًا فيما مضى، لأنه تكبد عناء تزويد القبعة برباط مرن، انقطع على الأرجح، ولم يستبدله لأنه لم يعد دقيقًا كما كان.

تابع هولمز حديثه قائلًا: «أما عن اعتنائه بمظهره، فيرجع إلى أنه يحاول إخفاء البقع المهترئة في القبعة بالحبر. انظر إلى البطانة وسترى آثار شعر توضح عمر صاحب القبعة ولون شعره. كما أنها تدل على أنه قد قص شعره مؤخرًا. ويمكنك كذلك شم رائحة دهان الشعر».

استكمل هولمز: «أما الغبار الموجود على القبعة فليس من النوع الذي يوجد خارج المنازل، بل الذي يتجمع داخلها. ما يعني أن الرجل يقضي وقتًا أطول في المنزل مقارنة بأي مكان آخر. كما أن علامات التعرق الموجودة داخل القبعة تشير إلى أن الرجل يعرق حتى أثناء السير، ما يعني أنه ليس لائقًا بدنيًّا».

قاطعته قائلًا: «لكنك قلت أيضًا إن زوجته لم تعد تحبه».

رد هولمز: «لم تُنَظَّف هذه القبعة منذ أسابيع. مَن الزوجة المحبة التي تترك زوجها يغادر المنزل وعلى رأسه قبعة مغبرة كهذه؟»

قلت له: «لكنه ربما يكون أعزب؟»

– لقد نسيتَ الملاحظة المرفقة بالإوزة، المكتوب فيها: (إلى السيدة هنري بيكر).

– فهمت. لكن كيف لك أن تعرف أنه يضيء منزله بالشموع وليس بالغاز؟

أجاب هولمز: «يوجد الكثير من بقع الشمع على قبعته، والتي ما كنا لنراها لو كان يضيء منزله بالغاز».

في تلك اللحظة انفتح الباب فجأة ودخل ضابط الشرطة بيترسون مندفعًا، وصاح قائلًا: «سيد هولمز! انظر ماذا وجدت زوجتي داخل الإوزة وهي تعد العشاء!» مد بيترسون يده نحونا وبداخلها حجر كريم جميل أزرق اللون. كان أصغر قليلًا من حبة الفول، لكنه كان يلمع ويتلألأ كنجم أزرق براق.

صاح هولمز مندهشًا: «سيد بيترسون! يمكنني التعرف على هذا الحجر، إنه جوهرة العقيق الأزرق الثمينة التي تمتلكها كونتيسة موركار!»

سألته: «هل تعني الجوهرة التي سُرقت؟»

وكانت إجابة هولمز: «نعم يا واتسون. لقد ضاعت منذ خمسة أيام فقط، في فندق كوزموبوليتان. وقد قرأت عن الأمر في الجريدة. ألقت الشرطة القبض على سباك يدعى جون هورنر، واتهمته بسرقة الجوهرة. يبدو أن جيمس رايدر، مدير الفندق، قد ترك هورنر في غرفة الكونتيسة لإصلاح السباكة. وعندما عاد السيد رايدر، كان السباك غير موجود والجوهرة قد اختفت. وجاءت رواية كاثرين كوزاك، خادمة الكونتيسة، مطابقة لذلك. بدأت الشرطة جهودها على الفور، وقبضت على هونر في تلك الليلة. لم يعثروا على الجوهرة المفقودة، ويصر السباك على أنه بريء».

استكمل هولمز حديثه قائلًا: «إذن، كيف وصلت الجوهرة من الكونتيسة إلينا؟ نعلم أنها جاءت من الإوزة، التي يمتلكها هنري بيكر. أعتقد أن أول خطوة هي أن نعثر على السيد بيكر، ويمكننا فعل ذلك عن طريق وضع إعلان في الجريدة».

أخذ هولمز ورقة وقلمًا، وقال وهو يكتب: «عُثِرَ على إوزة وقبعة سوداء تخصان السيد هنري بيكر بإحدى نواصي شارع جوودج. الرجاء الحضور إلى بناية رقم 221 ب بشارع بيكر للحصول عليهما الساعة السادسة ونصف من مساء اليوم».

قال هولمز: «والآن يا سيد بيترسون، هل تتكرم بفعل أمرين من أجلي؟ لتأخذ هذا الإعلان وتضعه في جميع الصحف المسائية. ثانيًا، من فضلك أحضر لي إوزة أخرى للسيد بيكر».

عندما غادر بيترسون وضع هولمز الجوهرة تحت الضوء، وقال: «انظر يا واتسون اكتُشف هذا الحجر منذ عشرين عامًا فقط. وقد عثر عليه على ضفاف نهر أموي جنوب الصين. إن له ميزة نادرة، إذ إن أغلب الأحجار المماثلة له تحمل اللون الأحمر كالياقوت، وليس الأزرق. وكما هو الحال مع جميع الأحجار الكريمة، تترك هذه الجوهرة آثار جريمة في أي مكان تحل به. وقد وقعت بالفعل جريمتا قتل والعديد من السرقات بسببها حتى الآن. سأضعها في مكان آمن، وأخبر الكونتيسة أن حجرها الكريم معنا».

سألته: «وماذا ستفعل بشأن جون هورنر السباك؟ وهنري بيكر؟»

– لا أعرف أي شيء عن هورنر يا صديقي، ولا أعتقد أن السيد بيكر مذنب. لكننا سنتحقق من ذلك عندما يستجيب للإعلان الذي نشرناه. أرجو أن تنضم إليّ الليلة يا واتسون. فإن حالفنا الحظ، فسنتمكن من سؤاله عن إوزته.

حضر هنري بيكر إلينا تلك الليلة بحثًا عن إوزته الضائعة. كان رجلًا ضخمًا ذا وجه عريض ولحية بنية اللون. أعطاني انطباعًا أنه رجل مثقف، لكن ملابسه الرثة أوضحت أنه مر بأوقات عصيبة.

بدأ هولمز الحديث قائلًا: «أتساءل لماذا لم تنشر إعلانًا عن متعلقاتك المفقودة في الجريدة؟»

رد بيكر: «حسنا يا سيد هولمز، لم أعد أملك من المال ما يسمح لي بوضع إعلان، وكنت على يقين أن اللصوص هم من سرقوا الإوزة. فرأيت أن الدفع مقابل إعلان مضيعة للمال».

صديقي: «إنني أتفهم. بالمناسبة يا سيد بيكر، يؤسفني أننا قد أكلنا إوزتك. كانت ستتعفن لو انتظرنا طويلًا..».

تأوه زائرنا وبدت عليه خيبة أمل شديدة.

فأشار هولمز إلى الطائر الموضوع على الطاولة، وقال: «لكن لا تقلق، لقد اشترينا لك واحدة أخرى. ولا يزال لدينا بالطبع ريش إوزتك وعظامها، إذا كنت ترغب في الحصول عليها».

ضحك السيد بيكر وهو يقول: «لماذا قد أرغب في ذلك الآن؟ كلا، سوف آخذ هذه الإوزة فحسب، وأمضي في سبيلي».

قال هولمز، وهو ينظر ناحيتي رافعًا حاجبيه: «عظيم! بالمناسبة يا سيد بيكر، أيمكنك إخباري من أين أتيت بطائرك اللذيذ؟ أود معرفة من أين يمكنني الحصول على مثله».

فقال: «حسنًا يا سيد هولمز. اعتاد بعضنا الذهاب إلى حانة ألفا، وقد أقام صاحب الحانة ما يعرف بنادي الإوز. وكان الكل يدفع أسبوعيًّا على مدى العام الماضي مبلغًا صغيرًا من النقود، حتى أصبح لدى كل منا ما يكفيه لشراء إوزة لعيد الميلاد. وهكذا حصلت عليها، والآن، إن لم تمانعا، سآخذ هذا الطائر وأستمتع أخيرًا بعشاء عيد ميلاد فاخر».

بعد أن تركنا الزائر، اتبعت أنا وهولمز هذا الخيط، فغادرنا سائرين في طرقات لندن الباردة وصولًا إلى حانة ألفا. وهناك وجدنا طاولة هادئة، جلسنا عليها وطلبنا من صاحب الحانة كأسين من نبيذ التفاح الساخن.

قال هولمز: «أرجو أن يكون ما تقدمه من نبيذ جيدًا مثل ما لديك من إوز».

قال صاحب الحانة وهو يصب الشراب الساخن: «ما لدي من إوز؟»

– نعم، لقد كنت أتحدث لتوي مع السيد هنري بيكر بشأنه.

قال صاحب الحانة: «آه، حسنًا، أنا لا أملك هذا الإوز، لقد حصلت عليه من رجل يدعى بريكنبريدج بسوق كوفينت جاردن».

أنهيت أنا وهولمز مشروبنا، وتوجهنا إلى سوق كوفينت جاردن. حيث عثرنا على السيد بريكنبريدج، وكان حينها يغلق لتوه الحانوت الذي يبيع فيه بضاعته.

قال هولمز لبريكنبريدج: «أرى أن بضاعتك قد نفدت. يا للحظ السيئ! هل يمكنك إخباري من أين تحصل على الطيور التي تبيعها؟»

أدهشنا بأن سؤال هولمز قد أغضب بائع الطيور، فقال بصوت مرتفع: «والآن يا سيدي، ما الذي ترمي إليه؟ لست أول من يزعجني اليوم بشأن الإوز الذي أبيعه. من أين جلبته؟ ولمن بعته؟ لم أسمع في حياتي قط جلبة كهذه تثار حول طائر».

قال هولمز: «آسف، كل ما في الأمر أنني قد راهنت على أن هذا الإوز قد ربي في الريف».

قال بريكنبريدج: «حسنًا، لقد خسرت الرهان إذن؛ لقد ربي هذا الإوز في المدينة. انظر إلى سجلي، إنه يوضح ممن اشتريت الإوز، ولمن بعته. وهناك سيدة تُدعى أوكشوت هي من ربّت الإوز الذي بعته لحانة ألفا. ومذكور هنا أنها تعيش في شارع بريكستون بلندن».

تركت أنا وهولمز السيد بريكنبريدج ليستكمل إغلاق حانوته. وقفنا في الشارع نفكر إذا ما كان علينا زيارة السيدة أوكشوت فورًا أم ننتظر حتى الصباح. سمعنا حينئذ صياحًا. كان مصدره السيد

بريكنبريدج، يصيح في وجه رجل ضئيل الحجم قائلًا: «توقفوا عن إزعاجي! لقد نلت كفايتي من الأسئلة اليوم عن الإوز الذي أبيعه! لتذهب وتسأل السيدة أوكشوت عن إوزها!» ثم استدار وابتعد ضاربًا الأرض بقدميه في حنق.

توجه هولمز إلى الرجل، وقال له: «عذرًا، اسمي شيرلوك هولمز، وأعتقد أن بإمكاني أنا وصديقي مساعدتك. أرى أنك تبحث عن بعض الإوز. لقد باعته السيدة أوكشوت للسيد بريكنبريدج، الذي باعه بدوره لحانة ألفا. ومن الحانة انتقلت واحدة من هذا الإوز للسيد هنري بيكر».

صاح الرجل: «سيد هولمز، لا يمكنك تخيل كم هو مهم أن أعثر على إوزتي».

قال هولمز: «في هذه الحالة، أرجو أن تأتي إلى منزلي حيث يمكننا التحدث يا سيد...؟»

أجاب الغريب: «اسمي جون روبنسون».

قال هولمز وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة: «لا، لا، أنا أعني اسمك الحقيقي. أنا مصر على معرفته».

تغير وجه الغريب، وبدا عليه الانزعاج، وقال: «حسنًا، اسمي الحقيقي هو جيمس رايدر».

قال هولمز: «هذا أفضل، أفضل بكثير يا سيد رايدر، مدير فندق كوزموبوليتان».

عندما وصلنا إلى المنزل، أخذت أنا وهولمز ورايدر نستدفئ بجانب المدفأة، ثم بدأ هولمز الحديث قائلا: «والآن يا سيد رايدر، ترغب في معرفة مكان إوز السيدة أوكشوت، أو بالأحرى، إوزة واحدة بعينها، تلك الإوزة البيضاء ذات العلامة السوداء على ذيلها».

صاح جيمس رايدر قائلًا: «نعم، هل يمكنك إخباري أين ذهبت؟»

– لقد أتت إلى هنا، وكانت إوزة مميزة بحق. في الواقع، لقد وضعت بيضة بعد أن تم ذبحها. وكانت بيضة زرقاء صغيرة يفوق بريقها أية بيضة أخرى.

ومد هولمز يده عارضًا على ضيفنا جوهرة العقيق الأزرق. حدق رايدر إليها، وانتفض من كرسيه وقد شحب وجهه.

صاح هولمز قائلًا: «لقد قضي الأمر يا رايدر. فأنا أعلم معظم ما حدث. وقد تحسن الشرطة معاملتك إذا أخبرتنا الآن بما تعرفه».

بدا رايدر وكأنه سيسقط مغشيًّا عليه، فساعدته في الاعتدال مرة أخرى على كرسيه، وقال: «إنها كاثرين كوزاك، خادمة الكونتيسة. هي من أخبرتني بشأن الجوهرة».

قال هولمز: «وقررت أن تسرقها. كنت تعلم أن جون هورنر، السباك، لديه مشكلات سابقة مع الشرطة؛ فخططت لوجوده في غرفة الكونتيسة، وعندما غادر سرقت الجوهرة، ثم اتصلت بالشرطة وأخبرتهم بأمر هورنر، فألقوا القبض عليه».

قال رايدر متوسلًا: «أرجوك يا سيد هولمز أن ترحمني! فأنا لم أتورط من قبل في أية جريمة، ولن أكرر فعلتي مرة أخرى! أرجوك!»

قال هوملز: «حقًّا يا سيد رايدر، أتطلب العفو؟ لكنك كنت على استعداد أن ترسل السيد هورنر إلى السجن لجريمة ارتكبتها أنت. كفى! لتخبرنا ببقية القصة».

تابع رايدر رواية ما حدث: «عند القبض على هورنر، خشيت أن تستجوبني الشرطة، وأن يفتشوني بحثًا عن الجوهرة. فذهبت إلى منزل أختي...».

قال هولمز: «السيدة أوكشوت».

رد رادير: «نعم، ذهبت إلى هناك وفكرت فيما سأفعله بعد ذلك. تذكرت صديقًا قديمًا كان قد قضى بعض الوقت في السجن. كنت أعلم أنه قد يساعدني في بيع الجوهرة، فقررت الذهاب إلى كيلبورن حيث يعيش. لكن ظل القلق يساورني بشأن عثور الشرطة على الجوهرة معي. كنت أجلس في الفناء الخلفي بمنزل أختي، وكان مليئًا بالإوز الذي تربيه. وهكذا جاءتني الفكرة. وعدتني أختي بالحصول على أحد تلك الطيور هدية بمناسبة عيد الميلاد. فقررت أن أحشر جوهرة العقيق أسفل حلق الإوزة، ثم آخذها معي. وإذا استوقفتني الشرطة، فلن يخطر ببالهم أبدًا فحص الإوزة. أمسكت بواحدة، وكانت تلك الإوزة ذات العلامة السوداء على ذيلها. فتحت منقارها، وحشرت الجوهرة أسفل حلقها. خرجت أختي من المنزل، وسألتني عما كنت أفعله. وحينها تركت الإوزة من يدي، فحلّقَت عائدة بين بقية الإوز. قلت لها إنني سآخذ هدية عيد الميلاد ولكنني كنت أبحث عن أسمنها، فأشارت إلى واحدة وأخبرتني أنها إوزتي التي كنت أمسك بها وذبحتها. وذهبتُ بعدها إلى كيلبورن».

تابع رايدر حديثه: «لك أن تتخيل فزعي عندما فتحت الطائر أمام صديقي، ولم أعثر على شيء. وقع خطأ جسيم، فأسرعت عائدًا إلى المدينة، هرولت إلى منزل أختي، واندفعت إلى الفناء الخلفي لأجد أن كل الطيور قد اختفت. لقد أرسلتها إلى التاجر المدعو بريكنبريدج. سألتها عما إذا كانت هناك إوزة أخرى ذات علامة سوداء على ذنبها، وجاءت إجابتها بالإيجاب. لقد أخذتُ الإوزة الخطأ! ركضت إلى سوق كوفينت جاردن بأقصى سرعة، لكن لم يخبرني بريكنبريدج أين ذهبت إوزتي؛ ولهذا السبب أنا هنا الآن. لقد ارتكبت جريمة بشعة» وأخذ رايدر يجهش بالبكاء بحرقة، وهو يدس وجهه بين يديه.

ساد الصمت فترة طويلة، وأخذ هولمز ينقر بأظافره على الطاولة، ثم نهض وفتح الباب المطل على الشارع، وقال: «اخرج».

وفي لحظة، اندفع رايدر مسرعًا من الباب، واختفى في ظلام الليل.

قال هولمز: «ربما أكون بذلك أرتكب خطأً، لكنني لا أظن أن السيد رايدر سيخرق القانون مرة أخرى. كما أن هورنر سيطلق سراحه، وستعود جوهرة العقيق الأزرق إلى صاحبتها. وفي نهاية الأمر، نكون قد أنقذنا الرجل من قضاء حياته في السجن».

واستأنف هولمز حديثه قائلًا: «وفي النهاية، قد تمكنّا من فك لغز قضية غاية في الإثارة، ويرجع الفضل في ذلك إلى هذا الرجل الأحمق... أليس كذلك يا عزيزي واتسون؟»

مغامرة النبيل الأعزب

لم يعد أمر إتمام أو إلغاء زواج اللورد سانت سيمون موضع اهتمام الأوساط الراقية، التي يتنقل فيها العريس التعيس. حيث ظهرت فضائح جديدة جذبت النمائم بعيدًا عن هذه المأساة التي حدثت منذ أربعة أعوام. ولأن الحقائق لم تنكشف بأكملها أمام العامة، تلك الحقائق التي كان لصديقي شيرلوك هولمز دور حاسم في كشفها، فإنني أشعر بأن تسجيل هذه القصة لن يكون كاملًا دون سرد أحداثها الغريبة.

كان ذلك قبل زفافي بأسابيع قليلة، حين كنت لا أزال أشارك هولمز المسكن في شارع بيكر. عاد يومًا إلى المنزل ظهرًا ليجد خطابًا على الطاولة في انتظاره. كنت في المنزل طوال اليوم، حيث تقلبت أحوال الطقس فجأة، فأدت لهطول الأمطار وإثارة رياح خريفية شديدة، كما أن الرصاصة التي عدت بها كأثر مقدس في أحد أطرافي من الحملة العسكرية بأفغانستان كانت تؤلمني بشدة. جلست على كرسي مريح واضعًا ساقًا فوق الأخرى، وأحطت نفسي بكومة من الجرائد حتى تشبعت بأخبار اليوم، أبعدتها كلها جانبًا واضطجعت في كسل مشاهدًا العلامة الضخمة والأحرف المتشابكة على الظرف القابع فوق الطاولة، وتساءلت في تكاسل مَن قد يكون ذلك النبيل الذي راسل صديقي.

بدخوله قلت: «لديك رسالة أنيقة للغاية، فرسائلك الصباحية على ما أذكر تأتي من بائع سمك أو موظف جمركي».

أجابني باسمًا: «نعم، فرسائلي لها تنوع ساحر. حتى أكثرها تواضعًا تكون في الغالب مثيرة أكثر للاهتمام. هذه تبدو كواحدة من تلك الدعوات الاجتماعية غير المرحب بها، التي تستدعي المرء إما ليشعر بالملل أو يحتاج للكذب».

فتح الخطاب وبدأ سريعًا في تفحصه.

– آه، اقترب، قد يكون الأمر مثيرًا في نهاية الأمر.

– إذًا ليست اجتماعية.

– لا، يبدو أنها تخص العمل.

– من عميل نبيل؟

– من الأنبل في إنجلترا.

– أهنئك يا صديقي العزيز.

– أؤكد لك يا واتسون بكل صدق أن مركز عميلي أقل إثارة للاهتمام من قضيته نفسها. وأتصور أن هذا التحقيق الجديد لن يخلو أبدًا من الأهمية. لقد كنت تقرأ الصحف مؤخرًا، أليس كذلك؟

أشرت إلى كومة الجرائد وأجبته: «يبدو كذلك، لم يكن لدي شيء آخر لفعله».

– هذا من حسن الحظ، إذ من الممكن أن تطلعني على المستجدات، فأنا لا أقرأ إلا صفحات الجرائم وأعمدة المصائب، فلا يخلو أي منهما من الفائدة أبدًا. لكن إذا كنت قد تابعت آخر الأحداث من كثب، فلا بد أنك قرأت عن اللورد سانت سيمون وعن زفافه.

– نعم، باهتمام بالغ.

– جيد. لقد جاء هذا الخطاب الذي أمسك به من اللورد سانت سيمون. سأقرأه عليك، وستقوم بدورك بتصفح تلك الجرائد وإخباري بكل ما يرتبط بهذا الأمر. هذا ما ورد فيه:

«عزيزي السيد شيرلوك هولمز،

أخبرني اللورد باكووتر أن بإمكاني الاعتماد على ذكائك وحكمتك وتكتمك. لذلك عزمت على لقائك لاستشارتك بخصوص الواقعة الأليمة المتعلقة بزفافي. إن السيد ليستراد من محققي سكوتلاند يارد قد بدأ بالتحرك في المسألة، لكنه أكد لي أنه لا يمانع أبدًا من الاستعانة بك، كما أنه يعتقد أن مساعدتك ستكون ذات قيمة بالغة. سأمر بك في الرابعة عصرًا، وأرجو إن كان لديك أية مشاغل في هذا التوقيت أن تؤجلها، فالمسألة في غاية الأهمية ولا تحتمل التأجيل.

المخلص سانت سيمون»

قال هولمز وهو يطوي الخطاب: «إنها صادرة من قصور جروزفينور، ومكتوبة بريشة، وقد لطخ النبيل التعيس الجزء الخارجي لإصبعه الصغير الأيمن بالحبر».

– لقد حدد الساعة الرابعة عصرًا. إنها الآن الثالثة. سيكون هنا في غضون ساعة.

– إذًا لدي وقت كاف لفهم الأمر بمساعدتك. قلِّب في هذه الصحف ورتِّب المقتطفات وفقًا لتاريخها، بينما ألقي نظرة لأعرف مَن عميلنا ذاك.

التقط مجلدًا ذا غلاف أحمر من صف كتب بجوار رف المدفأة، وقال وهو يجلس ويفتح الكتاب فوق ركبتيه: «ها هو ذا، اللورد روبرت والسينجهام دو فير سانت سيمون. الابن الثاني لدوق بالمورال. امم، جيوش، ثلاث قلادات لازوردية. ولد عام 1846، في الحادية والأربعين من عمره، في سن مناسب للزواج، كان يشغل منصب وكيل وزارة المستعمرات في إحدى الحكومات السابقة، وكان والده الدوق وزيرًا للخارجية ذات يوم. وقد ورث البلانتاجنتي من جهة الوالد مباشرة، ودم تيودور من جهة الأم. ها، لا يوجد ما يفيدني بين كل هذه المعلومات، ربما يجب أن أنصت إليك حتى أحصل على شيء أكثر إفادة».

قلت: «في الواقع أواجه صعوبة نسبية في إيجاد ما أبحث عنه، حيث إن الوقائع لا تزال حديثة، والمسألة تبدو لي غريبة بعض الشيء. وقد خشيتُ أن أخبرك بهذا الأمر لعلمي بأن لديك تحقيقًا آخر جاريًا، وأنك تكره تداخل الأمور».

– آه، تقصد المشكلة الصغيرة المتعلقة بشاحنة الأثاث في ميدان جروزفينور. لقد اتضحت المسألة إلى حد ما، وإن كانت واضحة من البداية. من فضلك، أطلعني على نتائج مقتطفاتك من الصحف.

– ها هو أول خبر استطعت العثور عليه. إنه في العمود الشخصي بجريدة (مورنينج بوست)، وكما ترى فالتاريخ يرجع لعدة أسابيع:

(رُتِّب الزواج، ولو صحت الشائعات فسيكون بين اللورد روبرت سانت سيمون، الابن الثاني لدوق بالمورال، والآنسة هاتي دوران الابنة الوحيدة لألويسيوس دوران من سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة الأمريكية) هذا كل شيء».

قال هولمز وهو يمدد ساقيه الطويلتين النحيفتين ناحية النار: «مختصَر، وفي الصميم».

– ثمة مقال يشرح الموضوع في إحدى الجرائد المجتمعية في نفس الأسبوع، ها هو ذا: (ستنطلق صرخة استغاثة في سوق الزواج قريبًا، حيث تتحامل سياسة التجارة الحرة التي نتبعها على منتجنا المحلي. خطوة بخطوة تنتقل إدارة منازل النبلاء إلى يد أبناء عمومتنا على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي. فقد تحققت إضافة مهمة خلال الأسبوع الماضي لقائمة الغنائم التي اقتنصتها تلك الغازيات الساحرات. فاللورد سيمون الذي أظهر مقاومة ضد سهام الحب لأكثر من عشرين عامًا، أعلن أخيرًا عن قرب زواجه من الآنسة هاتي دوران، الابنة الفاتنة لمليونير من كاليفورنيا. الآنسة دوران التي جذبت الأنظار بقوامها الرائع ووجهها الأخاذ في احتفالات قصر ويستبيري هي ابنة وحيدة، ويقال حاليًّا إن مهرها المتوقع سيجاوز مبلغًا من ستة أرقام. ومن المعروف أن دوق بالمورال قد باع لوحاته في الأعوام القليلة المنصرمة، ولما كان اللورد سانت سيمون لا يملك شيئًا خاصًّا به سوى مقاطعة برشيمور الصغيرة، فمن الواضح أن الوريثة الكاليفورنية ليست الرابح الوحيد من هذا الرباط الذي سيمكنها من التحول من سيدة في إحدى الجمهوريات إلى نبيلة إنجليزية.

تثاءب هولمز وهو يسأل: «هل من شيء آخر؟»

– نعم، الكثير. ها هو خبر آخر صغير بجريدة مورنينج بوست، يذكر أن الزواج سيتم في هدوء شديد، وسيُعقد القران في كنيسة سان جورج في ساحة هانوفر، وسيحضر فقط ستة أشخاص من الأصدقاء المقربين، ثم يعود الجمع إلى المنزل المفروش الذي استأجره السيد ألويسيوس دوران في لانكستر جيت. وبعد يومين –الأربعاء– نشر إعلان صغير عن إتمام الزفاف بالفعل، وسيقضي العروسان شهر العسل في قصر اللورد باكووتر بالقرب من بيترسفيلد. هذا ما تم نشره قبل اختفاء العروس.

انتفض هولمز وسألني: «قبل ماذا؟»

– اختفاء السيدة.

– متى اختفت إذًا؟

– وقت الفطور في الصباح التالي لليلة الزفاف.

– بالطبع. الأمر أكثر إثارة مما ظننت، أكثر دراما في الواقع.

– أجل، لقد أدهشني كونه غير مألوف.

– غالبًا ما يختفين قبل مراسم الزفاف، أحيانًا خلال شهر العسل، لكن ذهني لا يستحضر حدثًا مماثلًا ومثيرًا لهذا الحد، من فضلك أطلعني على التفاصيل.

– دعني ألفت نظرك لكونها غير مكتملة.

– ربما نجعلها أوضح.

– إنها منشورة في جريدة الأمس الصباحية، سأقرؤها عليك كما هي، عنوانه (واقعة غريبة في زفاف حديث: خيم الأسى على عائلة اللورد روبرت سانت سيمون جراء الأحداث المؤلمة والغريبة التي ارتبطت بزواجه. كان الزفاف الذي أعلن عنه بإيجاز في صحف الأمس قد تم في الصباح الماضي. أما الآن فيمكن تأكيد الشائعات التي كانت قد انتشرت بقوة. وعلى الرغم من محاولات الأصدقاء إبقاء الأمر سرًّا، فإن

الواقعة جذبت انتباه قطاع عريض من المتابعين، وصارت الموضوع الأهم في أحاديث العامة، بحيث لم يعد هناك طائل من التظاهر بتجاهلها.

كان الزفاف الذي تم في كنيسة سان جورج بميدان هانوفر هادئًا تمامًا، إذ لم يحضر غير والد العروس السيد ألويسيوس دوران، ودوقة بالمورال، واللورد باكووتر، واللورد يوستاس والسيدة كلارا سانت سيمون (الإخوة الأصغر للعريس) والسيدة أليسيا ويتنجتون. توجه الجمع لتناول الفطور في منزل السيد ألويسيوس دوران بمدينة لانكستر جيت. ويبدو أن ثمة مشكلة تسببت فيها امرأة ما –لم يُفصَح عن اسمها– كانت قد حاولت اقتحام المنزل بعد حفل الزفاف بدعوى أن لها حقًّا عند اللورد سانت سيمون. وبعد مشهد طويل أليم طُرِدَت بواسطة الخادم والبواب. ولحسن حظ العروس، لم تصل المنزل قبل انتهاء هذه المقاطعة غير السعيدة، فجلست لتتناول الفطور مع البقية، قبل أن تشكو من وعكة صحية مفاجئة وتذهب لغرفتها. وقد أثار غيابها الطويل بعض التعليقات، فتبعها العريس إلى غرفتها ليعرف من الخادمة أنها دخلت الغرفة سريعًا وأخذَت معطفًا وقبعة وسارعت إلى الممر. كما أفاد أحد الخدم بأنه رأى سيدة تغادر المنزل لها هذه الصفات، غير أنه لم يدرك ساعتها أنها سيدة المنزل الجديدة، بل اعتقد أنها إحدى الضيوف. وعندما تأكد السيد ألويسيوس من اختفاء ابنته بادر بمشاركة العريس بالاتصال بالشرطة، وبدأت تحقيقات مكثفة بغية إجلاء الأمر سريعًا. لكنهم لم يتوصلوا لشيء بخصوص اختفاء السيدة حتى وقت متأخر من ليلة أمس. وقد انتشرت شائعات بخصوص لعبة قذرة تقف وراء هذا الحدث، كما يقال بأن الشرطة اعتقلت السيدة الغريبة التي تسببت في الإزعاج بداية الأمر، ظنًّا منهم بأن لها يدًا في اختفاء العروس على نحو غريب، ربما بدافع الغيرة أو شيء من ذلك)».

– أهذا كل شيء؟

– ثمة مقال صغير في صحيفة صباحية أخرى، لكنه لا يصرح بمعلومات أكيدة.

– ألا وهو؟

– يقول إن السيدة فلورا ميلر، التي تسببت في إزعاج العريسين، قد أُلقي القبض عليها. ويبدو أنها راقصة باليه في مسرح أليجرو، وأنها كانت على معرفة سابقة بالعريس منذ سنوات. لا توجد تفاصيل أخرى، والقضية برُمتها بين يديك طبقًا لما نشرته الصحافة.

– تبدو قضية في غاية الإثارة، وليس ثمة شيء قد يجعلني أفوتها. غير أن الجرس يدق الآن يا واتسون، وتفصلنا بضع دقائق فقط عن الساعة الرابعة، أكاد أجزم بأنه عميلنا. لا تُفكر في الذهاب يا واتسون، إذ إنني أفضل وجود شاهد ولو من أجل تذكيري بما يدور لاحقًا.

قال الخادم فيما يفتح الباب: «اللورد روبرت سانت سيمون». دخل رجل محترم ذو وجه بشوش وشاحب، الشموخ بائن على أنفه، وربما يبدو عليه شيء من النزق، له عينان ثابتتان لرجل قُدّر له أن يأمر فيطاع. كانت حركته رشيقة، ومع ذلك فإن مظهره العام يعطي انطباعًا خاطئًا عن سنه، إذ كان محنيًّا قليلًا للأمام وركبتاه تنثنيان بعض الشيء أثناء سيره. ظهر شعره خفيفًا عند المقدمة حين خلع قبعته المحدبة، يحف به الشيب على الجانبين. أما ثيابه فكانت شديدة الأناقة لدرجة المغالاة، بصدرية

بيضاء ومعطف أسود طويل ذي ياقة عالية، وقفاز أصفر وحذاء جلدي فاخر بغطاء واق ذي لون فاتح. تقدم ببطء داخل الغرفة، متلفتًا إلى اليمين واليسار ومؤرجحًا سلسلة نظارته الذهبية بيمناه.

قال هولمز فيما يقف وينحني: «طاب يومك أيها اللورد سانت سيمون، من فضلك اجلس على الكرسي. هذا صديقي وزميلي الدكتور واتسون. اقترِب قليلًا من النار حتى نناقش الأمر».

– إنه أمر مؤلم للغاية بالنسبة لي، كما يمكنك أن تتخيل بسهولة يا سيد هولمز. لقد قُضي عليّ، وأدرك أنك توليت العديد من القضايا الحساسة من هذا النوع يا سيدي، وإن كنت أظن أنها لا تتصل بنفس هذه الطبقة الاجتماعية.

– بالعكس، أظن أنني الآن أنحدر.

– أستميحك عذرًا!

– لقد كان آخر عميل لدي من هذا الصنف ملكًا.

– آه، حقًّا! لم يكن لدي علم. أي ملك؟

– ملك إسكندنافيا.

– ماذا! هل فقد زوجته؟

رد هولمز بلباقة: «يمكنك أن تفهم أني أتعهد بالسرية في قضايا عملائي، تمامًا كما سأفعل بالنسبة لقضيتك.

– بالطبع، هذا صحيح جدًّا، صحيح جدًّا! أرجوك أن تعذرني. أما بخصوص قضيتي فأنا على استعداد للإدلاء بكافة المعلومات التي قد تساعدك في تكوين رأي بشأنها.

– أشكرك. لدي علم بما نشر في الصحف، لا شيء أكثر. هل بوسعي أن أعتبر ما جاء في هذا المقال عن اختفاء العروس صحيحًا؟

تفحصه اللورد سانت سيمون سريعًا وقال: «نعم، إنه صحيح في حدود ما ذكر فيه».

– لكنه يحتاج لشرح كثير حتى أتمكن من تكوين هذا الرأي. أظن أنني سأصل إلى الحقائق مباشرةً لو أنني استجوبتُك.

– أرجوك أن تفعل.

– متى قابلت الآنسة هاتي دوران لأول مرة؟

– منذ عام في سان فرانسيسكو.

– هل كنت مسافرًا للولايات المتحدة؟

– نعم.

– هل ارتبطتما حينها؟

– لا.

– لكن العلاقة بينكما كانت طيبة.

– كنت مبهورًا بمجتمعها، وكان بإمكانها أن ترى ذلك.

– هل والدها شديد الثراء؟

– يقال إنه الأوسع ثراء على امتداد شاطئ المحيط الهادئ.

– وكيف صنع ثروته؟

– من التعدين، لم يكن يملك شيئًا يُذكر خلال الأعوام القليلة الماضية. ثم عثر على الذهب، فاستثمره وتحسنت أحواله بين عشية وضحاها.

– والآن، ما انطباعك عن شخصية السيدة الشابة، زوجتك؟

أخذ الرجل النبيل يؤرجح نظارته بسرعة أكبر وراح يُحدق إلى النار فيما يقول: «كما ترى يا سيد هولمز، كانت زوجتي في العشرين قبل أن يصبح والدها ثريًّا. خلال هذه الفترة، كانت تتحرك بحرّية تامة في مخيم التعدين، وكانت تتجول عبر الغابات والجبال، لذا فإنها استقت تعليمها من الطبيعة لا المدرسة. إنها ممن نسميهن في إنجلترا فتاة مسترجلة، ذات طبيعة قوية وجامحة، حرة لا تتقيد بأي نوع من العادات والتقاليد، مندفعة، أو بمعنى أصح: ثائرة، متسرعة في اتخاذ قراراتها ولا تخشى نتائجها، وما كنت لأمنحها اسمي الذي أتشرف بحمله، (ثم توقف وسعل قليلًا) لولا أنني أعتقد في كونها في قرارة نفسها امرأة نبيلة. أظنها على استعداد لتقديم تضحيات بطولية، وأنها ستُقابل أي تصرف شائن بالرفض والنفور».

– ألديك صورة لها؟

– أحضرت هذه معي.

وفتح قلادة ليرينا الوجه الكامل لامرأة آية في الجمال. لم تكن صورة فوتوغرافية بل كانت نقشًا مصغرًا على العاج. وقد أظهر الفنان التأثير الكامل للشعر الأسود والعينين السوداوين الواسعتين، وكذلك الثغر الدقيق. حدق هولمز إليها طويلًا بكل تركيز، ثم أغلق القلادة وأعادها للورد سانت سيمون.

– ثم حضرت السيدة الشابة إلى لندن وجددتما الصلة؟

– نعم، لقد جاء بها والدها لحضور موسم لندن الأخير. قابلتها عدة مرات ثم تمت خطبتنا، والآن أصبحنا زوجين.

– كما أفهم فقد دفعت مهرًا معتبرًا.

– إنه مهر عادل، ليس أكثر من المتعارف عليه في عائلتي.

– وبالطبع يبقى في حوزتك بما أن الزواج صار واقعًا لا رجوع فيه.

– حقيقة أنا لم أبحث في هذه المسألة.

– من الطبيعي ألا تفعل. هل رأيت الآنسة دوران في اليوم السابق لزفافكما؟

– نعم.

– أكانت في حالة نفسية جيدة؟

– أفضل من المعتاد، ظلت تتحدث عما سنفعله في حياتنا المستقبلية.

– بالطبع. هذا مثير جدًّا. وماذا عن صباح يوم الزفاف؟

– كانت في غاية الألق، على الأقل لما بعد انتهاء المراسم.

– وهل لاحظتَ أي تغير بعد ذلك؟

– حسنًا، إحقاقًا للحق، لقد رأيت حينها أولى علامات مزاجها الحاد بدرجة ما. لكن ما حدث كان أتفه من أن يقال، ولا يمكن اعتباره ذا صلة محتملة بالقضية.

– من فضلك أخبرني بما حدث بالتفصيل.

– آه، إنه أمر تافه. لقد أسقطت باقة الورد أثناء سيرنا نحو مذبح الكنيسة. كانت تمر بجوار المقعد الأمامي، فسقطت الباقة فوقه. حدث تأخير للحظات، لكن الشخص الجالس في المقعد الأمامي أعاد الباقة إليها، ولم يحدث أي ضرر فيها. غير أني حين حدثتها في الأمر، ردت عليّ بطريقة فاجأتني، وحين كنا بداخل العربة في طريقنا إلى المنزل، بدت مضطربة بشكل سخيف جراء هذا السبب التافه.

– حقًّا، إنك تقول إنه ثمة سيد كان يجلس على المقعد الأمامي. هل كان بين الحضور أشخاص من العامة إذًا؟

– آه نعم، فمن المستحيل منعهم من الدخول طالما كانت الكنيسة مفتوحة.

– لم يكن هذا السيد من أصدقاء زوجتك؟

– لا، لا، أنا أدعوه بالسيد من قبيل الاحترام، لكنه بدا شخصًا عاديًّا جدًّا، بالكاد لاحظت وجوده. لدي اعتقاد بأننا نبتعد الآن عن النقطة الأساسية.

– إذًا فقد عادت السيدة من الزفاف وهي أقل بهجة مما كانت عليه عند الذهاب. وماذا فعلت عند دخولها منزل والدها؟

– رأيتها تتحدث إلى خادمتها.

– ومن تكون خادمتها؟

– اسمها آليس؛ إنها أمريكية وقد جاءت معها من كاليفورنيا.

– هل هي خادمة موثوقة؟

– موثوقة ربما بدرجة مبالغ فيها قليلًا، إذ يبدو لي أن سيدتها منحَتها مساحةَ حرية واسعة. لكنهم ينظرون إلى الأمور بطريقة مختلفة بعض الشيء في أمريكا.

– كم استغرق حديثها مع آليس هذه؟

– آه، بضع دقائق، كنت وقتها مشغولًا في أمر آخر.

– ألم تسترق السمع لحديثهما؟

– لقد قالت السيدة سانت سيمون شيئًا عن «القفز إلى التميُّز»؛ كانت معتادة على استخدام مصطلحات من هذا النوع. لا فكرة لدي عما كانت تعنيه.

– أحيانًا تكون العامية الأمريكية معبرة جدًّا. وماذا فعلت زوجتك بعد فراغها من الحديث مع الخادمة؟

– دخلت إلى غرفة الفطور.

– ويداكما متشابكتان؟

– لا، كانت وحدها. لقد كانت مستقلة في مثل هذه الأمور الصغيرة. ثم بعد أن جلسنا لحوالي عشر دقائق نهضت بطريقة مفاجئة، وغمغمت بكلمات اعتذار وتركت الغرفة. ولم تعد مجددًا.

– لكن الخادمة أقرت بأنها ذهبت لغرفتها وغطت فستان زفافها بمعطف طويل، ثم وضعت قبعة وتوجَّهت إلى الخارج، أليس كذلك؟

– نعم تقريبًا. وبعد ذلك شوهدت تسير في هايد بارك برفقة فلورا ميلر، وهي السيدة المحتجزة الآن، والتي قامت بالفعل بإثارة جلبة في منزل السيد دوران في ذات الصباح.

– آه، نعم. أود أن أعرف بعض التفاصيل الخاصة بهذه السيدة الشابة، وما علاقتك بها.

هز اللورد سيمون كتفيه ورفع حاجبيه وقال: «كانت تربطنا علاقة ودية لبضع سنوات –بل يمكنني وصفها بالعلاقة شديدة الود. كانت تعمل بالأليجرو. لم أعاملها إلا بكرم، ولم يكن لديها سبب لتشكوني به، لكنك تعرف حال النساء يا سيد هولمز. لقد كانت فلورا رقيقة بعض الشيء، لكنها سريعة الغضب وشديدة التعلق بي. كتبَت لي خطابات مريعة حين سمعت بأني موشك على الزواج، ولكي أكون أكثر صراحة، كان السبب وراء إتمام الزفاف بالهدوء الذي كان عليه، هو خشية حدوث فضيحة ما في الكنيسة. لقد ذهبت إلى منزل السيد دوران عند عودتنا بعزم واضح على اقتحامه، ثم وجهت عبارات شديدة السوء لزوجتي، بل وصل الأمر إلى التهديد، لكنني توقعت حدوث شيء من هذا، فقمت باستدعاء صديقين من الشرطة لكي يُوجَدا بملابس مدنية، وسرعان ما أخرجاها من المنزل. وقد هدأت حين لم تجد طائلًا من الشجار».

– هل سمعَت زوجتك كل هذا؟

– لا، الحمد لله أنها لم تسمع.

– ثم شوهِدَت مع هذه المرأة لاحقًا؟

– نعم. هذا ما يراه السيد ليستراد من سكوتلاند يارد أمرًا شديد الخطورة. إذ يرجح أن فلورا استدرجت زوجتي إلى الخارج وأعدَّت لها شرَكًا.

– حسنًا، إنه افتراض جائز.

– أنت أيضًا تظن ذلك؟

– لم أقل ذلك، أقول فقط إنها فرضية محتمَلة، ألا ترى ذلك بنفسك؟

– لا أعتقد أن فلورا قد تؤذي ذبابة.

– لكن الغيرة قد تُحدِث تحولات مدهشة في الشخصية. ما نظريتك بخصوص الواقعة؟

– حسنًا، لقد جئتُ إليك حتى أحصل على نظرية، وليس لافتراض واحدة. أخبرتك بكل الوقائع، لكن بما أنك سألتني فيمكنني القول إن ما يتبادر لذهني أن ما حدث لزوجتي من اضطراب، هو بسبب الأحداث المثيرة المتلاحقة التي تعرَّضَت لها، وكذلك لوَعيها بحجم النقلة الاجتماعية التي تُقبل عليها».

- باختصار، تقصد أنها تعرضت لخلل مفاجئ؟

- حسنًا، الحقيقة أنها تخلَّت -لن أقول عني لكن- عن الكثير مما تطمح إليه الكثيرات ولا يستطعن تحقيقه، لذا لا يسعني تفسير الأمر على نحو آخر.

فقال هولمز مبتسمًا: «حسنًا، هذه نظرية منطقية أيضًا بكل تأكيد. والآن أيها اللورد سانت سيمون، أعتقد أن لدي تقريبًا كل ما أحتاجه من المعلومات. لكنّ ثمة سؤالًا واحدًا آخر، هل كان موقع جلوسكما لمائدة الإفطار يتيح لكما النظر إلى الخارج عبر النافذة؟»

- كان يمكننا رؤية الجانب الآخر من الطريق والمتنزَّه.

- الأمر كذلك إذًا. لا أظن أني بحاجة لتعطيلك أكثر من ذلك. سأكون على اتصال بك.

قال عميلنا وهو ينهض: «أرجو أن يحالفك الحظ في حل هذه المعضلة».

- لقد حالفني بالفعل.

- ها؟ ماذا قلت؟

- قلت إنني حللتُ المعضلة فعلًا.

- إذًا أين زوجتي؟!

- سأوافيكَ بهذه المعلومة على وجه السرعة.

فقال اللورد سانت سيمون فيما يهز رأسه: «أخشى أن يتطلب الأمر عقولًا أكثر حكمة منك ومني»، ثم انحنى بطريقته الوقور والمحافظة.

ضحك هولمز وقال: «إنه لشرف أن تضع عقلي في منزلة عقلك».

وأكمل بعد ذهاب اللورد: «أعتقد أنني بحاجة لشُرب الويسكي مع الصودا وتدخين السيجار بعد كل هذه الأسئلة. لقد توصلتُ لنتائجي في القضية حتى قبل دخول عميلنا لهذه الغرفة».

- ماذا تقول يا عزيزي هولمز؟

- لدي مذكرات لقضايا عديدة من هذا النوع، وقد ساهم استجوابه مع تحقيقي في تحويل ظنوني إلى اليقين التام. أحيانًا تكون الأدلة مقنعة على نحو مُدهش، كأن تجد سمكة سلمون في الحليب كما يقول ثورو.

- لكنني سمعتُ كل ما سمعتَه أنت.

- لكن دون دراية بالقضايا السابقة الشبيهة التي أفادَتني تمام الإفادة. كانت هنالك حادثة مماثلة في أبردين منذ بضع سنوات، وقضية أخرى مماثلة في ميونخ بعد عام من انقضاء الحرب الفرنسية-البروسية. إنها واحدة من هذه القضايا ذات الطبيعة المشابهة. لكن، آه، ها هو ليستراد! مساء الخير يا ليستراد ستجد كأسًا إضافية على الطاولة، وهناك سيجار في الصندوق.

كان المحقق الرسمي يرتدي سترة صوفية قصيرة ورابطة عنق، ما أضفى عليه مظهر البحارة، وكان يحمل في يده حقيبة سوداء مصنوعة من الكنفا. جلس بعد أن ألقى تحية سريعة وأشعل السيجار الذي عُرِض عليه.

سألهُ هولمز وعيناه بارقتان: «ماذا هنالك إذًا؟ تبدو مستاءً».

– أنا مستاء بالفعل. إنها قضية زواج سانت سيمون المزعجة. أعجز تمامًا عن تفسير الواقعة.

– حقًّا؟! لقد فاجَأتَني.

– هل سمع أحد بقضية بمثل هذا التعقيد من قبل؟! كل الخيوط تتسرب من يدي. لقد كنت أعمل عليها ليل نهار.

وضع هولمز يده على ذراع المفتش وقال: «ويبدو أنها عرضتكَ للبلل».

– نعم، فقد كنت أبحث في بحيرة سربنتين.

– يا إلهي، لماذا؟

– بحثًا عن جثة السيدة سانت سيمون.

فأسند هولمز ظهره على كرسيه وانفجر ضاحكًا، وسأله: «هل بحثت في نافورة ساحة ترافالجار؟»

– لماذا؟ ماذا تعني؟

– لأن احتمال وجودها في هذا المكان هو نفس احتمال وجودها في بحيرة سربنتين.

رمق ليستراد رفيقي بنظرة غضب وقال: «أظنك قد توصَّلت لشيء بخصوص هذا الأمر».

– حسنًا، لقد سمعت الوقائع لتوي، وأظنني توصلت لقناعة ما.

– آه، بالطبع، إذًا فأنت تظن أن لا علاقة لبحيرة سيربنتين بالأمر؟

– أعتقد أنها مستبعدة تمامًا.

– هلّا فسرت لي إذًا كيف عثرنا على هذه بداخلها؟

فتح حقيبته أثناء حديثه وألقى على الأرض فستان زفافٍ من الحرير المموج، وحذاءً من الستان الأبيض، وإكليلَ عروس وطرحة، كلها باهتة ومبتلة، ثم قال وهو يضع خاتم زواج حديثًا فوق هذه الكومة: «إليك هذا. إليك أزمة ينبغي لك حلّها يا سيد هولمز».

قال صديقي وهو يقلب الخاتم في الهواء: «بالطبع، هل أخرجتَ هذه الأشياء من بحيرة سيربنتين؟»

– لا، لقد عثر عليها أحد حراس المتنزَّه طافية بالقرب من الشاطئ. وقد تم التعرف عليها والتأكد من أنها ثيابها، ولقد بدا لي أنه ما دمنا وجدنا هذه الأشياء هناك، فإن الجثة لن تكون بعيدة.

– بنفس هذا المنطق العبقري، فإن كل جثة ستكون بجوار دولاب ملابس. بحقك ما الذي أردت الوصول إليه من كل هذا؟

– دليل يثبت تورط فلورا ميلر في الاختفاء.

– أخشى أنك ستجد الأمر شاقًّا جدًّا.

صاح ليستراد عابسًا: «هل أنت متأكد الآن؟ أخشى يا هولمز أنك لست عمليًّا في استنتاجاتك واستدلالاتك. لقد ارتكبتَ خطأين فادحين في دقائق قليلة. هذا الثوب يورط الآنسة فلورا ميلر».

– وكيف هذا؟

– هناك جيب في الفستان. وفي هذا الجيب علبة بطاقات. وفي تلك العلبة رسالة صغيرة.

وضعها على الطاولة أمامه وقال: «اسمع هذا: سترينَني عندما يصبح كل شيء جاهزًا. عندها تعالي فورًا. إف إتش إم. نظريتي تقول إن فلورا ميلر قد استدرجت السيدة سانت سيمون بعيدًا، وأنها مسؤولة دون شك عن اختفائها بمعاونة بعض الشركاء. والتوقيع هنا بالأحرف الأولى من اسمها. لقد دسَّت الرسالة في يدها عند الباب».

فقال هولمز ضاحكًا: «جيد جدًّا يا ليستراد. أنت جيد حقًّا. دعني أراها»، أخذ هولمز الورقة برعونة، ولكن شيئًا ما لفت انتباهه فأطلق صيحة رضا وقال: «هذا حقًّا مهم».

– ها، عثرت عليها إذًا؟

– بالتأكيد، أهنئك بحرارة.

رفع ليستراد رأسه منتشيًا بالنصر، ثم خفضها ونظر قائلًا: «لماذا؟ إنك تنظر في الاتجاه الخاطئ».

– على العكس، هذا هو الاتجاه الصحيح.

– الاتجاه الصحيح؟! أنت مجنون! ها هي الرسالة مكتوبة بقلم الرصاص من الناحية الأخرى.

– وهنا يظهر أنها قطعة من فاتورة فندق. هذا ما يثير انتباهي بشدة.

قال ليستراد: «لا يوجد بها شيء، لقد بحثت فيها من قبل. الرابع من أكتوبر، ثمانية شلنات نظير الإقامة، شلنان وستة قروش للإفطار، شلن للكوكتيل، شلنان وستة قروش للغداء، زجاجة نبيذ ثمانية قروش. لا أرى شيئًا في كل هذا».

– من غير المستبعد ألا ترى أهميتها. لكنها مهمة جدًّا، تمامًا كالبقية. أما الرسالة فهي مهمة أيضًا، أو هذه الأحرف الأولى على الأقل، لذا أهنئك مجددًا.

نهض ليستراد قائلًا: «لقد أضعتُ وقتًا كافيًا. أنا أؤمن بالعمل الجاد وليس بالجلوس بجانب المدفأة وافتراض نظريات حاذقة. نهارك سعيد يا سيد هولمز، وسنرى من سيصل إلى الحقيقة أولًا»، وقام بجمع الأغراض ووضعها في الحقيبة وخطا نحو الباب».

قال هولمز قبل أن ينصرف خصمه: «سأمنحك لمحة يا ليستراد، سأخبرك بالمفتاح الصحيح لهذه القضية. إن السيدة سانت سيمون خيالية جدًّا، ولا يوجد شخص أبدًا بهذا الاسم».

نظر ليستراد بأسى إلى رفيقي. ثم نظر إليه وخبط على جبهته ثلاث مرات، وهز رأسه بوقار ثم انصرف مسرعًا.

بالكاد أغلق الباب خلفه حتى نهض هولمز وارتدى معطفه وقال: «هناك شيء صحيح بخصوص ما قاله الرجل عن العمل في الخارج، لذا أظن أنني سأتركك يا واتسون لجرائدك هذه لبعض الوقت».

كانت الساعة قد جاوزت الخامسة عندما تركني شيرلوك هولمز، لكني لم أمكث طويلًا بمفردي. فخلال ساعة وصل أحد أصحاب المطاعم وبحوزته صندوق مسطح كبير، أفرغ ما فيه بمعاونة شاب اصطحبه معه، ودهشت حين وجدتُ عشاءً فاخرًا وباردًا قليلًا يوضع على مائدتنا المتواضعة المصنوعة من خشب الماهوجني. كان هناك صحنان كبيران من لحم الدجاج البارد، وفطيرة محشوة بكبد الإوز،

مع مجموعة من زجاجات الخمر المعتق. وبعدما انتهيا من وضع الطعام الفاخر، اختفى الزائران مثل جني في قصص ألف ليلة، دون أي توضيح سوى أن الحساب مدفوع والطعام مُرسل لهذا العنوان.

وقبل التاسعة دخل هولمز مسرعًا إلى الغرفة. كانت ملامحه جادة، لكن في عينيه بريقًا جعلني أتأكد من كونه لم يعُد خالي الوفاض.

قال فاركًا يديه: «إذًا فقد أعدوا العشاء».

– يبدو أنك كنت في انتظار أحدهم. لقد أعدوا العشاء لخمسة أفراد.

قال: «أجل، أعتقد أن بعض الرفاق سيلحقون بنا، أنا متفاجئ لكون اللورد سانت سيمون لم يصل بعد. ها، أعتقد أنني أسمع خطواته على السلم».

بالفعل، كان زائرنا هو بالفعل من دخل مهرولًا يؤرجح نظارته أسرع من السابق، وقد علا ملامحه الأرستقراطية قلق شديد.

سأله هولمز: «هل وصلتك رسالتي؟»

– نعم، وأعترف أن فحواها أرهبني إلى أبعد حد، أواثق أنت مما تقوله؟

– تمام الثقة.

جلس اللورد سانت سيمون ووضع يده فوق جبهته، وغمغم قائلًا: «ماذا سيقول الدوق عندما يسمع أن أحد أفراد عائلته تعرض لهذا الحد من الإذلال؟»

– إنها محض صدفة. ليس هنالك أي إذلال.

– آه، أنت ترى هذه الأمور من منظور مختلف.

– لا يمكن أن يُلقى اللوم على أحد. لا يمكنني أن أرى تصرفًا آخر منطقيًّا غير ما قامت به السيدة، وإن كان أسلوبها السخيف في التنفيذ هو ما يدعو للأسف. فهي لم تجد من ينصحها خصوصًا في غياب والدتها.

قال اللورد سانت سيمون وهو ينقر بأصابعه على الطاولة: «لقد كانت إهانة يا سيدي، إهانة علنية».

– ينبغي لك أن تعذر هذه المسكينة، لأنها وجدت نفسها في موقف غير مسبوق.

– لن ألتمس أعذارًا، أنا غاضب جدًّا، لقد تم استغلالي بطريقة مخزية.

قال هولمز: «أظن أني سمعت صوت الباب، نعم، هناك صوت على عتبة السلم. إن لم أقدر على إقناعك بأن تأخذ الأمر برفق أيها اللورد سانت سيمون، فقد أحضرت لك محاميًا إذ ربما ينجح أكثر مني»، ثم فتح الباب وأشار بالدخول لرجل وامرأة. ثم قال: «اسمح لي أيها اللورد سانت سيمون أن أقدمك إلى السيد والسيدة فرانسيس هاي مولتون، أعتقد أنك قد قابلت السيدة من قبل».

بمجرد أن رأى الوافدين الجديدين، انتفض عميلنا من مقعده ووقف منتصبًا بشدة وخفض ناظره، وعلَّق يده على صدرية معطفه، كرجلٍ أُهينَت كرامته. تقدمت السيدة بخطوات سريعة إلى الأمام ومدت يدها إليه، لكنه ظل رافضًا رفع عينيه. ربما ظل هكذا للحفاظ على ثباته أمام وجهها المتوسل، الذي يصعب مقاومته.

قالت: «أنت مستاء يا روبرت، حسنًا، أعتقد أن لديك الحق في ذلك».

رد اللورد سانت سيمون بمرارة: «أرجوكِ ألا تقدمي أي اعتذار لي».

– آه، نعم، أعرف أنني عاملتك بسوء شديد، وكان يجب علي التحدث إليك قبل ذهابي، لكنني كنت مشوشة، ومنذ رأيت فرانك هنا مجددًا لم أدرك ما يجب عليّ أن أفعله. بل إنني أتساءل كيف لم أفقد الوعي تمامًا أمام المذبح في الكنيسة.

– ربما تودين أيتها السيدة مولتون أن أترك الغرفة أنا وصديقي فيما تشرحين الأمر.

وقال السيد الغريب: «إذا سمحتم لي بإبداء رأيي، لقد أحَطنا الأمر بقدر من السرية المبالغ فيها بحق. وبالنسبة إلي أريد أن تسمع أوروبا وأمريكا كلها بالحقائق» كان رجلًا ضئيل الحجم ونحيفًا، حليق اللحية وعليه سمرة الشمس، ذا وجه حاد وأسلوب رشيق.

قالت السيدة: «إذًا سأروي قصتنا في الحال، تقابلت أنا وفرانك عام 1884 في مخيم ماكوير بالقرب من جبال روكي، حين كان والدي ينقب عن الذهب. تمت خطبتنا، غير أن أبي عثر على الذهب وصار ثريًّا، بينما نقَّب فرانك المسكين ولم يصل لشيء. وكلما زاد ثراء أبي زاد فرانك فقرًا، لذلك لم يعد أبي في النهاية راغبًا في استمرار الخطبة، وأخذني بعيدًا إلى فريسكو. وما كان فرانك ليستسلم لذلك، فتبعني إلى هناك وصرنا نلتقي دون علم أبي. كان ليجن جنونه لو علم بالأمر. ثم رتبنا كل شيء بنفسنا. قال لي فرانك إنه سيذهب ليصنع ثروةً هو الآخر، ولن يعود ليطالب بي إلا حين تكون ثروته في حجم ثروة أبي. لذلك وعدته بأن أنتظره حتى نهاية العالم وقطعت عهدًا على نفسي ألا أتزوج غيره ما دام حيًّا. فوجدته يقول: لماذا لا نتزوج الآن؟ عندها سأتأكد أنك لي، ولن أطالبك بحقوقي كزوج حتى أعود. تكلمنا في الأمر معًا وأعد كل شيء بشكل لطيف، وفي وجود قس أتممنا كل شيء، ومضى فرانك باحثًا عن الثراء وعُدتُ أنا لوالدي. وكان ما سمعته بعد ذلك من أخبار فرانك، من أنه كان في مونتانا ثم ذهب للتنقيب في أريزونا ثم نيو مكسيكو. بعد ذلك قرأت خبرًا مطولًا عن هجوم قبائل الأباتشي الهندية على أحد مخيمات التنقيب، ووجدتُ اسم فرانك بين القتلى، فسقطت مغشيًّا عليّ وبقيت في حالة إعياء لعدة أشهر تالية. ظن أبي أن بي مرضًا خطيرًا وطاف بي على نصف أطباء فريسكو. لم أسمع عنه خبرًا لعام أو أكثر، لذلك لم أشك قط في كون فرانك ميتًا. ثم أتى اللورد سانت سيمون إلى فريسكو وجئنا للندن ورُتِّب الزفاف، وكان أبي في غاية السعادة، لكنني شعرت طوال الوقت أنه لا يوجد رجل يستطيع أن يحتل مكان فرانك المسكين في قلبي. ومع ذلك، فلو أنني تزوجت من اللورد سانت سيمون كنت سأؤدي إليه كافة الحقوق. نحن لا نملك مشاعرنا لكننا نتحكم في أفعالنا. توجهت إلى المذبح معه عازمة على أن أكون زوجة صالحة. لكن لكم أن تتخيلوا كيف شعرتُ حين رأيتُ فرانك واقفًا ينظر إليّ من صف المقاعد الأمامية. ظننت في البداية أنه شبح، لكن حين أمعنت النظر مجددًا كان لا يزال واقفًا وعيناه تتساءلان ما إذا كنتُ سعيدة أم حزينة لرؤيته. أنا مندهشة من كوني لم أفقد الوعي. كان كل شيء يدور حولي وكلمات القس تطن كالنحلة في أذني. لم أدرِ ما عليّ فعله؛ هل أوقف المراسم وأثير فضيحة في الكنيسة؟ نظرت إليه نظرة أخرى خاطفة، وبدا أنه يعرف ما أفكر فيه، لذا رفع إصبعه لشفتيه كأنه يخبرني بأن أبقى ساكنة. ثم رأيته يخُطُّ شيئًا على ورقة فعلمت أنه يكتب لي رسالة. وحينما مررت بجانب مقعده في

طريقي للخروج أسقطتُ باقة الأزهار بجانبه، فدسَّ الرسالة في يدي فيما يعيد إلي الباقة. كانت الرسالة مجرد سطر يخبرني فيه أن ألحق به عند قيامه بالإشارة لي. بالطبع، لم أشك قط في أن واجبي الأول صار تجاهه هو، وعزمت أن أفعل أي شيء يُمليه عليّ.

حين عدت، أخبرت خادمتي التي كانت تعرفه وتعتبره صديقًا لها منذ كنا في كاليفورنيا. أمرتُها ألا تنبس بكلمة حول الموضوع، وأن توضب لي أغراضي ومعطفي. بالطبع، كان ينبغي عليَّ أن أُكاشِف اللورد سانت سيمون بكل شيء، لكن الأمر كان في غاية الصعوبة في حضور والدته وكل تلك الشخصيات العظيمة المحيطة به، فعزمت على الهرب مؤقتًا وشرح الأمر بعد ذلك. لم أمضِ في الجلوس على الطاولة عشر دقائق حتى رأيت فرانك خارج النافذة، على الجانب الآخر من الطريق. فأشار نحوي ومضى في طريقه إلى المتنزَّه. فارتديت ملابسي وتسللت إلى الخارج واقتفيتُ أثره. ثم جاءت امرأة وأرادت التحدث معي بخصوص أمر يتعلق باللورد سانت سيمون، وبدا لي مما سمعته أنه كان يُخفي سرًّا صغيرًا هو الآخر قبل الزواج، لكنني نجحت في الهروب منها واللحاق بفرانك. أخذنا عربة معًا، وانطلقنا إلى نُزُل بعيد في ساحة جوردون، وكان هذا زفافي الحقيقي بعد سنوات الانتظار الطويلة هذه. كان فرانك أسيرًا لدى قبائل الأباتشي، ونجح في الهروب منهم والعودة إلى فريسكو، واكتشف أنني صدقت قصة موته ورحلتُ إلى إنجلترا، فتبعني إلى هناك، وجاءني أخيرًا في صباح يوم الزفاف».

هنا قال الأمريكي: «قرأت عن الخبر في إحدى الجرائد، ورَدَ بها اسم الكنيسة فقط دون محل السكن».

– بعدها تحدثنا معًا عما ينبغي عمله، وكان فرانك يؤيد المصارحة، لكنني شعرتُ بخزي شديد وتمنيتُ لو أختفي ولا أرى أحدًا منهم مجددًا –فقط ربما كنت سأرسل رسالة لوالدي أخبره فيها أنني ما أزال حية. كان أمرًا مريعًا أن أفكر في كل هؤلاء اللوردات والسيدات الجالسين حول مائدة الإفطار منتظرين عودتي. لذلك أخذ فرانك فستان زفافي وبقية أغراضي وحزمها حتى لا يتتبع أحد أثرنا، فتخلص منها في مكان ما حيث لا يستطيع أحد العثور عليها. كنا سنتوجه غالبًا إلى باريس في الغد، لولا أن جاءنا هذا الرجل النبيل، السيد هولمز، هذا المساء –وإن كنت لا أعلم كيف عثر علينا– وأوضح لي جسامة الخطأ الذي ارتكبتُه، وأننا نوقِع أنفسنا في خطأ أكبر بإبقاء الأمر سرًّا بيننا. ثم عرض علينا أن نتحدث إلى اللورد سانت سيمون على انفراد، ولذلك أتينا دون تردد. والآن يا روبرت أنت على علم بكل شيء، وأنا شديدة الأسف على ما سببته لك من الألم، وأتمنى ألا تراني سيئة لهذا الحد.

لم يبد اللورد سانت سيمون أي لين في موقفه نهائيًّا، لكنه استمع إلى هذه الرواية المطولة بعبوس وشفتين مزمومتين.

قال: «اعذريني، لكن ليس من عادتي مناقشة أدق أموري الشخصية على الملأ».

– إذًا فلن تسامحني؟ لن تصافحني قبل الذهاب؟

– آه، بالطبع، إذا كان هذا سيسعدك.

ببرود مد إليها يده ليصافح يدها الممدودة نحوه.

فقال هولمز: «أملت أن تنضم إلينا على العشاء».

فرد سموه: «أعتقد أن طلبك مبالغ فيه، قد أكون مضطرًا في ظل هذه المعطيات الجديدة إلى الرضوخ، لكن لا تتوقع مني أن أكون سعيدًا بهما. أظن أنني -بعد إذنك- سأتمنى لكم جميعًا ليلة سعيدة». وانحنى لنا وانصرف إلى خارج الغرفة.

قال هولمز: «إذًا أثق في كونك ستشرفني بصحبتك. إن لقاء أمريكي لهو شرف لي، لأنني يا سيد مولتون واحد ممن يعتقدون أن حماقة قس وخطأ وزير قبل زمن بعيد، لن يمنعا أبناءنا من أن يكونوا يومًا مواطنين لنفس الدولة العالمية، تحت راية واحدة تضم علم المملكة المتحدة وعلم الولايات المتحدة».

غير أن الضيوف أصروا على الذهاب، فقال هولمز بعد انصرافهم: «لقد كانت قضية مثيرة للغاية، كما أوضحت كيف يمكن لتفسير قضية أن يكون شديد البساطة، برغم الصعوبة التي تبدو عليها لأول وهلة. لا شيء طبيعي أكثر من هذا التسلسل الأخاذ الذي حكت به السيدة، ولا شيء أغرب من النتيجة التي توصل إليها السيد ليستراد مفتش سكوتلاند يارد مثلًا».

- ألم تخطئ أنت بنفسك في تفسيرها إذًا؟

- من البداية كانت لدي حقيقتان واضحتان، أولاهما أن السيدة حضرت الزفاف برضاها التام، والثانية أنها ندمت على ذلك خلال دقائق لدى عودتها إلى المنزل. الواضح إذًا أن شيئًا ما حدث في الصباح، ودفعها إلى تغيير رأيها. ماذا قد يكون هذا الشيء؟ لم يكن باستطاعتها أن تتحدث مع أحد، لأنها كانت في صحبة العريس. فهل رأت شخصًا ما إذًا؟ لو كان الأمر كذلك، فلا بد أن يكون هذا الشخص من أمريكا لأنها قضت فترة قصيرة في هذه البلاد، بحيث لا تسمح لها بأن تتعرف على شخص يكون له هذا التأثير عليها، فتدفعها مجرد رؤيته لتغيير خططها كاملةً. وهكذا ترى أننا توصلنا من خلال الاستبعاد، لفكرة أنها ربما رأت شخصًا أمريكيًّا. من يكون إذًا هذا الأمريكي، وكيف يكون له مثل هذا التأثر عليها؟ ربما يكون حبيبًا سابقًا، أو زوجًا. حسب معرفتي فقد قضت شبابها المبكر في ظروف قاسية. كان هذا ما توصلت إليه قبل سماع رواية اللورد سانت سيمون. وعندما أخبرنا عن الرجل الجالس في صف المقاعد الأمامي، وعن تغير سلوك العروس حالما رأته، وعن الحيلة الواضحة لأخذ الرسالة عن طريق إسقاط باقة الزهور، وعن لجوئها لخادمتها الخاصة التي تثق بها وإشارتها المهمة عن القفز إلى التميز -والتي تعني في لغة العاملين في التعدين «أخذ مكان شخص آخر»- أصبح الأمر بأكمله واضحًا لي. لقد ذهبَت بصحبة رجل، وهذا الرجل إما حبيب أو زوج سابق، والأرجح هو الاحتمال الثاني.

- وكيف عثرت عليهما بحق السماء؟

- ربما كان الأمر صعبًا، لكن صديقنا ليستراد حاز شيئًا هو نفسه لا يدرك قيمته؛ الأحرف الأولى التي كانت بالفعل شديدة الأهمية، لكن الأهم كان معرفة أنه سدد فاتورة أسبوع في واحد من أرقى فنادق لندن.

- كيف استنتجت رقي الفندق؟

- عن طريق أسعاره بالطبع، فثمانية شلنات للإقامة وثمانية بنسات لزجاجة نبيذ، أشاروا بوضوح نحو فندق باهظ التكاليف. قليل من فنادق لندن تتقاضى هذه الأسعار. في ثاني فندق ذهبت إليه في

نورثمبرلاند، علمت من فحص سجل النزلاء أن نزيلًا أمريكيًّا اسمه فرانسيس إتش مولتون قد غادر قبل ذهابي بيوم واحد، وبفحص فاتورته وجدت أنها نفس الأشياء التي أرشدت عليها الفاتورة السابقة. وكان عنوان مراسلاته هو 226 ساحة جوردون، وبناءً على ذلك توجهتُ إليه، وكنت محظوظًا كفاية في العثور على العاشقين بداخل المنزل، فوجهتُ لهما نصائح أبوية وأشرتُ عليهما بأن يوضحا موقفهما قليلًا أمام العامة، وأمام اللورد سانت سيمون على وجه الخصوص. فدعوتهما للقائه هنا، ودعوته هو كذلك لنفس الموعد كما رأيت.

علقت قائلًا: «لكن دون نتيجة جيدة، فتصرفه لم يوحِ قط بامتنانه».

فقال هولمز مبتسمًا: «آه، ربما يا واتسون ما كنتَ لتمتنَّ لي أنت أيضًا لو وجدت نفسك بعد عناء التقرب والارتباط، محرومًا من الزوجة والثروة معًا وفي لحظة واحدة. أعتقد بأن علينا أن نترفق قليلًا في الحكم على اللورد سانت سيمون، ونشكر الله لكونه من غير المرجح أن نجد أنفسنا في نفس موقفه. اسحب مقعدك وناولني كماني، فالمشكلة الوحيدة التي علينا أن نحلها الآن، هي كيف سنقضي هذه الليلة الخريفية المظلمة».